عُقبة بن نافع

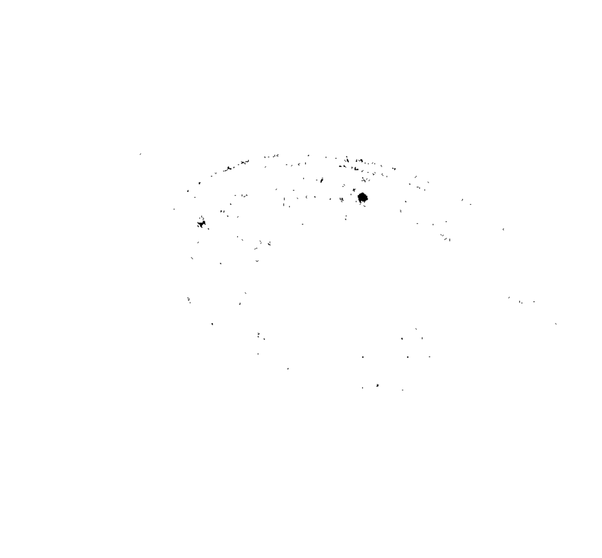
فاتح ليبيا والمغرب

تأليف
الدكتور محمّد ألتونجي

مكتبة قورينا للنشر والتوزيع
بنغازي

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

عقبة بن نافع



«وصيّة»

« يا بنيّ ، إني بعتُ نفسي من الله ، ولا أدري ما يُقضى عليّ في سفري يا بنيّ ، إني أوصيكم بثلاث خصال ، فاحفظوها ولا تضيعوها :

١ — إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشّعر ، وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عزّ وجلّ . وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه .

٢ — وأوصيكم ألاّ تداينوا ، ولو بعتم العباءة ، فإنّ الدَّين ذلٌّ بالنهار وهمّ بالليل . فدعوه تسلمْ لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبقَ لكم الحرمة في الناس ما بقيتم .

٣ — ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخِصين ، فيجهّلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى . ولا تأخذوا دينكم إلاّ من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم . ومن احتاط سلم ونجا » .

« عقبة بن نافع »



مقدمة

تاريخ الأمة العربية أمجاد يفخر المرء بها ، وصفحات يعتزّ بمطالعتها ، ويجد لذة في دراستها مهما كرّر الإمعان بها . وتعتبر قراءة التاريخ تسليتي الخاصة ، ومتعتي المستحبّة . وكنت أتوق دوماً إلى الكتابة عن بطل من أبطالنا الخالدين كخالد وعقبة وموسى وصلاح الدين وأسامة بن منقذ .

ومنذ أن وطئت قدماي أرض ليبيا ، وأنا أتطلع إلى تأليف كتاب يحكي جهاد بطل الفتوح في شمال إفريقية « عقبة بن نافع » ، منتهزاً فرصة إقامتي على أرض أحبّها عقبة ، وأفنى عصارة أيامه من أجلها . شجعتني البيئة وأغرتني راحة البال . وكنت أُقْدم تارةً متحمساً ، وأحجم أخرى مُبتئساً . وكنت بين التارتين كثير الاهتمام والتفكير ؛ بين الإقدام والإحجام .

إلى أن أمسك الأستاذ « عبد المولى لنقي » ناشر هذا الكتاب بتلابيبي ، وقبض على أهداب قلمي . وأصرّ عليّ غير مرة ، أن أفرّغ نفسي عاماً أحلل فيه هذه الشخصية التي طالما كانت محور حديثنا ومناقشتنا وإكبارنا . وطلب إليّ أن أعطي هذا البطل العربي حقّه من الدرس ، بعد أن تفضّل علينا بنشر الإسلام .

وكنت في كل مرة أتثاقل وأتحايل ، ليس عن كسل ، فما عرف قلمي التواني – والحمد لله – منذ سللتُه من غمده قبل ربع قرن من الزمان . ولكنه استعظام لمكانة هذا القائد المغوار والبطل الصنديد ، خشية أن أجحف بحقه ،

أو يزلّ عنه قلمي . إلى أن يسّر الله في ربيع هذا العام ، فأعددتُ العدة ، وتوكلتُ على الله ، وقررتُ أن أحيا مجاهداً مع هؤلاء المجاهدين . . . وشتان بين جهاد القلم والسيف .

ومهما قمتُ في هذا الكتاب من جهد نحو « عقبة بن نافع » ، ومهما قدّمت فما زلت مقصّراً . إذ لا يستطيع هذا القلم الضعيف أن يوفّي حق بطل عربي مؤمن مجاهد في سبيل الإسلام وإحقاق الحق قرابة أربعين عاماً ، لم يتوانَ فيها ، ولم يكلّ ، ولم يملّ . كان كالمكّوك بين السُّدى واللُّحمة ؛ مرة في برقة ، وأخرى في السوس الأقصى أو الأدنى ، وثالثة في القيروان ، ثم يعود أدراجه إلى برقة ، ليُعيد الكرة ، وكأنه يقوم بنزهة خفيفة . . . نزهةٍ تتطلب منه أن يسير آلاف الأميال على الخيل أو الجمال ، يقطع فيها الصحارى واعظاً أو فارساً ، ويقع بها في أدهى المهالك .

هذا الرجل الذي حارب الكفر في الصحراء ، وناهض الاستعمار في الخضراء ، وناوأ الامبراطورية البيزنطية في الساحل ، وكافح الشرك في الجبال والداخل . . ناشراً كلمة الله ، ساعياً إلى إعطاء الحق إلى أهله .

كنت أتمنى أن أؤلف حياة عقبة وجهاده بين المدينة ودمشق والقدس وبرقة وطنجة و . . . بشكل رواية ،[1] وما أروعها رواية شائقة ! ! ، وكادت الخطة تتمّ ، لولا أني رأيتُ أن يكون عملي علمياً موضوعياً ، كيلا يلتبس على قارىء الرواية شيء ، أو يتصور المرء أنني أضفت التخيلات المناسبةَ لخلق جو مناسب للقصة ، أو اخترعتُ أشخاصاً ليسوا من التاريخ ،

---

١ أرى أن تهتم وزارات التربية في الأقطار العربية بهذا البطل العربي ، وتقرر دراسة حياته في مدارسها الثانوية ، ليتعلم طلابها من خلالها البطولة والجهاد والصبر .

لأثبت الحبكة ، وأحكم ربطها . . لذا عزفت عن الفكرة ، واتجهتُ إلى العرض الصادق ، المعتمد على أفضل الكتب التاريخية التي سجّلت أحداث ذلك الزمان ، ووقائع هذا البطل الهُمام . ولا يتصوَّرَنَّ أحد أنني أدخلتُ خيالاً إن وجد في حياة هذا الرجل ، وحياة صحبه عُجاباً .

وقد كانت أخباره متفرقة متناثرة ، كما كانت ضحلة نادرة . . فرأبتُ صدعها ، وحزمتُ شاردها ، ورصفتُ متفرّقها ، بجهد متواضع ، بل لا يُذكر ، أمام هؤلاء المجاهدين ، وتجاه تفانيهم نحو الإسلام والعروبة . وحاولتُ أن تكون هذه الأفكار والأحداث ، متكاملة الفصول . فقد كانت جلّ كتب التاريخ والتراجم تصبّ دراستها في شخصية عمرو ابن العاص ، من دون أن تتوقف عند الضباط الصغار ، الذين قاموا بأجلّ الأعمال وأكبرها ، كعقبة بن نافع ، ورويفع بن ثابت ، وعبد الله بن أبي سرح . عملاً بالفكرة المتبعة ، وهي الكتابة عن المشهورين وإن تنوّعت كتاباتهم ، لأنها تساعدهم على تخطي درجات الشهرة بهم ، ولأن المصادر عنهم سخية ، والابتعاد عن المغمورين ، العاملين بصمت ، وإن كانوا أصحاب حق ، لأن هذا لا ينفعهم كثيراً ، والمراجع لا تسهّل لهم أعمالهم .

ورأيت أن عماد فتوح عقبة هو « **الجهاد** » ، وأيقنتُ أن واجبي يتطلب مني أن أسطّر كلمة في جهاد الإسلام ، مُتابعاً جيوش الفتح منذ أيام أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، متخذاً مسيرة عمرو بن العاص في فلسطين ، وبالتالي في مصر من عمد الكتاب ، لأنها جزء من نشأة عقبة العسكرية ، ولأنه كان في هذا الجيش فتى نبيهاً ، وعسكرياً يقظاً . . وعليّ أن أتابعه

حيث رحل . ولأنه أيضاً لم يدخل أرض ليبيا فالمغرب إلاّ بعد أن استتبّ أمر الإسلام في مصر كلها . . وكان له في ذلك فضل .

ولم آلُ جهداً في استعراض القواد والأمراء الذين عاصروا عقبة أو لازموه ، أو شاركهم في حروبهم ، أو انضوى تحت ألويتهم . ولم يكن بمقدوري أن أتغاضى عن ذكر أعمالهم بالتفصيل أحياناً . ذلك أن فتح المغرب كان لولبه الأقوى عقبة بن نافع ، أما الأمراء والقواد الآخرون ، فإمّا أنهم انقادوا بآرائه ، أو أنهم ساروا على آثاره ، أو شاركوه ، أو نازعوه في الفتح . . حتى أبو المهاجر دينار الذي سجنه وعذبه اختطّ خطته ، واتّبع منهجه .

لهذا ، لن يرى القارىء العربي ضَيراً إن رآني أذكر عمرو بن العاص ، أو معاوية بن حديج ، أو أبا المهاجر ، أو . . بشيء من التفصيل .

والشيء الذي يأخذ العجب ، ويبعث على الافتخار والاعتزاز أيضاً ، أن الروم احتلوا شمال افريقية قروناً طويلة قبل العرب . ولكنهم لم يستطيعوا فيها أن يبذروا في نفوس السكان الأصليين حبّهم ، أو أن يعلموهم لغتهم . . وجلّ ما قدروا على القيام به هو جنيُ محاصيل هذا الشعب الآمن ، وامتصاص خيراتهم ، وبذر روح العداء والكراهية في نفوسهم . . الأمر الذي سهّل على الإسلام والعروبة أن يلقيا الأرض البِكر ، والتربة الخصبة . . فما هي إلاّ سنوات — من دخول عقبة — ليست بالكثيرة ، حتى غدا الشمال الإفريقي مسلماً كأفضلَ ما يكون الإسلام . عربياً لا تنقصه أية مقوّمة من مقومات العروبة .

ومن أسباب سرعة دخول الإسلام والعروبة في قلوب البربر ما يرجعه

فيليب حتّي – المؤرخ العربي المهاجر – « إلى شعور البربر بقرابة النسب إلى العرب الساميين ، وإلى حضارتهم ، أكثر مما كانوا يشعرون به نحو الشعوب الهندوأوربية . كما أن الموجة الفينيقية الساميّة يجب أن تكون قد تركت بعض الأثر في البلاد . وعندما بُني مسجد القيروان ، أتوا بحجارة الأعمدة من خرائب قرطاجنة الفينيقية » ، الأمر الذي ربط الحضارتين إلى بعضهما .

وبسبب هذه الفتوح ، وبسبب جهاد عقبة تشرّفت أرضُ المغرب العربي – وليبيا خاصة – بأن مرّ بها عدد من الصحابة والتابعين ، وجاهدوا على أرضها ، ورووا ترابها بدمائهم الطاهرة الزكية . واستوطن بعضهم بعض أرجائها ، ووهبوا حياتهم لتوجيه شعبها إلى الدين الاسلامي ، بل إنهم آخوه ، واندمجوا به . وتفتخر شمال إفريقية بعبور أكبر عدد من قوافل الصحابة في أرضها . وكثيراً ما نصادف في كتب التاريخ تأكيداً لاشتراك عدد منهم في المعارك ، واستشهاد عددٍ آخر في بعض أصقاعها . فنحن نعلم أن ثمانية عشر صحابياً كانوا برفقة عقبة دوماً ، وكانوا في عداد الشهداء في المعركة التي أفنتهم في الجزائر ، وقبورهم تزين بعض أطراف ذلك القطر العربي ، وأن ثمانين أو سبعين صحابياً وتابعياً استشهدوا جميعاً في « درنة » ، وكانوا برياسة زهير البلوي ، وقبورهم ما زالت تشرئبّ إليها الأعناق ، وتتمسّح عليها الأكفّ بشغف ، وهناك عدد آخر في فزان وغدامس . وما زال ضريـــح الصحابي الجليل « رويفع بن ثابت الانصاري » يزين قمة الجبل الأخضر ، ويطل على مدينة « البيضاء » بكل أبّهة وجلال .

رحم الله عقبة ، محرر شمال إفريقية ، وموحده ، وموحد الكلمة العليا

فيه ، وناشر الدعوة الحق ، ومطهره من رجس الغرباء المحتلين .

وأرجو أن أكون في كتابي هذا قد وُفقت إلى وضع لبنة في حق « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه »

د. د. محمد التونجي

بنغازي : ٨ — ٧ — ١٩٧٥

الجهاد في سبيل الله

« إن الله يحب الذين يقاتلون في
سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

لا يتسنّى لمبدإ ما أن يـَذيع ويـُعرف ، ما لم تتحـّقق له سبل الدعاية والنشر والمعرفة . والدين الإسلامي — بمبادئه السامية — اتخذ مبدأ نشر الدين ، بإذاعة أفكاره ومبادئه على العالمين ، وببسط البراهين التي أنزلها الله تعالى بكتابه على خلقه .

وكان من أفضل مبادىء نشر الدين الحنيف تمسّكُ أصحابه بماهيّة الدعوة ، والإخلاص في سبيل نقلها إلى الناس أجمعين . وكان « الجهاد » من أفضل هذه السبل وأنبلها .

وقد حضّ الله — ورسوله — على الجهاد ، وتحريض المؤمنين بالانضواء تحت ألوية الجهاد الخفّاقة . ونرى اللهَ تعالى في القرآن الكريم يحضّ على الجهاد ، ويربطه بالإيمان : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله ﴾ . ويجعل ثمن الجهاد الجنة الخالدة : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ﴾ .

وتتابعت آيات الجهاد في سبيل الله ، وفي قتال المشركين والكافرين تباعاً . ووعدتِ الخائضين الغمارَ بالنصر المؤزر ، وشرفِ نيل الاستشهاد لمن قاتل في سبيله .

وقد خاطب القرآنُ رسوله والمؤمنين ، على السواء ، في ضرورة الجهاد ، فقد أوعز إلى رسوله أن يحرّض المسلمين على قتال الكفرة والمشركين ؛ بقوله تعالى : ﴿ يأيها النبي ، حرّض المؤمنين على القتال ﴾ . كما وجه كلامه إلى المؤمنين فقال : ﴿ وجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده ﴾ . والجهاد يكون بالمال والنفس معاً ، أو بأحدهما إن تعذّر الآخر ، والله لا يحب القَعَدَةَ .

من هذا المُنطلق ؛ منطلقِ قدسية الجهاد لحرب المشركين ونشر مبادىء الدين ، وجبَ على كل مسلم أن يحفظ القرآن ، ويتفهم الشريعة . . ويحمل السلاح ، ويتسابق إلى الاصطفاف بين المجاهدين .

ولم يكتف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بتحريض المؤمنين على الجهاد بأن عرض على المسلمين ما جاء في كتابه تعالى من حضّ وحثّ وترغيب في هذا السبيل . بل أتبعَ ذلك بشيء من عنده ، واتخذ سياستين عميقتين ، تكونان مبدأ لمن أراد أن يسير في ركاب الرسول الكريم . فقد وجّه المسلمين إلى حب الجهاد بسياستين : داخلية ، وخارجية .

فاما السياسة الداخلية ، ففي توضيح ماهيّة الجهاد ، والمنافع التي يجنيها دينهم ، والهدايات التي تُفيد أهل الأرض ، والمكاسب التي يهديها لهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة[1] .

---

[1] استأذن « خبيب » المشركين الذين قرروا قتله ، استأذنهم للصلاة . وبعد أن أدى صلاته ، شهر ذراعيه نحو السماء وقال : اللهم أحصهم عدداً ، وأقتلهم بدداً . ثم راح ينشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

هذه صورة من مئات ، بل آلاف ، الصور البطولية ، التي يقف لها العالم موقف إكبار وإجلال . ولولاها لما استطاع الإسلام أن يصد كيد المشركين ، ولا هجوم الكفرة الغادرين .

وبدأ محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، الجهاد بنفسه ، ليعلّمهم أن الجهاد واجب على كل امرىء حلّى الله قلبَه بالإيمان . فعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله : « والذي نفسي بيده ، لودِدتُ أن أقاتلَ في سبيل الله ، فأقتل ثم أحيا ، فأقتل ثم أحيا ، فأقتل ثم أحيا » . كما بيّن لهم أن الجهاد واجب مقدس ، وصاحبه يحظى بأفضل ما يأمله المسلم من ربه . فقال : « ألا أنبئكم بليلة هي أفضل من ليلةِ القدر : حارس يحرس في سبيل الله في أرض خوف ، لعله لا يؤوب إلى أهله أو رحله » . وقال أيضاً : « من مات مرابطاً مات شهيداً » .

وعلى المؤمن المجاهد أن يتحلى بالشجاعة والفداء إذا أراد لنفسه غُنْم الشهادة ، وأن يهبَ روحه إلى بارئها ، إذا أراد لدينه أن يعمّ الناس كافّة . وإن كانت الرهبنة لله تعالى في الأديان الأخرى بالاعتصام بين الجبال وفي الصوامع ، فإن رهبانية الإسلام هي الجهاد . قال رسول الله (ص) : « في كل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتي الجهاد »[1] .

وإذا كانت غاية الإسلام الجهادَ في سبيله لإعلاء كلمته ، توجّب على المجاهد أن يحقق أهدافه ، فيرابط بعيداً عن أهله وذويه ، قريباً من بذر الوحدانية في أرض الشرك ، « ومن رابط يوماً في سبيل الله تعالى كان له كصيام شهر وقيامه . ومن قُبض مرابطاً في سبيل الله تعالى أُجير من فتنةِ القبر ، وأجري عليه عمله إلى يوم القيامة »[2] .

وبعد أن تشبّع المؤمنون بفكرة الجهاد ، وأحسّوا بضرورتها ونتائجها ،

---

١ رواه معاوية بن قرة ، شرح السير الكبير : ١/٢٣ .
٢ رواه سلمان الفارسي ، شرح السير الكبير : ١/٦ .

أخذ الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يضع أسس السياسة الخارجية للجهاد ، وذلك بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء ، وبقتاله الغساسنة الخاضعين لنفوذ الروم ، وبتجهيزه « أسامة بن زيد »[1] لغزو أطراف الشام ، بعد أن استشهد أبوه « زيد بن حارثة » في غزوة « مؤتة » . فقد ورث عن أبيه البطل قتال الروم[2] . وكان تحت إمرة هذا الفتى الجريء خيرةُ الصحابة والمهاجرين ، منهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأمره النبي أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء[3] ، وأن يسرع في سيره بحيث تسبق خيلُه أنباءَه .

---

١ هو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي . كان أبوه « زيد » مولى رسول الله ، وأمه « أم أيمن » حاضنة رسول الله ، وكانت مولاة لأبيه عبد الله و « زيد » قد وهبته السيدة خديجة للرسول بعد زواجه بها . وقصة رفض أبويه والبقاء لدى محمد (ص) معروفة في أسد الغابة : ٢/٢٢٥ .

وقد حارب المشركين ، وشهد بدراً وأحداً والخندق و . . وأراد الرسول (ص) غزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فجعفر ، فعبد الله بن رواحة » (سيرة ابن هشام : ٣/٤٢٧) . وكانت المعركة التي عرفت بغزوة « مؤتة » نسبة إلى مكان على حدود البلقاء قرب البحر الميت من جهة الجنوب سنة ٨ هجرية .

وعاش « أسامة بن زيد » في كنف الرسول وفي رعايته ، ويصف أسامة حب الرسول له بقوله : « كان يأخذني رسول الله والحسن بن علي ثم يقول : اللهم أحبهما فإني أحبهما». وقد ولد وترعرع مسلماً . وهو الذي رده رسول الله (ص) يوم أحد لصغر سنه ، وأجازه في غزوة الخندق . شهد أغلب الغزوات بعد الخندق ، وأبلى فيها بلاء حسناً . كان رضي الله عنه شجاعاً نادر الشجاعة ، ذكياً شديد الذكاء . وبعد عودة الرسول من حجة الوداع سنة ١١ ، أمر بتجهيز جيش ضخم تحت إمرة أسامة لحرب الروم بالبلقاء ، ولكن مرض الرسول أخر مسيرة المعركة . والبلقاء كورة من أعمال الشام بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان .

٢ الاصابة : ٣/٢٤ . الاستيعاب : ٢/٥٤٢ .

٣ سيرة ابن هشام : ٤/٣١٩ .

غير أن الرسول (ص) قبض سنة ١١ للهجرة ، قبل أن يخطو أسامة بفتوحه . فتوقف المسلمون عن الجهاد ، مشلولة أعضدُهم ، مقطعة أكبادُهم ، هالعة قلوبُهم . وانشغل الراسخون من الصحابة بتثبيت دعائم الخلافة لينظموا الأوضاع ، ويخففوا من الأوجاع . فوقع اختيارهم على أبي بكر الصديق ، فقضى وقتاً طويلاً وعصيباً في تهدئة المرتدين .. وتنظيمُ السياسة الداخلية مهم جداً بالنسبة إلى السياسة الخارجية .

وبعد أن هدأت الجزيرة ، وثبتت دعائم الدعوة المحمدية ، وعمّ الإيمان الأرجاء اتجهت أنظار أبي بكر إلى تحقيق أمنية حبيبه محمد (ص) . هذه الأمنية هي إيصالُ نداء الإسلام إلى خارج الجزيرة التي نبع منها . وأوّل عمل شرع به أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، هو فتح باب الجهاد الذي شرع به الرسول (ص) . وأخذ في إعداد جيش أسامة حرصاً منه على السير على سنة الرسول .

غير أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، سعى مع بعض وجهاء القوم في المدينة أن يطلب من أبي بكر عزل أسامة ، لأن سنّه آنذاك لم تتجاوز الثامنة عشرة — أو العشرين على رواية أخرى — . ولم ينسَق أبو بكر ، ولم يوافق عمَرَ . بل أحسّ أن المسلمين ما زالت فيهم نعرات الجاهلية . فثارت ثائرته وقال : « ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ! ، استعمله رسول الله ، وتأمرني أن أنزعه ؟ ! »[1] .

ولما سار الجيش شايعه أبو بكر مسيرة من الطريق على قدميه . فقال له أسامة : « لتركبنّ أو لأنزلنّ » . فقال أبو بكر : « لا نزلتَ ولا ركبتُ ،

---

١ تاريخ الطبري : ٢/٤٦٢ .

وما عليّ أن أغبّر قدميّ ساعةً في سبيل الله ! »[1] .

وقد خطب أبو بكر في المسلمين المجاهدين خطبة كانت شعار الجهاد في معاملة سكان البلاد المفتوحة . قال :

« أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ للأكل . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً فاذكروا اسم الله عليها . اندفعوا باسم الله » .

ووجه كلامه إلى أسامة فقال : « واصنع يا أسامة ما أمرك به نبي الله ، ولا تقصر في شيء من ذلك »[2] . وكانت عمليةً ظافرة ، عوّضت عن معركة « مؤتة » .

كانت غزوة أسامة إلى البلقاء فاتحة باب النصر على الروم ، والسعي إلى تأمين حدود الشمال للغزوات القادمة . وبعد أن حققت هذه الحملة مهمتها بدأ أبو بكر بإعداد الجيوش لتوسيع رقعة البلاد ، ونشر الدعوة خارج الإطار

---

١ روى ابن عمر أن أبا بكر قال هذا الكلام عندما ودع جيش يزيد بن أبي سفيان – وسيأتي ذكره – (شرح السير الكبير : ١/٣٩) وروى الطبري نصاً آخر : ٢/٥٨٨ ، وكأنه يتذكر قول رسول الله : « من اغبرت قدماه في سبيل الله وجبت له الجنة » . والرسول نفسه فعل مثل هذا حين بعث معاذاً إلى اليمن. وما أبو بكر إلا صورة صادقة ومؤمنة عن سيرة الرسول وأعماله .

٢ شرح السير الكبير : ١/٤١ .

الصغير الذي ترعرعت فيه . وامتلأت نفوس الصحابة شوقاً إلى تحقيق رسالة الرسول ونشرها في أرجاء المعمورة .

وفي سنة ١٢ هـ – أي بعد وفاة الرسول بعام – وهي السنة التي كان خالد بن الوليد يحارب الفرس في العراق وفارس ، عقد أبو بكر أربعة ألوية لفتح الشام وطرد الروم[١] اتخذت طريقها نحو الشمال . وقد وجه إلى هذه الجبهات خيرة رجالات الحرب آنئذ مع ثلاثة آلاف لكل لواء . ولم يزل يتبعهم الإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمئة[٢] ، والألوية هي :

١ – أبو عبيدة بن الجراح : يحمل لواء الجهاد في حمص ، وطلب إليه أن يجعل الجابية مركز قيادته .

٢ – يزيد بن أبي سفيان[٣] : وأمره أن يتوجه إلى دمشق .

٣ – شُرَحبيل بن حَسَنة[٤] : ووجهه نحو الأردن .

---

١ جاء فتح الشام بعد فتح العراق الذي كان على قياداته أمثال : خالد بن الوليد ، المثنى بن حارثة ، سعد بن أبي وقاص ، عياض بن غنم .

٢ فتوح البلدان : ١١٦ .

٣ هو أخو معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية . أسلم يوم فتح مكة وشهد مع الرسول حنيناً . ولاه أبو بكر دمشق بعد فتح الأردن ، وولاه عمر فلسطين . توفي سنة ١٨ بطاعون عمواس ودفن بدمشق .

٤ هو شرحبيل بن حسنة بن عبد الله . . . بن كندة ، وأمه حسنة ، فغلب عليه اسم أمه ، لأن والده مات وهو صغير ، فبقي في حجرها حتى بعد زواجها . وهو من أهل اليمن . يعتبر شرحبيل من أوائل مسلمي مكة ، ومن أعضاء المهاجرين إلى الحبشة (الهجرة الثانية) . جاهد في حرب أهل الردة ، وفي أرض الشام ومصر . له أثر كبير في حرب الروم في اليرموك وفلسطين ومصر . (طبقات ابن سعد : ٣٩٣/٧ – شذرات الذهب : ٣٠/١ . .)

٤ – عمرو بن العاص : لفتح فلسطين . وكان في أرض قضاعة يبشر بالدين ، ويعلم الناس واجبهم نحو ربهم . فكتب إليه يخيّره بين البقاء حيث هو ، والسير إلى فلسطين . ومما كتب إليه : « وقد أردت أن أفرِّغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلاّ أن يكون الذي أنتَ فيه أحبّ إليك » . فردّ عمرو بن العاص : « إني سهمٌ من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها ، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها ، فارمِ به »[1] .

وقد نصح أبو بكر الصديق كل قائد من هؤلاء القواد بمفرده ، وودعه بنفسه ، وسايره مسيرة من الطريق خارج المدينة ، وبذل له النصح ، وأعطاه الأوامر للفتح .

وقد تشعبت عن هذه القيادات الكبرى ، قياداتٌ أخرى أصغر منها ، وتابعة لها . وانفردت عنها كتائب رادفة ، بحيث تشكل مجموعها مشطاً مطهّراً للأرض التي يمرّون بها[2] .. همهم استئصال الشوائب الأعجمية الفاسدة ، لبذر الدعوة الطاهرة في التّربة الصالحة .

وسارت الجيوش تحت إمرة حاملي ألويتها متخذة الطرق التي وجههم بها أبو بكر ، معتبرة بما خططه لهم ، وأغلبها في حرب الروم . ولما علم الروم بقدوم هذه الجيوش استعدوا لقتالهم بأعداد هائلة . واضطرب القواد ،

---

١ تاريخ الطبري : ٢/٥٨٧ .

٢ تفرع عن جيوش الشام عكرمة بن أبي جهل المخزومي الذي كان قائداً لأحد الكراديس ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وقد أرسله أخوه يزيد لفتح قيسارية ، وكذا أبو أمامة أرسله يزيد لفتح العربة والداثن ، وأبو الأعور السلمي .

وتفرع عن جيش عمرو بن العاص كتائب رادفة منها : عبد الله بن حذافة القرشي السهمي فاتح عين شمس ، وخارجة بن حذافة فاتح الصعيد والدلتا ، وعمير بن وهب الجمحي فاتح تنيس ودمياط . . . وبوصير ، وعقبة بن عامر الجهني : فاتح جنوبي مصر .

وتباحثوا في أمر المعركة . فاقترح عمرو بن العاص على إخوانه بالتجمع لحرب الروم في المعركة الكبرى « معركة اليرموك » ، فوافقوه[1] . ولكنهم لم يتفقوا على تعيين القائد الأعلى الذي يجمع بينهم . وأرسلوا إلى أبي بكر يشاورونه في الأمر .

وفكر أبو بكر ، وعلم أن تجمع الجيوش وحده لا يكفي ، ويحتاجون إلى قائد فذّ يقدر على لمّ الصفوف ، ورأب الصدع ، وسد الشقاق ، وإعداد الخطط الجبارة لهزيمة الروم . ومَن كخالد بن الوليد لهذه المهمّة ! ؟ . . فهو الذي حارب الفرس ، وحرر العراق ، وسيف الله المسلول . وقال أبو بكر لبعض صحبه :

« والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب إلى خالد يأمره بلحاق جيوش الشام ، بعد أن يخلف المثنى بن حارثة على جيش العراق مكانه ، ويأخذ معه « أهل القوة والنجدة » .

وقال له : « العجلَ العجلَ . . فوالله لقرية من قرى الشام أحبُّ إليّ من رستاق[2] عظيم في العراق »[3] .

فلبى خالد الأمر ، وعبر الصحراء ، من الشمال ، عن طريق تدمر فضُمير[4] فبصرى ، مبتعداً عن دمشق ؛ فهو قادم للنجدة لا للفتح . وبقدومه وتوحّد الصفوف صار عدد المسلمين أربعين ألفاً ، وكان عدد الروم في اليرموك مئة ألف وأربعين ألفاً .

---

١ الكامل : ٢/١٥٦ .

٢ الرستاق : القرية (المعجم الذهبي) .

٣ شرح السير الكبير : ١/٤٧ .

٤ ضمير : قرية في بادية الشام ، بين دمشق وتدمر .

وبينما كانت الجيوش تهزم فلول الروم جاءهم نعي أبي بكر الصديق سنة ١٣ ه . فأمر عمر – لما صار أمير المؤمنين – أبا عبيدة بن الجراح بالسير إلى دمشق لحرب الروم وفتحها ، فسار وخالد معه . وبعد أن فتحوها سار أبو عبيدة شمالاً نحو حمص وباقي الشمال . وظلوا يفتحون في الشام حتى اتصل فتح العراق بفتح الشام [١] .

في تلك الآونة كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين . وقد اشتبك مع القائد البيزنطي « أريتيون » في معركة « أجنادين » [٢] . كانت معركة شديدة الوطأة على الروم ، ومباركة للمسلمين . فانهزم الروم إلى بيت المقدس وتحصنوا بها . فتركهم بها ، واتجه نحو تحرير المناطق المحيطة بها مثل : يافا . نابلُس . عَسقلان . اللّد . الرملة . غزّة . . وبعد أن اطمأن إلى ما يحيط بالقدس ، اتجه نحوها ، وحاصرها أربعة أشهر . ولما اشتدّ الحصار ، وتأزّم الموقف ، ورجحت كِفّة المسلمين هرب « أريتيون » إلى مصر دون معرفة عمرو . فقام بِطريق المدينة بالدفاع عنها دون جدوى . ولما أعيتْه الحيل جنح إلى السلم ، وكاتب عمراً بالصلح ، مشترطاً أن يكون محرر معاهدة الصلح عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين [٣] . فاستجاب عمر لطلب القوم ، وخرج إليهم من المدينة . وكتب لهم كتاب الأمان سنة ١٥ ه ، وقيل ١٦ . ودخل المسلمون القدس ، وحققوا نصراً مؤزراً ، وتمّ بذلك فتح العراق ، والشام ، وفلسطين . إلاّ من بعض البقايا في الأطراف .

وقد أبدى عمر اهتماماً بالغاً بالجهاد ، وبسير الجيوش ، وبسَيرورة

---

١ كان المثنى بن حارثة قد حرر العراق شمالا حتى منابع نهر الفرات .

٢ أجنادين : موضع بفلسطين . وقد سار لمساعدته في هذه المعركة خالد بن الوليد وأبوعبيدة ويزيد بن أبي سفيان (الكامل : ٢/١٦٠) .

٣ الخلفاء الراشدون : ١١٧ .

الفتوح . وكان له حاسة خاصة عجيبة في اختيار القواد ؛ يتعرف من خلالها على حقائق الرجال ، وأقدارهم ، وكفاءاتهم ، ومعادنهم [1] . فنراه ينتخبهم انتخاب العليم بأمور الجهاد والحروب — بعد أن استفاد من تجارب صاحبيه — ثم يتبعهم بنصائحه المناسبة لكل وجهة — كما فعل أبو بكر — ، ويخبرهم أن هدف الجيوش ليست حرب عدوان وظلم ، ولا حرب تسلط واستعمار ، ولا حرب نهب وسلب . ولكنها حرب عادلة رحيمة ، لها قواعدها وآدابها . وكان يذكّرهم بأقوال الرسول (ص) في الجهاد ، منها : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله . فإذا قالوها عَصموا مني دماءَهم وأموالهم ، إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله » [2] .

كما كان يوصيهم بإصلاح نفوسهم ، وابتغاء وجه الله بأعمالهم [3] . وقد قال لإحدى الكتائب المتوجهة لحرب فارس : « إنكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز ، وقد وعدكم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فتح بلاد كسرى وقيصر ، فسيروا إلى أرض فارس » [4] .

ولم يكتف بحسن الاختيار والموعظة الحسنة ، بل إنه لاحق الجيوش ، وراقب تحركاتها ، وسهر على رسائلها ، وشهد بعض المعارك والمعاهدات بنفسه . وبفضل ذلك ، تمكنت الجيوش — على قلة عددها — بفضل تنظيمها ، وانتخاب أمرائها ، والسهر على متطلباتها ، أن تنتصر .. وتضمن إنجاحَ الفكرة التي انبعثت من أجلها من قلب الجزيرة العربية ، ألا وهي : الجهاد في سبيل الله .

---

١ أخبار عمر : ٧٣ .
٢ شرح السير الكبير : ١/١٦ .
٣ أخبار عمر : ٨٦ .
٤ مروج الذهب : ١/٥٢٣ .

أما عثمان ، رضي الله عنه ، فإنه سرعان ما غيّر القواد ، وأزاحَ المختارين ليعين قرابته الأدنين . فعزل سعدَ بن أبي وقاص عن الكوفة ، وعيّن مكانه الوليدَ بن عقبة أخاه لأمه ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر ، وولى مكانه عبد الله بنَ سَعد بنِ أبي سَرْح أخاه بالرضاع ، وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة ، وعين عوضاً عنه عبد الله بن عامر ، ابنَ خاله .

ومع ذلك ، فقد سار عثمان مسيرة سلفه عمر بن الخطاب في تحقيق فكرة الجهاد وتوسيع أفقها ، محاولاً متابعة ألوية الجهاد ، ومدّها بالعَدد والعُدد ، رغم انشغاله بفتنة المسلمين ضده . وقد خطب في أهل المدينة يوماً ، حاضّاً إياهم على الجهاد ، فقال :

« يا أهل المدينة ! خذوا بحظكم من الجهاد في سبيل الله . ألا ترون إلى إخوانكم من أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق ؟ فوالله ليومٌ يعمله أحدكم في سبيل الله ، خير له من ألف يوم يعمله في بيته صائماً قائماً لا يفطر ولا يفتر »[1] .

وتتابعت مواكب المجاهدين متباهية بالنصر الذي تحققه في فارس والشام ومصر والمغرب .

* * *

ومن الطبيعي للجيوش التي فتحت العراق ، وألبسته ثوبه العربي ، وكسته حلة الإسلام ، أن تتابع فتحها في فارس . . بل إن الحديث عن فتح العراق جرّ المسلمين إلى الهند ؛ فما كان العراق إذاً إلاّ مفتاح الفتوح في الشرق .

---

١ شرح السير الكبير : ١/١٥ .

ومن الطبيعي أيضاً – ولا نقول أكثر – أن تتجه الجيوش المتعقبة لفلول الروم ، حيث بلغها وجودُهم ؛ فبعضها سار شمالاً إلى الشام ، وبلغ أقصاه . وبعضها اتجه غرباً ليطهر فلسطين ، ويحرر القدس أولى القبلتين الشريفتين . وبعضها – في عهده وغير عهده – اتجه نحو تحرير مصر وليبيا وتونس وما بعدها من ربقة الروم ، الذين توزعوا في أرجاء هذه البلاد منذ مئات السنين .

وإذا علمتَ أن قائد الروم – الذي حاربه عمرو بن العاص – هرب بجنوده إلى مصر ، إبّانَ حصار القدس ، واشترك مع الروم هناك بإعداد الخطط لصدّ العرب المسلمين ، وضح لك تماماً لماذا اتجه تفكير القواد إلى عبور صحراء سيناء ، وملاحقة الروم الدخلاء من الاسكندرية حتى طنجة .

وإذا كان للفرس مواجهة واحدة ومتهافتة في العراق ، فإن القسطنطينية كانت مستولية على الشام وفلسطين ومصر ، وليبيا وتونس ، وناشرة أفضل كتائبها فيها . فالمهمة – إذاً – على المسلمين ، في مواجهة الروم صعبة للغاية ، وموزعة الآفاق . وعرفوا أنهم إذا لم يستأصلوا شأفتهم ، ولم يقتلعوهم من جذورهم – إلاّ مَن أسلم – عادوا إلى حرب المسلمين ، واسترجعوا الشام ومصر وفلسطين ، وحاولوا التكتل ضد الفاتحين الجدد . فالذيل خطر ، لأنه يوهم قاطعه أنه قتل الفريسة ، وما هو بقاتلها ؛ لأنه لم يظفر برأسها .

والروم أفعوان الشر في الأراضي العربية ، وقتالهم في فلسطين يتطلب ملاحقتهم إلى الشام ، ومصر ، وما بعد مصر . . وإلاّ فلا يمكن القول : إن المسلمين انتصروا على الروم . وقيصر يهتم بهذه البقاع ، لأنه يعتبرها إماراتٍ ذاتَ سخاء وخيراً على العاصمة البيزنطية ، التي لا تعرف الراحة إلاّ إذا طَعِمت خيرات تلك البلاد .

والصلات التي تربط مصر بالشام ذات دافع أكبر ، يدعو عمراً – وبالتالي الخليفة عمر – إلى التفكير بالجهاد فيها ، فلا يتمّ النصر في مصر ، إلاّ ومعه الشام . ولا يرتاح المسلمون في الشام إلاّ إذا حققوا هدوء مصر . ولا تهدأ مصر ، إلاّ إذا كان مغربها عربياً مسلماً صامداً .

من هنا أخذت أهداف المجاهدين ، والقواد العسكريين ، تتخطى عملية التخطيط بسرعة ، يلاحقهم عمر بآرائه ومقترحاته ، بعد أن تخبره عيونه الخاصة ، عن الأحوال العامة في كل ميدان .

* * *

منذ القديم والصلات بين مصر والشام والجزيرة العربية متلاحقة ، ويخطىء من يظن أن الصحراء الشرقية لمصر المتاخمة للبحر الأحمر كانت سداً منيعاً على عرب الجزيرة . . ومتى كانت الصحراء سداً على سكان الصحراء ؟ ونحن نعلم أن القبائل العربية والسامية ، كانت تجوس شرقيّ بحر القلزم منذ مئات السنين . ومن تلك البقعة كانوا ينتشرون في مصر وليبيا والمغرب . فالاتصال بين القارتين قديم ، والتجارة بينهما كانت مألوفة ، والطرق كانت مبذولة ، وطريق الجهاد واحداً .

والواقع أن هذه الصحراء نفسها جسر طبيعي للانتقال إلى الداخل . فهي قريبة الشبه بصحرائهم المعتادين عليها ، المنتعشين برمالها . أما جمالهم فما كانت تجد صعوبة في السير عليها ، ولهذا خاف الروم الاصطدام بجيوش المسلمين في سيناء . والصحراء تتبعها الصحراء . والسهول الخضراء لا تمنعهم من حط العصا عليها ، ولا حتى على الجبال . . ما داموا في سبيل تحقيق الهدف الأسمى ، وهو الجهاد . وظلوا يتابعون مسيرتهم إلى أن وصلوا إلى

أقصى ما يصله مجاهد . . في وقت جدّ قصير . . إلى بحر الظلمات ، ذلك السدّ المانع . . وأناروه بجهادهم ودماء شهدائهم ، على يد قاهر الروم ، وفاتح المغرب ، عقبة بن نافع .

كانوا كلما ساروا في العراق وجدوا قصوراً ومنازل أشبه بالقصور الفارسية ، لأن كسرى كان يريد « تفريس » المنطقة العربية الشمالية الشرقية . وكلما ساروا شمالاً في بلاد الشام ، أو شمالاً إلى غرب عَبْرَ سيناء ، وجدوا مستعمرات بيزنطية ، ومسالح عسكرية ، ومدناً أشبه بمدن الاغريق والبيزنطيين.

وذلك لأن الروم – كالفرس – يريدون « ترويم » الشام وشمال إفريقية ، بما فيها مصر ، وجعل هذه الأقطار جزءاً طبيعياً – وحلوباً – من امبراطوريتهم ، ليغدو البحر الأبيض المتوسط ، فيما بعد ، بحيرة رومية ، ذات كيان صليبي ، تعبث فيها أساطيلهم ، وتمرح نشطةً تجارتهم .

ففي الوقت الذي كانت جيوش الفتح تغزو بلاد فارس والعراق شرقاً ، كانت جيوش المسلمين تلاحق فلول الروم من الشام وفلسطين ومصر وشمال افريقية غرباً .

ويخطىء المؤرخون الذين جعلوا هدف عمرو بن العاص الأول في فتح مصر والمغرب إرواءً لشخصيته الطامعة ، الحريصة على كسب سدّة الإمارة ، واستفادةً من غنى مصر ، ونهل خيراتها لملء خُرج دابتّه بالذهب كما يقولون . ناسين – أو متناسين – أنه خرج من المدينة مع من خرج منذ خلافة أبي بكر ، حاملاً فكرة « الجهاد في سبيل الله » ، وناشراً لواءَ الرسالة المحمدية ضمن الأهداف التي عُينت له ، والأُطر التي رسمت لخط سيره .

صحيح أن عمراً ذو طموح ، ولكن طموحه هذا لم يطغَ على إسلامه

وجهاده . وصحيح أن مصر بلد غلات وسخاء ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يسمح بفتحها لخيراتها ، كما لم يفكر — لمّا فتح الشام والعراق — أن يروي جزيرتَه من أنهار بردى ودجلة والفرات .

ثم . . لا مانع أن يكون القائد ، أو الرأس المفكر في الدولة ، عارفاً بمواقع أقدام فرسانه . ولعله يتشجع أكثر إذا كانت البلاد المقصودة ذات خير ، فهذا يزيده اطمئناناً على حياة آلاف الجنود ، ويخفف ذلك على الخليفة مؤونة تأمين المؤونة . فالهدف ليس في الطعام ، ولا في الأنعام . . . إنما هو في تحقيق الأهداف السامية ، ألا وهي الإعلاء من كلمة الله ، بنشر الدين والجهاد في سبيله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ . ولو كان الفتح لغير ذلك ، لحصل جزر في سير الفاتحين ، ولنضب مَعين الهمّة ، ولزال ما حققوه .

وكما يقول الدكتور شكري فيصل : « كان هناك هذا الباعث النفسي فيما عمّر قلوبهم من عقيدة ، وهذا الباعث الواقعي من صلة ما بين مصر والشام ، وهذه الصلات فيما بين الجزيرة ومصر . وكان وراء ذلك هذه الضرورات الحربية التي تريد أن تحمي ظهور المسلمين ، وتتعقب فلول الامبراطورية ، وهذه الصورة الضاحكة التي كانت تكسو معالم مصر ، وتجعل منها جنة من جنان الدنيا »[1] .

ولم يكن فتح مصر مجرد دولة فتحت والسلام . بل كانت عبوراً من قارة إلى قارة ، من عالم معروف إلى عالم جديد بأقوامه وعاداته . كانت مصر آنئذ بوابة للمسلمين يجب أن يعبروها لينتقلوا إلى قارة إفريقية ، بعد

[1] حركة الفتح الإسلامي : ١١٧ .

أن كان القواد منشغلين — وما زالوا آنئذ — بالفتوح في آسية .

وكان فتح ليبيا — بعد مصر — والشمال الإفريقي كذلك دهليزاً — مهما كان طويلاً — تعبر منه الجيوش العربية المسلمة إلى بعض أوروبة من أقصاها ، بعد أن تعذر عليهم فتحها من أدناها . . من القسطنطينية عاصمة البيزنطيين .

والأسباب التي جعلت الجيوش العربية تتخطى سيناء لتدخل مصر ، هي ملاحقة فلول الروم ، لتضمن الحدود الشرقية الآمنة ، وهي نفسها التي جرّتهم إلى دخول برقة وزويلة فطرابلس فإفريقية ، فأقصى المغرب ، فالأندلس . ولو قُدر للعرب أن يفتحوا ما بعد الأندلس ، حفاظاً على أمنها وتمكنوا من نشر الإسلام فيه لظلت الأندلس الخضراء مرتع العرب والمسلمين إلى ما بعد أيامنا هذه .

* * *

وإذا كسب الإسلام نشراً في أرض العراق وفارس ، فإنه لم يظفر منه بغير هذا ، مع شيء من حضارة لم تكن غريبة — تماماً — على العرب . أما الفتح في شمال افريقية فإنه أعطاهم نافذة على البحر ، أعطاهم نصراً بحرياً ، لم يقدَّر لهم كسبه في الشرق ، بالإضافة إلى أنه نصر بري . فقد اضطر المسلمون أن يقضوا على الشواطىء يحاربون السفائن المحرقة القادمة من عباب الماء . . وهي أيضاً من فلول الروم . كما اضطروا إلى ملاحقة السفن الهاربة من الشواطىء ، وهي حاملة البيزنطيين .

ثم كان هذا النصر البحري ، ركيزة لتأسيس دار للصناعة البحرية ، ليتابعوا حربهم مع الروم الذين أُجلوا عن فلسطين ، والشام ، وشمال إفريقية . والآن يريدون أن يتخطوا البحار ، ليحطموا قواعدهم العسكرية في الجزر ، ومن ثَمَّ ليدكُّوا أسوار القسطنطينية .

فبعد أن كانوا قوماً بداة ، لا يكادون يستفيدون من البحار كثيراً ، صاروا أمة يُحسب لأساطيلها ألفُ حساب .

ومن هنا جاءت فكرة تحطيم امبراطورية الروم . فلم يعودوا يكتفون بإجلاء قواتها من مستعمراتها ، بل قرروا أن يهزّوا أركانها على شواطئها ، كيلا ترسِل معونات أخرى . . ليتفرغ المسلمون لنشر الدين الحنيف ، نتيجة لنجاح الجهاد .

فالجهاد تجلّى في أسمى معانيه ؛ في استئصال جذور المرض لتشفى الأرض ومَن عليها . فالشرقُ أُزِيلَ عنه كسرى ، والغرب يجب أن تمّحي منه صورة قيصر .

نجاح الفكرة

والذي ساعد على نشر الإسلام ، والظفر في الجهاد ، أسباب نوجز أهمها فيما يلي :

١ — إيمان العرب بالدين الإسلامي الذي نبع من أرض مكة المكرمة ، ونشر نوره في أرجاء الجزيرة العربية ، وصدقهم في تبنّي نشر الدعوة ، على الخطة التي رسمها لهم نبيهم وخلفاؤهم الراشدون . وشعارهم قوله تعالى : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

٢ — شجاعتهم في الحرب ، وصمودهم في لحظات الاستبسال ، وترحابهم بالموت كترحابهم بالحياة ، طالما أنهم كانوا صادقين في تحقيق أهداف الدين . وقد ضمن الإسلام لهم إحدى الحُسنيين : ظفر وغنيمة في الدنيا ، وشهادة ونعيم في الآخرة .

٣ — قلة اكتراث الروم بالعرب . وهل يُعقل أن ينتصر — أو حتى يثبت — هؤلاء البداة العراة الخارجون من الصحراء على الامبراطورية البيزنطية التي لا تُهزم ؟ ! ولكن الروم نسوا أنهم مستعمرون ودخلاء ، ونسوا أيضاً أن المستعمر لا بدّ أن ينجلي عن الأرض ، ولا بد لغلّ الاحتلال أن ينكسر عن المعصم الحرّ . ظنوهم قبائل ثائرة وجائعة ، تكتفي بفضلات أطراف غوطة دمشق ، وبغلاّت وادي النيل ، وبغذاء الجبل الأخضر وجبل أوراس . وإذا شبعت هدأت ، ثم تراجعت حاملةً ما كسبت . ولم تعلم أن القادمين

ملؤوا قلوبهم بعقيدة صادقة . . ومن حارب من أجل عقيدته إنتصر ، واستمر .

٤ – والروم ، كي يحلّ لهم النعيم في أرضهم وفي مستعمراتهم ، وضعوا بعض القبائل العربية على تخوم إمبراطوريتهم – كالغساسنة – كي يحارب العربُ العربَ ، وهم عنهم منشغلون ، وهم كذلك على أي حال منتصرون . وسوف يدافعون عنهم ما داموا يأخذون الجُعل السنوي ، والمساعدات المتوالية . . ورضى القيصر . وشاءت الظروف – وكثيراً ما تشاء لأصحاب الحق – أن تتهاون العاصمة البيزنطية في تلك الأثناء بدفع ما عليها من واجبات ، فكرهت القبائل تهاون الروم نحوها ، وكرهت أيضاً أن تحارب إخوانها ، والأقباط والبربر جيرانها ، وقد جاءوا يحررونهم ، ويحملون مع تحريرهم مطارق لكسر الأغلال ، وديناً جديداً ينقذهم من الترّهات التي فيها يَعْمهون .

٥ – خشونة الرجل العربي ، وشجاعته المعروفة ، واستبساله في ساحات الوغى . . وهي المهنة الوحيدة المشرفة في نظره ، واكتفاؤه بالقليل من الزاد ، وحَمله الزهيد من العتاد ، وتعوّده على الماء بالرشف ، واستسهاله السير في الجبل والجوف . . كل هذا سهّل على العربي المسلم أن يخوض غمار المعارك ، ويقطع المهامه والمهالك ، ليحقق نصره الذي أقسم على نَيله .

٦ – والرومي لا يسير – بطبعه – في الحرب إلاّ مثقلاً بالحديد ، أما الفرسان المسلمون فيطيرون خفافاً ، لا يحملون على أكتافهم سوى نبالهم ، ولا يقبضون بأكفّهم إلاّ على سيوفهم . ولا يُثقلون ظهور خيلهم إلاّ بأجسادهم النحيلة المشدودة .

٧ – تعوّد العربي على العيش في الصحراء ، والنوم في العراء ، والسير في الغبراء . أما الجنود الآخرون – ونعني الفرس والروم – فأولئك يحتاجون إلى دروع وخُوَذ ، وملابس ومنازل ، ومحطات ، ونجدات ، وخمور وألوان . . وأغلال كيلا ينهزموا .

٨ – الإغراء الذي كانوا ينتظرونه من رخي العيش بعد النصر ، ورضيّ الغُنم ونيل الشّذر ، إن لم تكن الشهادة التي تسابقوا إلى كسبها .

تلك هي أسطر وضّحنا فيها فكرة الجهاد التي خرج من أجلها المسلمون ، وضممنا بين ثناياها بعض ما أمرهم به – وأمرنا – الله سبحانه وتعالى ، وحضَّهم – وحضّنا – الرسول الكريم على ضرورة الإخلاص في الجهاد . وبيّنّا فيها بعض مسيرات الجيوش ، وتابعنا بعض الألوية في مسيرتها السامية ، لنصل منها إلى أن غزو مصر ما هو إلاّ تتمة لفتح الشام وفلسطين ، وأن تحرير ليبيا والمغرب جزء من الجهاد المقدس ، أمرنا به ديننا ، ووضع أهدافَه قرآننا .



الفصل الأول

عمرو بن العاص وفتح مصر



تمهيد بين يدي عَمرو وعُقبة

بعد أن طهّرت جيوش الفتح جنوب الشام ، تابعت مسيرتها نحو الشمال ، وكذا الأمر لجيوش العراق التي سايرت النصر بنصر آخر في قلب بلاد فارس . ومن الطبيعي لجيوش فلسطين كذلك أن تُتمّ مهمتها ، فتلاحقَ فلولها الهاربين إلى مصر .

وعلى قائد الحملة — ما دام منتصراً — أن يُتمّم عمله . ونحن نعلم أن عمرو بن العاص ، هو الذي أنقذ فلسطين من براثن البيزنطيين ، ولهذا تطلعت أنظاره نحو الغرب (القريب والبعيد) ، وتمنّى على الخليفة أن يسمح له بإنجاز ما خطط له ، ورفع رايته من أجله .

صحيح أننا في صدد الحديث عن « عقبة بن نافع » محررِ المغرب وقاهر الروم في ليبيا وافريقية ، إلاّ أننا لن ننسى أنه في جيش عمرو منذ وضع أوّلُ فارس قدمه في مصر ، ورافقه وتابعه وسار تحت كنفه . وكان ما زال غضّ العود ، لم يبلغ العشرين بعد . وعلينا أن نرى « فتح مصر » ، كمرحلة أولى للسير نحو الغرب ، وكمحطة لها ضلع أصيل وكبير في نشأته ، وتقوية عوده ، وإعداده الإعداد الكافي الذي يسهّل عليه التوفيق في جهاده المرتقب . والعامان اللذان قضاهما عقبة في حرب روم مصر ، ودكّ قلاعهم ، وعبور أمواههم ، لكفيلان لأنْ يسهّلا عليه — فيما بعد — عبور الصحراء والخضراء . ولا بد لنا — بالتالي — من أن نتابع سير الفتوح منذ أن دخل الجيش المسلم صحراء سيناء إلى آخر بقعة امتد أفقهم في افريقية بها .

وإذا كان عقبة بن نافع محررَ ليبيا والمغرب ، فلن ننسى أن محرر مصر هو عمرو بن العاص ، وأن الثاني معلم الأوّل ومدرّبه .

فمن هو عمرو بن العاص ؟

من هو هذا المعلم الذي أعطاه الكثير من تجاربه العسكرية والإدارية ، وغذّاه بلين الدهاء ، وعمق المقدرة ، وضياء الحنكة ؟

عمرو بن العاص

اسمه ونسبه :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤي بن غالب، ويكنى أبا عبد الله[1] . ويرتفع نسبه إلى الذؤابة القرشية[2] .

وبنو سهم بطن من عشرة بطون انتهى إليها الشرف قُبيل الإسلام، ولا بأس من ذكر البطون لمعرفة مكانة بطن بني سهم من الأخريات ، وهي : هاشم ، أمية ، نوفل ، عبد الدار ، أسد ، تيم ، مخزوم ، عدي ، جُمح ، سهم[3] .

وكان لكل بطن من هذه البطون واجب معين تقوم به ، وتتحمل أعباءه . وبنو سهم – أهل عمرو – أصحابُ الحكومة والقضاء في الجاهلية ، يحتكم إليهم القرشيون في أمورهم ومنازعاتهم . ويرجع إليهم الوافدون على مكة طلباً لحلّ مشكلاتهم وعَويص قضاياهم . كما كان لبني سهم رئاسة على الأموال المخصصة لآلهتهم .

وعلى هذا فقبيلته ذات مكانة كبيرة في الجاهلية والإسلام ، وفي مكة

---

١ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٣ . أسد الغابة : ٤/١١٥ .
٢ سيرة ابن هشام : ١/١٤٣ .
٣ الكامل : ١/٢١٦ .

خاصة . وأسرته غنية ذات جاه وسلطان . وذات أوثان خاصة بها ، تعبدها دون غيرها .

أبوه :

هو العاص بن وائل ، أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وزعيم بني سهم ، وقائدهم يوم الفجار الثاني قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

أدرك الإسلام ولم يسلم ، وكان من أكبر المناوئين لمحمد وصحبه . فقد كان في جملة من عرض عليه المغريات ليكفّ عن دعوته ، ثم غدا أحد المستهزئين به وبهم[1] . ونزلت بحقه بضعة آيات كريمات ، منها أنه كان يقول لرجال قريش « دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقبَ له . . » ، فأنزل سبحانه وتعالى قوله : « إن شانئك هو الأبتر » . . وغير ذلك .

تولى أبوه القضاء بين العرب في الجاهلية ، كما كان تاجراً كبيراً أيضاً . غير أنه كان مُماطلاً ، يتلكأ في الدفع . وحلف الفضول الذي شهده النبي (ص) ، وتحالفت فيه قريش على نصرة المظلوم ، كان بسبب مُماطلة العاص – أبيه – في دفع ثمن سلعة اشتراها من أحد التجار الصغار .

ومع كل هذا ، فقد أسلم ابنهُ عمرو ولو متأخراً ، وحسن إسلامه .

أمّه :

هي سلمى بنت حرملة ، من بني عَنَزة ، وتلقب بالنابغة . وقُصارى ما تقوله كتب التاريخ والتراجم أن رماح العرب أصابتها ، فبيعت في عكاظ ،

---

١ سيرة ابن هشام : ٣١٥/١ . مروج الذهب : ١٨/٢ .

وكانت تؤجر للغناء . فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، وأخيراً صارت إلى العاص .

فأنجبت منه عمراً[1] . ويُروى أنه اتصل بها هؤلاء — وغيرهم — ولكنها لما ولدت عمراً ، نسبته إلى العاص . . وأياً كان الأمر فإن عمراً انتسب إلى أبيه ، واتخذ منه صفات الدهاء والرياسة والتجارة .

نشأته :

اختلف المؤرخون في سنتي ولادته ووفاته — والأولى خاصة — . والذي لا شك فيه أنه ولد قبل البعثة ، وتوفي في أوائل سني خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ولعلها سنة ٤٣ كما سنرى . هذا الاختلاف جرَّهم إلى الاختلاف في سني عمره . فمن قائل إنه عاش سبعين سنة ، أو تسعاً وستين فقط ، ومن قائل بل عُمِّر تسعين سنة .

غير أن الثابت أنه تسلم قيادة فتح مصر وعمره خمس وأربعون . فإذا قدّرنا — مع الرواية الأكثر شهرة — أنه دخل مصر سنة ١٨ هجرية ، علمنا أنه أعلن إسلامه ، وعمره خمس وثلاثون ، وهي سنّ أوج الرجولة . وسنرى أن عقبة بن نافع عاد إلى مصر بعد فتوحه سنة ثلاث وأربعين ، فرآه على فراش موته . فإذاً دخل مصر وعمره ٤٥ ، وتوفي سنة ٤٣ ، فلا جرم أنه عمّر قرابة سبعين سنة .

وقد تربى في كنف أبيه مع أبناء أشراف مكة ، فتطبع بطباعهم ، وتشبّه بصفاته . غير أنه احترف مهنة الجزارة ، ثم اتجه نحو التجارة كأبيه ، وكغيره من أبناء الأشراف والتجار . ودخل مصر في تجاراته ، وعرف من

---

١ الاستيعاب : ١١٨٤/٣ .

زيارته لها بعض مسالكها ، ومدى سخاء أرضها . وتفهّم خفايا الاضطراب الذي كان يجري بين الأقباط – السكان الأصليين – والبيزنطيين الحكام الدخلاء المستعمرين .

إسلامه وجهاده :

لم يكن عمرو بأقلَّ من أبيه عداءً للمسلمين ؛ فهو الذي تبع المهاجرين في هجرتهم الثانية[1] إلى الحبشة مبعوثاً من قبل قريش ، وطالب النجاشي أن يسلمه جعفراً وصحبه المسلمين . وكان من فرسان المشركين مع خالد بن الوليد في موقعة أحُد .

ولما اشتد الخصام بين المسلمين والمشركين هرب بدوره إلى الحبشة تخلصاً من القلاقل ، مُصمماً ألا يعود إلاّ بعد أن تكون الأوضاع قد هدأت لصالح المشركين . ولكن أمراً ما حدث له في الحبشة ؛ فقد ساقته المقادير إلى نقاشات مع النجاشي ليّنت قلبه القاسي ، وطيّبت له عطر الإسلام ، فأسلم بقلبه[2] في أرض الحبشة .

ولم يعلن عمرو بن العاص إسلامه إلاّ حينما عاد ، ووجد الدين الجديد يسمو في سماء الجزيرة ، وعندما رأى كبار القوم يتوافدون عليه زرافات ووِحداناً . فقدم على رسول الله مهاجراً سنة ثمان للهجرة ، ومعه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة – وقد التقى بهما في الطريق – . فلما رآهم الرسول

---

١ هاجر عدد من المسلمين الأوائل في السنة الخامسة إلى الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين لهم . وكان عدد أصحاب الهجرة اثني عشر رجلا وأربع نسوة . وعدد أصحاب الهجرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة ، وكان على رأس مسلمي الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب .

٢ الاصابة : ٢/٥ . الطبقات الكبرى : ٤٩٣/٧ .

(ص) قال : «ألقت إليكم مكة أفلاذَ أكبادها»[1] .

وعلى هذا فإن عمراً كان كثير الاحتكاك بالمسلمين – عداءً خاصة – ، ولكنه لم يُسلم إلاَّ بعد إيمان وتفكير عميقين . ولهذا قال (ص) عنه : «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»[2] . ثم كان مقرباً من الرسول محبباً إليه .

ومنذ أن أعلن إسلامه اعتمد عليه الرسول في كثير من المهام والبعوث . فقد استعمله على غزوة ذات السلاسل ، وبعثه يوم فتح مكة إلى «سواع» صنمِ هـُذيل فهدمه ، وبعثه إلى عـُمان على الخليج العربي إلى «جيَفر» و «عبد» ابنَيْ الجلنْدا ، وكانا من الأزد ، يدعوهما إلى الإسلام . واستطاع بما أوتيَ من مهارة وجدارة أن يـُقنع الأميرين بالدخول في الإسلام .

وبقي في عـُمان يفقه الشعب بالدين ، إلى أن قـُبض الرسول (ص) ، وحصلت الردة في عهد أبي بكر ، فعاد مسرعاً إلى المدينة يتلقى أوامر الخليفة الجديد[3] . فقد عقد أبو بكر رضي الله عنه أحد عشر لواءً لحرب أهل الردة ، فأرسله على اللواء المتجه إلى قـُضاعة ، واستطاع أن ينتصر ، ويؤدي مهمته على خير وجه . وقد أحسن أبو بكر اختياره لحمل هذا اللواء بالذات ، لأنه هو الذي حاربهم أيام النبي في غزوة ذات السلاسل[4] .

وفيما كان في قضاعة جاءه أمر أبي بكر بإمارة لواء فلسطين ، فلبى الطلب – كما رأينا في الفصل السابق – ، وأمره أن يسلك طريق أيْلة[5]

١ أسد الغابة : ٣/٣٧٢ .
٢ أسد الغابة : ٤/١١٧ .
٣ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٣ .
٤ تاريخ الأمم والملوك : ٢/٤٨٠ .
٥ أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) بين الشام والحجاز .

عامداً إلى فلسطين [1] . وهناك حارب « الأرطبون » [2] قائد الروم ، وانتصر عليه في عدة معارك ، حتى تسنّى له فتح فلسطين كلها ، وتطهيرها من علوج الروم ، عدا قيسارية التي انشغل بحصارها معاويةُ بن أبي سفيان ، بينما كان عمرو بن العاص متجهاً إلى تحرير مصر [3] . وقد قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما شُغِل بحرب قائد الروم : « رَمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج » . وقد رأينا انتصاره الساحق عليه .

صفاته ودهاؤه :

تحكي كتب التاريخ أن عمرو بن العاص كان قصير القامة ، عظيم الهامة ، ناتىء الجبهة . له عينان سوداوان ثاقبتان ، تنمّان عما يتأثر به في حالي سروره وغضبه ، يعلوهما حاجبان غزيران . ومن دون ذلك فم واسع ، ولحية عظيمة ، ترتسم من حولهما سيما البشر والأُنس. وكان عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الكفين والقدمين . لذلك كان مظهره ينم عن القوة في غير شدّة [4] . يخضب بالسواد ، ويهتم بقيافته وبمسكنه ومأكله وملبسه [5] .

كما كان كاتباً بليغاً في نثره وفي شعره ، ودليل ذلك ما كتبه إلى عمر ابن الخطاب من رسائل ، وخاصة تلك الرسالة التي وصف فيها مصر .

وكان فارساً بارعاً ، وضارب سيف يشهد له عدوه بالرهبة والسطوة . ساعده على ذلك قوة بدنية ومرونة في الأعضاء تحلى بهما .

---

١ معجم البلدان : ٣٩١/١ .
٢ كما يسميه العرب .
٣ فتوح البلدان : ١٤٤ — ١٤٦ .
٤ الفاروق عمر : ٨٢ .
٥ أسد الغابة : ١١٧/٤ .

وكان إلى ذلك محباً للإمارة ، كثير الشغف بها . ولعل هذا مما عيب عليه ، ولكنها خلال ورثها عن آبائه ، ونشأ عليها فالتصقت به ، وصُبغت بذكاء ودهاء عرف بهما .

وبالإضافة إلى ذلك كله لم ينشغل عن التفقه بالدين والتفقيه فيه ، ورأينا كيف أنه شُغل في تفقيه أهل عُمان ، وإصلاح ردّة قضاعة ، وتلك صفة حسنة امتاز بها عمرو ، وهي جمعُه بين القوة والدين .

كما كان فصيح اللسان ، راجح العقل ، مقرَّباً من أهل قبيلته منذ أيام شبابه . وقد رأينا كيف أرسله المشركون سفيراً لهم إلى النجاشي يطلب باسمهم ردّ المسلمين اللاجئين إليه . غير أنه فشل في مسعاه ، وردّه ملك الأحباش خائباً في سعايته ، ظافراً في اتجاه قلبه نحو الإسلام .

وقد اشترك في غزوات كثيرة كاليرموك والردة وفتح فلسطين . . . وكلّها أهّلته إلى نجاح مهمته السامية في غزوة مصر . وهي الغزوة التي ساعدت على شهرته ، وأدخلت الإسلام في تلك الرباع .

أما دهاؤه ، فلا تسعهُ صفحات ، ولا تكفيه فصول . وحسبنا أنّه يُعدّ أحد دهاة العرب ، إن لم يكن أدهاهم[1] . ومن قبيل دهائه — ذكراً وليس حصراً — اشتراكه مع معاوية فيمعركة صفين ، واقتراحه حمل المصاحف وبالتالي مناصرته لمعاوية ، ومناوأته لعلي في خدع أبي موسى الأشعري ، وخلع علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وتثبيت معاوية على خلافة المسلمين .

ذلكم هو عمرو بن العاص رافع راية الجهاد في فلسطين ومصر ، ومربّي عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ومعلمه .

---

١ في رأينا أن معاوية أكثر منه دهاء ، فهو الذي استخدمه واستماله ، ورضي عمرو أن يسايره ويوصل أمر الخلافة إليه ، علماً أن معاوية أصغر منه ، فقد كان قائدا تابعاً له في حرب فلسطين .

عمرو أمير اللواء إلى مصر

فعلى هذا ، لم يكن عمر بن الخطاب مخطئاً بأن أوعزَ لعمرو بن العاص بالتوجه نحو مصر ، لأنه كان يعلم مكانته من الرسول (ص) ، وموقفه المشرف من الحرب ضدّ المرتدّين أيام أبي بكر ، ويعلم أهمية إيكال أبي بكر إمارة أحد الألوية الأربعة إليه . كما أنه يقدّر مواهبه العسكرية ، وحنكته الفذّة ، وخاصة أنه خبرها بنفسه عندما حارب — نعني عمر نفسه — تحت لواء عمرو غير مرة .

والواقع فإن عمراً هو الذي كان يلحّ على أمير المؤمنين أن يسمح له بالتوجه نحو مصر ، وفتحها ونشر الإسلام فيها ، وذلك في مؤتمر « الجابية » [1] سنة ١٨ هجرية . ولو كان يطمح إلى إمارة — كما يقولون — لاكتفى بفلسطين ، ولكنه الجهاد الصادق .

كان عمر بن الخطاب في بادىء الأمر متخوفاً على المسلمين ، ولا يريد أن يزجّ برجاله إلى مكان لمّا تتّضح له معالمه . ولكن عمرو بن العاص — وقد هوى هذا السبيل — أخذ يزين له الفتح ، ويبين له ضرورته بعد أن درس الموقف الحربي ، وقدّر ما ينجُم عنه . وقال له : « يا أمير المؤمنين ، إئذن لي في المسير إلى مصر ، فإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً

---

١ الجابية : بلدة قرب دمشق مما يلي البادية ، وهي اليوم ملتصقة بها ، ولم يبق شيء من ذكرها إلا « باب الجابية » ، وهو باب دمشق المؤدي إلى تلك المدينة . وفي زبدة كشف الممالك — عن حاشية اللواء خطاب — أن عمر بن الخطاب فتحها سنة ١٦ هـ .

لهم . وهي أكثر الأرَضِين أموالاً ، وأعجز عن حرب وقتال »[1] .

وأفاض في ألوان إغرائه ، من ذلك : أن زمام الأمور في الشام لا تَستتبُ إلاّ بفتح مصر ، خاصة وأنها الولاية الثانية للبيزنطيين – ما لم تكن الأولى – بعد الشام . وهم إذا لم يحتلوا مصر فإن البيزنطيين سيُعيدون الكرة على الشام ولا يستبعد أن يستخدموا – بالإضافة إلى جيوشهم البرية – أسطولهم البحري . ويستطيعون بذلك استعادة الشام بسهولة ، وتضيع عندئذ أعمال المسلمين في معركة اليرموك وغيرها من المعارك المشرفة هباءً .

وأراهُ كيف أن بعض كتائب الروم وقوادها هربت من أمام جيوش المسلمين في فتح القدس،واتجهت نحو مصر،ولهذا يجب ملاحقتها خشية أن تتكتّل ، وتزيد من قوة جيش الروم في مصر ، بالإضافة إلى أن فتح مصر ، سيسهل نشر الإسلام في بقاع جديدة . وليس بمستبعد أن يكون زيّن له الانطلاق إلى ما بعدها . والرسول (ص) قال لصحابته الأقربين : « ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » . وقال أيضاً (ص) : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا بها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .

ولعلنا ذكرنا أن عمراً كان يعرف مصر أيام قدومه إليها تاجراً ، كما كان يعرفها غيره من تجار الجزيرة العربية . ولعله أوضح لعمر (رضي) بعض الأمور الاقتصادية التي تعين العرب المسلمين على تنفيذ مهمّتهم ، وبإمكان مصر أن تمدّ بخيراتها الطافحة ، وثرواتها الوافرة ، المسلمين في كثير من المناطق الأخرى .

---

١ الكامل : سنة ١٨ .

ولم يكن غريباً على عمر (رضي) ما يعانيه شعبها من اضطهادٍ من قبل الحاكم الرومي الأجنبي الذي يتعالى عليهم في العرق والمذهب ويعذبهم ، بكثرة الضرائب التي يجتنيها من الأقباط ، لدرجة أوجدت انفصاماً في عرى الصلات بين الحاكم والمحكوم ، والشعب والكنيسة منذ حقبة من الزمان .

ثم إن هدفهم جميعاً هو الجهاد في سبيل الله ، وهذا طريق جديد ، وهو مستعد لأن يكون فدائيّ المعركة ، ويخوض تلك المعمعة . . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

كان عمرو يزيّن سبيل الفتح والجهاد ، وعمر مشغول الفكر ، يتجاوب مع مناقشه تارة ، ويحجم أخرى . إن كلام عمرو معقول ، وقريب جداً من الصواب ، ولكن . . .

ولكن أسباباً أخرى مهمة تجعل عمرَ يحجم عن إرسال الجيوش إلى إفريقية ، أو على الأقل في هذا الوقت الحرج بالذات . ولم ينس عمرو أبداً أن أمير المؤمنين كان رجلاً من رجالات قبيلته ، كما أنه انضوى تحت لواء جيوش الفتح إلى الشام تحت إمرة أسامة بن زيد ، وإمرته أيضاً . فهو عسكري ، ثم هو مسؤول أمام الله ، وأمام تحقيق أنجح الأسباب التي تسهّل عليه عملية الجهاد في سبيل الله ، ولهذا أغراه وشجعه . ولكن أمير المؤمنين مع هذا تهيّب لهذه الحملة الجديدة ، كما يتهيب لكل حملة . وعليه أن يحسب حساب رجاله الذين سيقذف بهم عبر صحراء سيناء . وكيف يرسل هذه الجيوش ، والشام لما تضع أوزارها ، ولمّا تخضع كلها ؟ وها هي ذي إنطاكيّة وقيساريّة مستعصيتان على المسلمين ! !

ثم هذا الطاعون ؛ طاعون «عَمواس»[1] الذي أهلك عدداً كبيراً من

---

[1] عمواس : كورة قرب بيت المقدس في فلسطين ، على ستة أميال من الرملة .

الصحابة ، وفيهم أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وجموعاً غفيرة من المسلمين . إنه لا يستطيع أن يشتّت قواه ، ولا أن يوزع تفكيره في تجهيز الجيوش وإعداد الخطط في هذا الوقت الحرج .

ولكن بعض الصحابة – وعلى رأسهم عثمان بن عفان – موافقون ، والفكرة في الأساس صائبة . وإلاّ فما معنى ذهاب الجيوش إلى العراق ، وإلى الشام . . وإحجامها عن مصر ؟

وازداد إيماناً بسموّ الفكرة بما عرفه عن مصر . فقد كانت مصر مرتبطة بصلة الرحم مع الجزيرة العربية منذ إبراهيم الخليل وزوجته السيدة هاجر المصرية ، وباسماعيل ابنيهما . . وأخواله من أهل مصر . ومرتبطة أكثر مع الجزيرة اقتصادياً ، ورحلة الصيف نفسها كانت إلى الشام ومصر .

وأشار عمرو بن العاص عليه بضرورة ملاحقة قائد الروم الذي هرب من وجههم في فلسطين إلى مصر . ثم إنه يريد أن يكون أمام الروم القائد المهاجم ، المُتابعَ لفلولهم ما دام يملك الكفّة الراجحة في الحرب . بالإضافة إلى سخاء وادي النيل بالخير الذي يعين جيوش المسلمين على أداء مهمتهم خير أداء .

ثم إن عمرو بن العاص معروف بدهائه الفريد ، ونجاحه في مهماته العسكرية والسفيرية . فلا ضيرَ إذاً أن يسلمه لواء الفتح ، ويوجهه إلى مصر ما دام عمرو يطمح في أداء رسالة الجهاد عن هذا الطريق .

وعندما ركن عمر إلى الفكرة ، ورأى الفرصة موائمة عقد له اللواء سنة ١٨ للهجرة [١] ، وأرسل معه قرابة أربعة آلاف رجل ، كلهم من « عك » [٢] .

---

١ تاريخ الأمم والملوك : ٣/١٩٥ .

٢ قال أبو عمر الكندي : إنه سار ومعه ثلاثة آلاف وخمسمئة ، ثلثهم من غافق (الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٤) .

كان عمرو يعلم أن عدد الجيش غير كاف بالنسبة إلى طموحه ، ولكنه لن يتراجع ما دام مصمماً ، وها هي الفرصة قد سنحت فلينتهزها . والحقيقة لم يستطع عمر أن يعطيه جنوداً أكثر لأن جبهات الشام والجزيرة وفارس لا زالت منشغلة . ولعله وعده أن يرسل إليه خيرة الأبطال مع ضعفي جيشه الذي سار به الآن ، ولكن حينما تهدأ بعض الجبهات ، أو يرى بصيصاً من نصر .

وتظل كتب التاريخ ، مع هذا ، تصور قلق أمير المؤمنين ، وتروي أنه قال لعمرو : « سر ، وأنا مستخير الله في سيرك . وسيأتي كتابي إليك سريعاً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها ، أو شيئاً من أرضها فانصرف – عائداً – ، وإن أنت دخلتَها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك ، واستعن بالله واستنصره » .

بدء الرحيل

سار عمرو بجيشه من فلسطين ليلاً كي لا يشعر به أحد ، وهو يفكر في طريقة عقد المعارك ، ومحاربة الروم ، ومصارعة الفرسان . ولم يقطع الجيش بعض الطريق حتى لاح عن بُعدٍ فارس من الشرق يتبعهم ، حامل رسالة – توقع عمرو أنها من أمير المؤمنين ، وفهم بدهائه مضمونها – . وصل الفارس إليهم وجيشه في « رفح » ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول خوفاً من منعه عن متابعة غزاته ، وظل يدافعه ويتحاشاه حتى بلغ قريةً فيما بين العريش ورفح . فسأل عنها فقيل إنها من أرض مصر . فاطمأن عندئذ إلى زوال الإحراج ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين . وقال لهم : « إن كتاب أمير المؤمنين لحقني بعد أن دخلنا أرض مصر ، فسيروا ، وامضوا على بركة الله »[1] .

وقبل أن ندخل مع الجيش أرض مصر ، يحسن بنا أن نلمّ بموجز عن أوضاع البلاد العامة . . كيف هي ؟ من يحكمها ؟ ما مكانتهم من السكان الأصليين ؟ ما هي ديانة هؤلاء وهؤلاء ؟ ولماذا سهل عليه الفتح ؟ .

---

١ الكامل : سنة ١٨ . أخبار عمر : ٨٦ .

أوضاع مصر قبل الفتح

١ - الوضع السياسي :

كان كل حديثنا الذي برّرنا فيه دخول عمرو أرض مصر ، منصبّاً على الروم ، في حين أننا نعلم أن سكان البلاد « أقباط » وليسوا « أرواماً » . بل إنهم يكرهون هؤلاء الدخلاء الذين جعلوا بلادهم بقرة حلوباً ، يحتلبون خيراتها ، ويعتصرون ميرتها ، ويرسلونها إلى القسطنطينية ، ويتركون لهم الثفال .

خضعت مصر لحكم الرومان منذ سنة ثلاثين قبل الميلاد حينما استولوا عليها ، بعد أن قضوا على دولة البطالسة[1] (سلالة أحد قادة الاسكندر المكدوني) . وقد عمل الرومان كل ما في جهدهم على استغلال مصر لمنفعتهم الخاصة[2] . وظلت مصر ولاية رومانية حتى سنة ٣٨٤ م ، حيث ورث عرشها غيرُ ولاة عهدها ، وهم البيزنطيون الذين حكموها منذ سنة ٣٨٤ م وحتى سنة ٦٤٠ م حيث دخل عمرو بن العاص . وأخذ يستأصل شأفتهم ، ويطردهم من البلاد طردَ الأنعام .

ورث البيزنطيون الامبراطوريةَ الرومانية في الممتلكات التي تحتلها ، ولم يختلفوا عن الرومان في الاستغلال ، وجمع الضرائب ، وجني الغلات

---

١ حكموا مصر من ٣٠٩ - ٣٠ ق . م . نسبة إلى بطليموس .

٢ تاريخ الدولة العربية : ٦٩ .

لحسابهم . وكانت الضرائب في عهد الرومان تجبى على الرؤوس والصناعات ، وعلى الماشية والأراضي . ولم تقتصر الضرائب على الأحياء ، بل تعدّتها إلى الأموات ، حيث إنهم ما كانوا يسمحون بدفن الميت إلاّ بعد دفع ضريبة معينة . . وكذا فعل البيزنطيون .

وقد انحطت – بعهد الدولتين – درجة العلم في مصر ، وأغلقت أبواب المناصب العالية أمام أهل البلاد ، وخاصة أيام الرومان . وغدا كل شيء – في نظرهم – مكرهاً ، ويدعو إلى الثورة .

ويقسم الدكتور « شكري فيصل »[1] الروم (البيزنطيين) في مصر إلى ثلاثة أقسام ، ونوافقه في هذا التقسيم . ولعلنا نقبل هذا التقسيم على شمال افريقية أيضاً مع كثير من التحفظ ، لاختلاف البيئة ، وطبيعة الشعب والأرض . والأقسام هي :

١ – الروم المقاومون .

٢ – الروم المسالمون .

٣ – الروم الطامعون .

ويرى أن الفرقة الأولى : هي التي واجهت العرب مواجهة العداء . ولم ترضَ دفع الجزية ، لأنها كانت الحاكمة فلا تقنع بأن تكون المحكومة ، أو أن تطرد من البلاد .

والفرقة الثانية : سالمت لأنها تطبعت بطابع الأقباط ، وآمنت بالواقع ، معتبرة نفسها جزءاً من الأرض التي نشأت عليها . وسايرت أحوال أهل البلاد . ولا مانعَ أن تساعد الفاتحين طلباً للاستقرار الذي يريدونه لأنفسهم .

---

١ حركة الفتح العربي : ١٣٧ .

والفرقة الثالثة : وهي الفرقة ذات النظر البعيد ، التي درست كيفية الفتوح العربية ، ورأت أن هؤلاء العرب انتصروا على الروم في الشام وفلسطين . وأن المستقبل غدا بكفّهم ، فلينحازوا إليهم — وكأنهم الانتهازيون بلغة العصر — ، ولا ضير من الصلح . وخير من يمثل هذه الفئة « المقوقس » ، بعد أن نفض يديه من مساعدات بيزنطة ، وهو الذي ذهب إلى العاصمة الكبرى ، ورأى مرضها الذي يمنعها من المساعدة .

والفئة الثانية من سكان مصر هم اليهود ، وقد لقوا العذاب المرير من البيزنطيين . ولكنهم لم يشاؤوا الاشتراك في الحرب مع أحد الطرفين . بل وقفوا وقفة المتفرج المتطلع إلى المنتصر ، ليصفقوا في النهاية له . وكيف يساعدون أحد الفريقين وواحد مسلم والآخر مسيحي ؟ وكلاهما في نظرهم عدوّ لهم ؟ .

أما الفئة الثالثة (الأصلية) فهم الأقباط ، وارثو الأرض عن أجدادهم منذ آلاف السنين . ويشعرون بالذل الذي مُنوا به من الحكام الجائرين ، والأباطرة المستبدين ، الذين يخالفونهم في الدم والهدف . وقد رأوا كم استنزفوهم ثرواتهم ، واستخدموهم في مآربهم .

ثم إنهم سمعوا — وليس هذا بخافٍ على أحد — عن أهداف الدين الذي يحمل إشعاعَه القادمون . وأعجبتهم مسألة مهمة فيه هي : المؤاخاة والمساواة . وهي النقطة التي باحثوا الروم بشأنها طويلاً ، ولكن دون طائل ، والجواب الذي كانوا يحصلون عليه هو الزيادة في الجور ، والإجحاف في الأجور ، ومضاعفة الضرائب .

ورحبوا بالقادمين في سرائرهم بعد ما نمى إلى علمهم حسن سيرة العرب في البلاد التي فتحوها . وانتظروا الفرج والحرية بهذا الدين . وقد قال

ساويروس[1] : «إنهم فرحوا كما تفرح الأسخال[2] إذا حُلّت قيودها ، وأطلقت لترتشف من لبان أمهاتها » .

ولكنهم ، مع ذلك ، وقفوا بعيدين عن ساحة المعركة . لا يساعدون الروم لعدم سرورهم بهم أصلاً . ولا يستطيعون مساعدة العرب خوفاً من العاقبة التي قد تحلّ بهم من الروم . ولكن لا مانع من أن يمدّوا بعض العون سراً للعرب ، ويشاركوهم في بناء الجسور ، وكشف نقاط الضعف في بعض المسالح والقلاع .

٢ – الوضع الديني :

كانت الامبراطورية الرومانية وولاياتها تدين بالدين الوثني ، إلى أن تقرر جعل المسيحية الدينَ الرسمي للدولة والولايات منذ سنة ٣٢٣ م . ودخلت المسيحية مصر عندما تغلغلت الدعوة بين الأباطرة الرومان أنفسهم منذ سنة ٣٧٩ م[3] . وبعد ذلك أخذ الأباطرة بمحاربة الوثنية في كل الولايات الرومانية ، وبصبٍ جام نقمتهم على معتنقيها . وظلوا كذلك إلى أن اعترف قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧ م) بالدين المسيحي ، وساوى عندئذ بين المسيحية وغيرها من الأديان سنة ٣٢٣ م إلى أن جعل الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥ م) المسيحية الدين الرسمي للدولة سنة ٣٨١ م . فدخل المصريون ، وبعض أهل برقة وطرابلس في الدين المسيحي تخلصاً من الشقاء والتشنيع .

غير أنهم لم يستريحوا من العذاب ، لأنهم سرعان ما وقعوا في عذاب

---

١ ساويروس : كاتب مصري من الأقباط له كتاب « العلم والعمل » .

٢ الأسخال : مفردها السخلة وهي ولد الشاة .

٣ تاريخ الدولة العربية : ٦٩ – ٧٠ .

أكبر ، نتيجة الاختلافات المذهبية[1] ، ولعدم دخولهم في مذهب الدولة الذي تبنّته[2] . وأهم هذه المذاهب :

١ – المذهب اليعقوبي : ويسمى أصحابه « اليعاقبة » ، نسبة إلى يعقوب البردعي ، أسقفّ بلدة الرُّها[3] – الواقعة شمال بلاد الشام – القائل بالطبيعة الإلهية الواحدة في ذات المسيح . ويدعى معتنقو المذهب أيضاً بالأرثوذكس »[4] .

٢ – المذهب الملكي : أو « الملكانيون » ، وهم المسيحيون الذين خضعوا لمجمع خلقيدونية عام ٤٥١ م ، الذي انحاز إليه الملك « مرقيانوس » . وهو المذهب القائل بأن المسيح مولود قبل كل الدهور ، وأنه غير مخلوق . وعلى هذا فإنه يتصف بالطبيعتين الإلهية والإنسانية . وتسمى كنيستهم « كنيسة الروم » ، ويسمون بـ « الكاثوليك » ، ويعترفون برياسة البابا عليهم ، بعكس اليعاقبة الذين لا يعترفون برياسته ، وبطارقتهم هم المشرفون عليهم .

قادهم هذا الاضطراب في المذاهب ، وهذا القلق في معاشهم ، والجور في حياتهم إلى التطلع نحو الأصلح . . وهذا الدين الجديد الذي يحمله نسور الصحراء سيحقق لهم أحلامهم ، ويخفف آلامهم . ويجعلهم يفرحون كما تفرح الأسخال إذا حلت قيودها .

---

١ تاريخ الإسلام : ٢٣٦ .

٢ تاريخ الحركة القومية : ٢٥٤ .

٣ الرها : مدينة بين نهري فرات ودجلة في تركية ، كانت تسمى أوديسه ، ويطلق عليها اليوم أورفة . فتحها العرب سنة ٦٣٩ .

٤ الأرثوذكس : أصحاب الكنيسة المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٥٤ ، ويقدر معتنقوها اليوم ١٨٥ مليوناً تكثر في اليونان وبلاد البلقان ومختلف بلاد الشرق الأدنى .

٣ – الوضع الاقتصادي :

صحيح أن مصر كانت سخية العطاء ، سمينة الأضراع ، ولكن الاستنزاف أنهك تربتها فضنّت . وغناها هو الذي جعل الرومان والبيزنطيين والفرس يتطلعون إلى استعمارها . ولكن كثرة الوافدين عليها ، الناهلين من خيرها جعلها ناقة عجفاء غير حلوب . والاضطرابات السياسية والمذهبية ، وكثرة الاستغلال والضرائب ، وخاصة في السنوات العشر الأخيرة ، جعل وضعها التجاري مُنهاراً . وإن تبقّ شيء من الرمق ، فمن نعيم النيل عليها .

نتيجة :

هذا هو وضع مصر عندما تقدم عمرو بن العاص يطرق أبوابها ويدك قلاعها . دون أن يرى معاكسة تذكر من أهل البلاد .

ونحن إن أطلنا في التوضيح السابق ، ورآنا القارىء نسترسل في أوضاع مصر ، وفي فتحها . . فما ذلك إلاّ لأننا نعتبرها « مفتاح » المغرب ، ومحطة أولى للسير بالجيوش إلى ليبيا وإفريقية لرفع راية الإسلام فيها ، وهذا التوضيح الذي أجريناه على الروم وتأثيرهم في أحوال البلاد العامة ، سيكون له أثر كبير فيما بعد . ولكي نوضح للقارىء المدرسة العسكرية التي تدرّب فيها عقبة بن نافع المجاهد الأوّل في ما بعد مصر . فقد كان مع عمرو في فلسطين ، وسايره في معاركه كلها في مصر ، واختبر تحركات أستاذه وقريبه عمرو . . وبرّز أمامه في صولاته ، إلى أن يسّر له الخوض بمفرده ، وأعطاه كامل الحرية في تنظيم عُدده ، بعد اشتداد عوده .

مسيرة الجهاد في مصر

وصلت الأنباء إلى الروم أن عمراً قادم لفتح مصر . وأنه سائر في الطريق الصحراوية التي عبرتها مواكب الأنبياء كإبراهيم وموسى والمسيح ، وجيوش المغيرين كداريوش وقمبيز والاسكندر . وقد رصدوا طريق سيره ، وعرفوا قلة عدده ، ومع ذلك لم يحاربوه . وآثروا الاحتماء بالمدن والقلاع ، ظناً منهم أنهم سيتراجعون لدى أوّل حصار ، لعدم وجود أدوات مضادة للقلاع لديهم ، ولأن أعدادهم لا تكفي للصمود أمام تلك الجدران الحجرية الشاهقة . ولا شك — في نظرهم طبعاً — أن الأقباط سيكفونهم مؤونة ردّهم .

والواقع أن الروم لم يجابهوهم في صحراء سيناء ، لأنهم قريبون من مساعدات رئيسهم الأعلى عمر بن الخطاب ، ولأن العرب أقدر منهم على حرب الصحراء . . فهي جزء من أرضهم يعرفونها ، ويسيرون فيها خفافاً . والحديد لا ينفع في الصحراء ، والأرض مكشوفة عليهم .

ثم إن الوضع السياسي في العاصمة مضطرب أصلاً بين أباطرة ضعاف ، أو مشغولين في تثبيت دعائم حكمهم المنهار ، أو التصدّي للضربات الموزعة من كل جانب . وإذا كانوا لا يقدرون على حماية أنفسهم في عاصمتهم ، فمن البديهي جداً أن يتعذر عليهم حماية جيوش الولايات الأخرى . وهكذا أحس الروم في مصر ، أنهم وحدهم في دولاب الحرب ، وقد يُديخهم . فالأفضل لهم — كما وصلتهم الأوامر من حاكمهم قيرس — أن يتحصنوا .

دخل عمرو بن العاص وجنوده العريش سنة ١٨ هـ دون قتال[1] . وكان أوّل موضع قوتل فيه قتالاً شديداً منذ خرج من فلسطين هو مدينة « الفَـرما »[2] الواقعة شرقي بور سعيد اليوم . وظلوا يحاربون جنودها ، ويحاصرونها قرابة الشهرين[3] ، إلى أن فتحت في شهر محرم يوم عيد الأضحى سنة ١٩ هـ . وقد اشترك معه في الحرب عدد كبير من بدو سيناء وعربها .

ثم انحدر فتخطّى مدينة « مجدل » إلى « القنطرة » اليوم . واتجه بعد ذلك غرباً إلى « القصّاصين » . وتابع الجيش سيره جنوباً ، لا يدافعون إلاّ بالأمر الخفيف ، حتى أتوا « بلبيس »[4] وهي شمال عين شمس شرقي نهر النيل ، فحاصروا المدينة شهراً ، ثم كسبوا المعركة ، بعد أن فتحوا المدينة عنوة .

وبعد هذا النصر ، كسب عمرو ولاء المصريين ، إذ أحسوا بفوز القائد المسلم الجديد ، وتهاوت قوة البيزنطيين المفتعلة أمامهم . وشجعته الانتصارات ليتابع حصار المدن التي يسيطر عليها البيزنطيون . ونزل إلى قرية « أم دُنَين » الواقعة على شاطىء النيل وهي حيٌّ الأزبكية اليوم . وهنا ، لقي المسلمون عنتاً كبيراً ، وقتالاً عنيفاً . وطال حصارها ، وكثر القتلى من المسلمين ، لأنها كانت كثيرة التحصين . ولكنهم انتصروا أخيراً وفتحوها[5] . فتراجع

---

١ يرى ابن حزم أن عمراً فتحها سنة ١٩ ، وهذا مستبعد طبعاً . انظر جوامع السيرة : ٣٤٣ .

٢ وهي بالفرعوني « پلوز » ، وبالقبطي « پرمون » . وهي مدينة على الساحل من ناحية مصر بين العريش والفسطاط .

٣ كذا رأي ياقوت ، أما المقريزي وابن عبد الحكم وابن الأثير فذكروا أن الحصار دام شهراً واحداً .

٤ بلبيس : بلدة في شمالي القاهرة ، تحضرت فيها قبائل العرب سنة ٧٢٧ م ، وتوفي فيها العزيز الفاطمي .

٥ تاريخ الحركة القومية في مصر : ٢٦١ .

الروم إلى حصن « بابليون »[1] ، وهو أضخم حصن في المنطقة .

وأحسّ عمرو بخطورة الموقف ، فكتب إلى عمر يطلب منه المدد ، ويخبره أن ما تبقّى من جيشه لا يكفيه للمتابعة ، وأن مساعدات البدو والأقباط ثانوية ، تعين ولا تغني ، ثم إن المعركة حول بابليون فاصلة .

كان عمر يتتبع أحداث المعارك والانتصارات أولاً بأوّل ، خوفاً على المسلمين الذين تعهدوا النصر أو الاستشهاد في سبيل تحقيق نتائج الجهاد ؛ ولما وصله الرسول بطلب النجدة ، أسرع في تجهيز الجيش اللازم[2] ؛ وهو يعلم أن ما أرسله مع عمرو في الدفعة الأولى ما هو إلاّ كتيبة استطلاعية ، يختبر بها سير الفتح . ولما رأى أن الجهاد مثمر ، أمدّه باثني عشر ألف رجل بقيادة الزبير بن العوام[3] . وكتب إليه :

« إني مددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم مقابل الألف[4] : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود[5] ، وعبادة بن

---

١ بابليون : مدينة قديمة كانت تقع بالقرب من القاهرة الحالية ، عندها جرت المعارك الفاصلة عندما فتح عمرو مصر . وبالغرب منها بنيت الفسطاط .

٢ الكامل : ٢/٥٦٥ .

٣ هو الزبير بن العوام بن خويلد . أمه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول . كانت أمه تقسو عليه طفلا ليغدو في كبره قوي العود . دعاه أبو بكر إلى الإسلام فاستجاب وعمره ١٦ سنة . هاجر إلى الحبشة في الهجرتين . وهاجر إلى المدينة وحده . كان أحد فرسان بدر الثلاثة ، وشهد أحد ، وفتح خيبر اشترك في معركة اليرموك . وشهد مؤتمر الجابية مع عمر . ثم جاء على رأس ألف إلى مصر . قتل سنة ٣٦ هـ وهو ابن ٦٤ سنة .

٤ فتوح مصر والمغرب : ٩١ . معجم البلدان .

٥ كان اسمه في الجاهلية « المقداد بن عمرو » وسبب ذلك أنه لما حالف الأسود بن عبد يغوث تبناه ، فصار يدعى أبا الأسود . وهو من المبكرين في الإسلام ، وسابع سبعة جاهروا بإسلامهم . وتحمل نصيبه من تعذيب القرشيين . له موقفه المشهود أيام معركة بدر . وكان أحد الفرسان الثلاثة في معركة بدر .

الصامت[1] ، ومسلمة بن مخلد (رضي الله عنهم) . . . ولا تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » . وقيل إن الرابع[2] خارجة بن حذافة[3] دون مسلمة[4] .

ظل عمرو محاصراً حصن « بابليون » الواقع شمال « منف » ، دون أن يتوقف عن الفتح ، وكان يرسل الكتائب لفتح بعض قرى اقليم الفيوم من هناك[5] .

كان جيش الروم يستطيع أن يخرج من الحصن ، وكان بإمكانه مقاتلة البقية الباقية من المسلمين . ولكنهم تخوّفوا ، ولو خرجوا لكان النصر عسيراً على المسلمين ، لأن أعدادهم كبيرة جداً ، ولكن الله تعالى أعمى بصائرهم ، وأوهن فرائصهم .

ولما وصلت الأنباء لعمرو بقدوم النجدة ، خفَّ للقائها . فاجتمعوا

---

١ هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي . شهد العقبة الأولى والثانية ، وبايع مع من بايع من الأنصار على أن يمنعوا رسول الله مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم . كان أحد النقباء الاثني عشر . وقد آخى الرسول بينه وبين أبي مرثد الغنوي . شهد بدراً وأحداً والخندق وغيرها من الغزوات . وكان من المسلمين الأولين ، وممن بايع الرسول على ألا يخاف في الله لومة لائم . حارب في الشام قبل مصر .

٢ طبقات ابن سعد : ٧/٤٩٦ .

٣ كان أحد فرسان قريش الأقوياء . كان على رأس كمين قوته ٥٠٠ رجل ، وسار إلى أم دنين في معركة بابليون . وتسلم إدارة الحصن حينما اتجه عمرو لفتح الاسكندرية . تولى الشرطة والقضاء أيام عمرو . وهو الذي استخلفه عمرو ليلة نية قتل الرجال الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو ، وقتله الخارجي سنة ٤٠ وقبره معروف في مصر . وقال : أردت عمر وأراد الله خارجة .

٤ تاريخ الأمم والملوك ، حوادث سنتي ١٨ و ١٩ . حسن المحاضرة : ١/٥٢ . فتوح البلدان ٢١٤

٥ مضى في الفصل السابق ذكر بعض الكتائب المرسلة من قبله .

بعين شمس[١] ، وجعلوها « قيروان »[٢] الجند . وقد كانت مكاناً مناسباً مرتفعاً ، تكثر فيه الأطلال التي تساعد الجند على الاحتماء بين صخورها ، وكانت المنطقة غنية بالمياه والغذاء .

واغترّ « تيودور » قائد الروم بقوة جيشه ، فأراد أن يفاجىء العرب في معسكرهم « عين شمس » ، فزحف في عشرين ألفاً . ولم يكن عمرو غافلاً عن تحركات العدو ، فأعدّ العدّة ، وسُرّ لهذه البادرة ، إذ تخلّص من هذا الحصار المملّ فقد كان يريد إخراج الروم ليحاربهم في العراء بأي شكل ، وها هم خرجوا بأنفسهم . فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام ؛ اثنين في كمائن ، والثالث كان بقيادته ، وهو الذي استعد لمواجهة تيودور .

وما هي إلاّ مدة وجيزة حتى وقع الجيش الرومي بين ثلاثة جيوش مترصدة ، فتزعزع نظامُه ، واضطرب رجاله . ثم هربوا لا يلوون على شيء ؛ بعضهم رمى بنفسه في النيل ، وبعضهم هُرع إلى الحصن . . والقسم الأعظم راح قتيلاً[٣] .

وبهذه المحاولة الفاشلة من قبل البيزنطيين كشفوا أنفسهم ، وأظهروا عيبهم الذي كان مخبأ خلف جدران السور . ثم عادوا إلى الاحتماء به .

ولم يبق للمسلمين سوى أن يحيطوا بالحصن بكل عنف ، فقد تحركت دماء المسلمين وغلت ، ولمسوا النصر بإذن الله . كان أمير الحصن يومئذ

---

١ عين شمس : ترجمة لاسم المدينة الكبيرة « هيليو پوليس » ، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ .

٢ سيأتي شرح كلمة « قيروان » أثناء حديثنا عن « قيروان » التي بناها عقبة بن نافع . والظاهر أن الكلمة مستعملة في جيوش المسلمين .

٣ تاريخ الحركة القومية : ٢٧٢ .

« الأعيرج » من قبل المقوقس[1] — أو هكذا لُقب — ويقولون : بل كان المقوقس نفسه مع تيودور قائد الجند ، بالإضافة إلى الأمير الأعيرج .

ونصب عمرو « فسطاطه » يرقب منه جنوده المحاصرين . وأقام المسلمون على أطراف حصن بابليون ، يطوقون الروم قرابة سبعة أشهر[2] .

في هذه الأثناء كان المقَوقس يميل إلى الصلح مع العرب ، ويعرف تمام المعرفة أن البيزنطيين لا يقدرون على الصمود أمام هذه الجموع المؤمنة التي شَرت أرواحها في سبيل تحقيق أهدافها . فأرسل وفداً خرج من الحصن ، وتوجه إلى « فسطاط » عمرو بن العاص ، يعرض عليه الصلح باسم المقوقس . وكان جواب عمرو[3] ، هو ما لقّنه إياه أمير المؤمنين ، أحد ثلاثة شروط :

١ — الدخول في الإسلام ، ودفع الزكاة .

٢ — البقاء على المسيحية ، ودفع الجزية .

٣ — أو الحرب .

فعاد الوفد إلى المقوقس يحمل هذه الشروط الواضحة التي لا تحتاج إلى تأويل أو تحوير .

وهدأ الطرفان . .

---

١ المقوقس : هو أسقف روماني من أصل يوناني . أقامه هرقل سنة ٦٣١ أميراً على الاسكندرية — عاصمة البلاد — وبرقة (البيان المغرب : ١/١١) .

٢ كلام عمرو بن العاص هذا يشبه كلام خالد بن الوليد مع هرمز حاكم ثغر الأبلة : « أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك الذمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك . فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وهذا دليل على أن القواد جميعاً حملوا رسالة واحدة وهدفاً سامياً .

٣ الكامل : ٢/٥٦٦ .

وعاد المقوقس يطلب وفداً من قبل المسلمين للمحادثة . فأرسل عمرو ابن العاص وفداً من عشرة ، ورئيسهم عبادة بن الصامت ، وكان رجلاً أسودَ ، طوله — كما يقول ابن الأثير والطبري — عشرة أشبار . وطلب عمرو أن يكون عبادة هو المتحدث ، على ألاّ يخرج عن إحدى الخصال الثلاث الآنفة الذكر . فقطع الوفد النهر وساروا إلى الحصن ، ففتحت لهم الأبواب ، ومثلوا بين يدي المقوقس ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه لسواده وفرط طوله ، فقال بكبرياء الروم المتعجرفين :

— نحّوا عني هذا الأسود ، وقدّموا غيره يكلمني .

فأجاب أحد أعضاء الوفد :

— إن هذا الأسودَ أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا . وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه . وقد أمّره الأمير ، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله .

فدهش المقوقس من هذا الجواب المفحم ، لأن البيزنطيين قد اعتادوا على التفرقة العنصرية ، ومنعِ أمثال هؤلاء « السود » من الكلام ، وحرمانِهم من حقوقهم ، وزجِّهم في مقدمة المعارك ليحتلوا الصفوف الثانية خوفاً على أرواحهم من المهالك . . فإذا خسرت معاركهم كانوا الناجين ، وأولئك القتلى أو الأسرى . وازداد اندهاشه من أن العرب لا يفرّقون بين الأسود والأبيض ، بل إن عمراً نفسه تعمَّد هذا ليعلن على هذا الملأ أن خير الناس الأتقى ، ولا فرق بين أسودَ وأبيضَ إلاّ في الدين . . والجهادِ في سبيل الله .

وتكلم عُبادةُ رادّاً على إهانة المقوقس له :

— إن فيمن خلّفتُ من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشدّ سواداً

مني . وإني بحمد الله ما أهاب مئة رجل من عدوّي لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي .

من هنا – من باب الرفعة والمقدرة – أخذ الطرفان في المناقشة . المقوقس يهدّد عبادة ويخيفه ، وعبادة يرحب بالموت ويهلّل ، ويستخف بالقوة حباً بالاستشهاد . . في سبيل الله .

ولما عيل صبرُ المقوقس طلب هُدنة شهر ، فلم يعطه عبادة أكثر من ثلاثة أيام . وانتهت الأيام فعادوا إلى الحرب . ورأى المقوقس أن لا حيلة له أبداً إلاّ بدفع الجزية . والجزية المتفق على دفعها مع الشروط هي هي المعمول بها :

١ – ديناران سنوياً على كل بالغ في مصر ؛ رومي أو قبطي ، شريف أو وضيع ، دون الشيوخ والأطفال والنساء ، فهم معفيّون من الجزية .

٢ – للمسلمين على الروم والأقباط النزول حيث نزلوا ضيوفاً ثلاثة أيام .

٣ – للسكان أراضيهم وأموالهم وأنعامهم ، لا يعترضها المسلمون في شيء .

٤ – واشترط المقوقس على عمرو : أن للروم الخيار في الصلح إلى أن يوافي كتاب ملكهم ، فإن رضي تمّ ذلك ، وإن سخط انتقض ما بينه وبين الروم . وأما القبط فلا خيار لهم من دفع الجزية والموافقة على الشروط الآنفة الذكر .

وكان عدد القبط يومئذ أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، وعدد المسلمين خمسة عشر ألفاً فقط .

فوافق المقوقس على شروط الجزية والمعاهدة ، شريطة أن ينتظر رأي هرقل في القسطنطينية . فوافق عمرو ، وسالمهم مدة شهر . . وجاء الردّ

من عاصمة الروم . . أنْ لا جزية ولا صلح مع العرب . واستُدعي المقوقس من مصر ، ليلقى النفيَ جزاء مساعي الصلح .

وعاد القتال إلى الالتحام من الحصن مع العرب . وظل العرب يحاصرون الحصن شهراً آخر . ولما طال الأمر ، وعيلَ صبرُ المسلمين وهبَ الزبير اللهَ نفسَه ، وصمَّم على اقتحام السور في ليلة من ليالي أعياد النصارى . وأعدّ خطة جَهنميّة مع خيرة رجاله بحركة فدائية . وذلك بأن يصعد إلى أعلى السور بسلّم[1] صُنع لهذه المهمة الشاقّة . وقال : إني أهب نفسي لله ، فمن شاء أن يتبعني فليفعل .

وأخبر زملاءه أنه إذا رقيَ السور وكبّر لحقوه ، وعلى العرب من تحت السور أن يُسعفوهم بنبالهم الصائبة ، الموجّهة نحو البيزنطيين ، فتبعه جماعة حين أوفى على الحصن ، فكبّر وكبّروا . ونصب شُرحبيل بن حَسَنَة سلماً آخر ، ولحق بالزبير[2] . وتحامل الناس على السلمين حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسرا .

ولما رأى المقوقس أن العرب دخلوا الحصن ، وأنهم خاسرون لا محالة ، وأن مساعي المفاوضات كلها باءت بالفشل ، اتفقوا على أن يخرج الرومان منه دون حرب . فاشترط عمرو أن يتركوه بمدة ثلاثة أيام فقط ، دون أن يحمل الجنود معهم سلاحاً أو ذخائر . ونفّذ البيزنطيون الشرط ، وخرجوا .

وهكذا استولى العرب على الحصن سنة ٢٠ للهجرة[3] ، وأقاموا في مصر

---

١ فتوح مصر والمغرب : ٩٤ .

٢ يقال إن السلم الذي صعد عليه الزبير كان موجوداً في داره التي بسوق « وردان » إلى أن وقع حريق في هذه الدار ، فاحترق بعضه . ثم أحرق ما تبقى منه في ولاية عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، وذلك بعد سنة ٣٩٠ هـ .

٣ تاريخ الحركة القومية : ٢٧١ .

حتى هذه اللحظة قرابة السنتين . ولكن العقبة الكأداء حلّت الآن . فقد كان هذا الحصن أكبر عثرة في طريقهم ، ولم يبق أمامهم إلاّ عاصمتهم « الاسكندرية » .

واتجهت جيوش المسلمين نحو الشمال ، يقتحمون المدن التي يمرّون بها ، ويهزمون الكتائب التي تعترضهم . وكان القبط في هذه الأثناء يساعدونهم على إصلاح الطرق ومدّ الجسور ، وتأمين التموين ، وغير ذلك ممّا يسهّل حركة السير ويسرّعها .

ومرّوا في طريقهم بترنوط (طرانة) فنقيوس[1] . ومن ترنوط أرسل عمرو بن العاص « شريك بن سُميّ » للقاء الروم عند « الكَوْم » ، فانتصر المسلمون ، واحتلوا الحصن . ومنذ ذلك الحين سمي الحصن « كوم شُريك » .

واتجه عمرو بن العاص شرقاً ليفتح « سُلْطَيس » ، وموقعها جنوب دَمَنهور . وأهم حصن استعصى عليهم قبل وصولهم إلى الاسكندرية هو حصن « الكِرْيَوْن »[2] ، ولكنهم استطاعوا في النهاية الانتصار على جنوده ، ومن ثمّ فتحه . ومن الجدير بالذكر أن « تيودور » قائد الجيش البيزنطي كان فيه . وحينما رأى أن المسلمين ينتصرون هرب إلى الاسكندرية ؛ آخر معاقلهم .

وتجمّعت الجيوش المسلمة حول الاسكندرية ، ولحقتها الكتائب التي كان عمرو بن العاص أرسلها لبعض الفتوح . ووقف المسلمون أمامها مشدوهين ؛ فقد كانت مسوّرة ، منيعة ، كثيرة الحرس والجيش ، محاطة

---

١ نقيوس أو نكيو : مدينة بين الفسطاط والاسكندرية ، في رأس الدلتا . واليوم اسمها « شيشير » .

٢ كريون : مدينة كانت بين الاسكندرية وهرموبوليس .

بالأسوار من كل جهاتها ، وكانت على اتصال مباشر بالبحر . . ولهذا فإن مسألة تأمين المؤن مُذلّلة ، فلينتظر العرب على الأبواب ، وليبقوا هم ضمن أسوارهم . . عسى أن تأتيهم النجدات ، أو يملّ المسلمون . . أو يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً .

ولكن العرب لن يملّوا لأن النصر يشجع ، والهدف يزيد المرء تمسكاً إذا لمح صاحبُه بصيصاً من الأمل . وها هم بظرف عامين دخلوا مصر من شمالها الشرقي إلى جنوبها ، ومن جنوبها إلى شمالها الغربي . . ولم يبق إلاّ هذه المدينة ، وستُفتح بإذن الله . والروم في القسطنطينية لن يستجيبوا لنداءات حامية الاسكندرية لانشغالهم بأنفسهم ، وبمعاوية الذي شرعت جيوشه تدكّ بعض معاقلهم االبحرية .

ولم يستطع العرب الاقتراب من الأسوار ، لأن المجانيق كانت تمطرهم بوابل من الحجارة الضخمة . وثبت العرب حول الأسوار بعيدين عن مرمى أحجارهم ، منتظرين نفادَ صبر المحصورين ، وظلوا هكذا مدة أربعة عشر شهراً ، بين الحلوة وقصر فاروس .

ومن حسن حظ العرب والقبط على السواء ، أن المقوقس عاد إلى الاسكندرية بعد وفاة هرقل ، وجنوحِ البلاط البيزنطي إلى مسالمة العرب لتدبير أوضاعهم الخاصة ، وحال وصوله أبلغ عمراً أنهم على استعداد للصلح ، والشروط التي يراها المقوقس هي :

١ ــ هدنة مدتُها أحد عشر شهراً ، تُسلم بعدها المدينة .

٢ ــ عدم تعرض العرب للمدينة قبل ذلك .

٣ ــ السماح للحامية البيزنطية أن ترحل بكامل أسلحتها وذخائرها ، وبكل ما تملك من عتادٍ وأموال .

٤ – احتفاظ العرب بمركزهم مدة الهدنة دون أن يحارب أحدُ الطرفين الطرفَ الآخر .

٥ – ألا يتعرضَ المسلمون للكنائس ، وألا يتدخلوا بشؤون المسيحيين .

٦ – دفع الجزية على كل مَن فُرضت ؛ وهي ديناران سنوياً « ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شيء » .

٧ – أن يدفعوا الجزية عن شهرٍ عند رحيلهم .

٨ – بقاء اليهود في الاسكندرية .

٩ – ألا يعود جيش رومي إلى الاسكندرية لاستردادها[1] .

وقد سميت هذه المعاهدة بمعاهدة الاسكندرية التي جرت سنة ٢٠ هـ – ٦٤١ م . وأجراها في حصن بابليون حيث كان عمرو يقيم . ولم تنتهِ المدة حتى خرج آخر جندي رومي من الاسكندرية[2] . وقد قال هرقل قبل أن يموت : « لئن ظفر العرب بالاسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكهم . فليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية » .

وهكذا انتهى أمر مصر كلها ، وصارت للمسلمين[3] . وبقي على عمر أن يستعدّ للجهاد والتبشير اللذين جاء من أجلهما .

دخل المسلمون الاسكندرية سنة ٢٠[4] فأخذتهم الدهشة من جمال المدينة وحسن بنائها ، واتساع شوارعها ، وقوة تحصيناتها . وأخذوا يتجولون

---

١ انظر مجموعة الوثائق : ٣٨٦ – ٣٨٧ لتطلع على نص المعاهدة .

٢ أما المقوقس فيقال : إنه سمّ نفسه بخاتم فيه سم ، أو إنه مات سنة ٦٤٢ .

٣ تاريخ الحركة القومية : ٢٧٣ .

٤ المواعظ والاعتبار : ١/٢٤ ، وقيل دخلوها سنة ٢١ .

فيها تجول المتطلع لأكبر مدينة يمرّون بها بعد أن خرجوا بجيوشهم للفتح . وقد حدّثهم بعض من شهد فتح القدس أو دمشق منهم أنها لا تقل روعة عن دمشق ، وتزيد اتساعاً ونظافة عن القدس نفسها . أما عمرو فقد أخذ بتنظيمها وإدارتها فوراً . ثم عين عليها عبدَ الله بن حذافة ، وانصرف هو إلى بناء الفسطاط [1] .

وقبل أن تتمّ عملية الصلح ، أو عملية تسليم الاسكندرية ، كانت المدينة المنورة بقلق زائد على أوضاع الجيش الواقع في قلب مصر . فقد مضى عامان ، ولم يُبلغ عمر بن الخطاب بالفتح الكامل . ولما أبطأ على عمر كتاب « فتح مصر » بعث إلى عمرو يقول :

« أما بعدُ ، فقد عجبتُ لإبطائكم عن فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلاّ لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوّكم . وان الله ، تبارك وتعالى ، لا ينصر قوماً إلاّ بصدق نياتِهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلاّ أن يكون غيَّرهم ما غيَّرهم. فإذا أتاك كتابي ، فاخطب الناس وحضّهم على قتال عدوِّهم ، ورغِّبهم في الصبر والنية ، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومُر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقت الإجابة . وليعجِ الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » [2] .

ولكن عمراً كان منشغلاً في فتح الاسكندرية ، وفي المفاوضات التي ستثمر عن أكبر نصر . . فهو ، إن تعذب وقاسى مع جيوشه في فتح القلاع

---

١ صد عبد الله هجمة بحرية كبيرة للروم ، واستطاع تهدئة المدينة . (فتوح البلدان : ٢٢٢) .
٢ حسن المحاضرة : ١/٦ .

والمسالح . سيفتح الاسكندرية عنوة ، وينتصر أحسن نصر .

وما هي إلاّ أيام حتى وصلت البشائر من مصر تعلن افتتاح الاسكندرية بخروج البيزنطيين ، وها هي ذي رسالة مصر إلى أمير المؤمنين ، فيها :

« أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى فتح علينا الاسكندرية عنوة قسراً بلا عهد ولا عقد »[1] .

ولما وصلت الأنباء إلى أمير المؤمنين ، حمد الله على النصر الذي أحرزه المسلمون أخيراً . وسرعان ما أملى على الرسول كتاباً يستوصفه مصر ؛ فقد اشتاق إلى التعرف على البلاد التي وطئها المسلمون ، وثبتوا بها أقدامهم :

« أما بعد يا عمرو : إذا أتاك كتابي فابعث إليّ جوابَه ، تصف لي مصر ، ونيلها ، وأوضاعها ، وما هي عليه حتى كأنني حاضرها »[2] .

فأعدّ عمرو بن العاص جواب الرسالة بأسلوب يعدُّ كاتبها من أبرز كتاب العصر . كان واقعياً جداً في الوصف من دون إسهاب ، مُجيداً في تصوير الأحداث من غير إطناب . وقد سرّه أن يبعث السرور في قلب رئيسه وأميره ، بعد أن كان ضجراً مَلولاً . فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنها تربةٌ غبراء ، وحشيشة خضراء طولُها شهر وعرضها شهر . يكتنفُها جبل أغبرُ ورمل أغفرُ . يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الرّوحات . تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان . تمدّه عيون الأرض وينابيعها . حتى إذا عجّ عجاجُه ، وتنطّفت أمواجه واغلَوّلت لجحه فاض

---

١ مجموعة الوثائق : ٣٨٨ .

٢ نخبة الدهر : ١٠٩ .

على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلاّ في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته وطمى في ذروته . . فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ؛ يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب . حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى ، وغذّاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء ، إذا هي غبرة سوداء ، وإذا هي زبرجدة خضراء . فتعالى الله الفعّال لما يشاء . وفيها ما يصلح أحوال أهلها ثلاثة أشياء : أولها : لا تقبل قول رئيسها على خسيسها . والثاني : ولا يستأدى خراج ثمرة إلاّ في أوانها . والثالث : أن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال . والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل »[1] .

---

[1] النجوم الزاهرة : ٣٢/١ . اضطربت روايات هذه الرسالة الوصفية . ويمكن للقارىء أن يعود إلى تاريخ الحركة القومية : ٢٨٠ ليرى اختلاف الروايات .

عزل عمرو عن مصر

انهمك عمرو بن العاص في إعادة بناء مصر كلها بعد أن هدأ مُثار النقع . وأخذ يجبي الخراج والجزية دون أن يجور على المسيحيين أو المسلمين ، ويصرف منهما على الاصلاحات العامة لإرضاء الشعب ، ويُشعرهم بالفارق بينه وبين الروم . وما تبقّى يرسله إلى المدينة المنوّرة . غير أن عمر بن الخطاب شكّ بمقدار الخراج الذي كان يرسله عمرو إليه ، ولم يقنع بالمصاريف التي يذكرها له[1] . لذا فإنه عيّن على صعيد مصر « عبد الله بن سعد بن أبي سرح »[2] أخا عثمان في الرضاع ، ووكل إليه أمر الخراج .

ولما تولّى عثمان بن عفان خلافة المسلمين بعد عمر ثبّت أخاه في الرضاع على مهمّة الجباية ووسّع بعض صلاحياته ، فتباغى عمرو وعبد الله . فكتب الأخ إلى أخيه يقول :

— إن عمراً كسر عليّ الخراج .

وكتب عمرو يقول :

— إن عبد الله كسر علي مكيدة الحرب .

---

١ ذكر الطبري أن عمر كتب إلى عمرو لما ظهر له غناه : « بلغني أن قد فشت لك فاشية من ناطق وصامت ، لم تكن لك حين وليت مصر ! » . فأجابه عمرو يعتذر برخص الأسعار في مصر رخصاً يوفر له معظم راتبه، فيتجر بما يفيض عنه . فكتب إليه بألا يضيع وقته في غير رعاية المحكومين ، وبأن يسلم محمد بن مسلمة شطر ماله (تاريخ الأمم والملوك: ٣/١٦٦).

٢ سيرد التفصيل عنه أثناء الحديث عن عقبة بن نافع .

فعزل عثمان عمراً[1] بعد أن وليَ مصر أربع سنين وأشهراً ، وولى عبدَ الله مصر كلها بعده . فاغتاظ عمرو ، وعاد أدراجه إلى المدينة — ويروى إلى مكة — فدخل على عثمان ، وعليه جبة محشوَّة قطناً . فقال له :

— ما حشوُ جبتك يا عمرو ؟

أجابه :

— عمرو

قال عثمان :

— قد علمتُ أن حشوَها عمرو ، ولم أُرد هذا ، إنما سألتُ أقطن هو أم غيره ؟

وكان عثمان يلمّح له بما كسبه من إمارته على مصر ، حتى ارتدى ما ارتدى . فاعكتف عن عثمان ، ولم يعد يتصل به .

---

١ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٤ .

نقض الصُّلح وعَودة عَمرو

أراد عبد الله أن يثبت لعثمان أن عمراً كان يختلس من الخراج ، فشرع بإرهاق الشعب بالضرائب والضغط عليهم في سبيل ذلك ، مما دفعهم إلى نقض العهد سنة ٢٥ هـ ، والاستنجاد بأمبراطور الروم عمانوئيل الخصي ، خاصة بعد أن فقدوا الأمير الذي كان يعطف عليهم ، ويحرص على تحسين أوضاعهم ، ويربط علاقته بهم . فانتهز الأمبراطور الفرصة ، وأرسل أسطولاً ضخماً من ثلاثمئة سفينة [1] . فاحتل الروم الاسكندرية ، وقتلوا الحامية المسلمة . وساعدهم على ذلك مَن كان فيها من الروم ، ومَن بقي على ولائه لهم من الأقباط .

فطيّر عبد الله رسالة إلى عثمان طالباً نجدة ، فأحسّ الخليفة آنئذ بمكان عمرو في مصر ، ومكانته الحربية . وكانت وصلته رسالة — قبل هذه — من أهل مصر يطلبون منه أن يسند حرب الروم إلى عمرو ، لمعرفته بفنون حربهم معهم .

فاستدعاه ، ورجاه أن يذهب لنجدة المسلمين . فاستجاب عمرو لرجائه بدافع إتمام عمله دون أن يثأر لنفسه أو لعزلِه ، وخفّ بجنده ، ودخل مصر . وكان عمانوئيل في ذلك الوقت يسير جنوباً يريد استعادة ما سلبه المسلمون منه . ولكنه فوجىء بعمرو بن العاص وهو على أبواب « نقيوس » . فاقتتل

---

١ معجم البلدان .

الطرفان قتالاً شديداً ، أسفر عن هزيمة عمانوئيل وجنوده .

وتحصّن الإمبراطور في الاسكندرية ، وأغلق أبوابها ، فتألم عمرو في هذا الوقت أن أبقى أسوار الاسكندرية يومَ فتحها دون تهديم ، حرصاً منه على جمالها . وقد أقسم أنه سيهدم أسوارها حين يظفر بها . فحاصرها ، وساعده أهل البلاد من المسلمين والأقباط بعد أن استبشروا بعودته .

وظلت الحرب قائمة من الداخل والخارج حتى يسّر الله فتح المدينة ، فقتلوا الروم ، ومن بينهم عمانوئيل نفسه[1] . وهكذا عادت الاسكندرية إلى حظيرة الإسلام ، فنفّذ قسمه ، بأن هدم أسوار المدينة ، وتركها عارية .

وكان الروم ، لما خرجوا من الاسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى ؛ مَن وافقهم ومَن خالفهم . فلما ظفر بهم المسلمون ، جاء أهل القرى الذين خالفوا الروم فقالوا لعمرو :

ـــ إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ، ولم نخالف نحن عليكم . وكنا على الطاعة .

فردّ عليهم عمرو ما عرف من أموالهم بعد إقامة البينة[2] .

ولما علم عثمان بأمر الانتصار الساحق الذي حظي به عمرو والمسلمون ، عينه قائداً على الجيش مكافأةً له ، في حين أبقى عبد الله والياً على مصر . ولكن عمراً رفض ، وعاد إلى المدينة وقال له :

ـــ أنا إذاً كماسكٍ البقرةَ بقرنيها ، وآخر يحلبها .

ولما نشب الناس في أمر عثمان خرج عمرو إلى الشام ، فنزل بها في

---

١ فتح مصر والمغرب : ٢٣٦ .
٢ الكامل : ٣/٨١ .

أرضٍ له بالسّبع من أرض فلسطين ، وظل بها حتى قُتل عثمان ، فصار إلى معاوية ، يُظهر الطلب بدم عثمان[1] . ولما آلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب عين على مصر عدة ولاة آخرهم « محمد بن أبي بكر الصديق »[2] .
وبعد أن انتهى التحكيم ، ونجح معاوية في الحكم ، أعاد عمراً إلى مصر سنة ٣٨ هـ[3] بعد أن بعُد عنها اثنتي عشرة سنة ، وأرسل معه أربعة آلاف جندي[4] ، وطلب منه أن يطرد محمداً والي علي (رضي) . فأرسل عمرو كتاباً إلى محمد يأمره بأن يتنحّى عن الولاية ، ويطلب منه ألاّ يقابله حتى لا يقتله[5] .

وكان من الطبيعي ألا يستسلم محمد بن أبي بكر إلى تهديد عمرو ، فأعدّ جيشاً للقائه . غير أن جيش محمد لم يستطع الصمود أمام جيش عمرو بطبيعة الحال ، فانهزم ، وتفرّق جنده بعد أن قتل كثير من رجاله ، واستسلم قسم منهم ، بعد أن ساعدوا عمراً على الإمساك بأميرهم الذي حاول الفرار ، فتبعه « معاوية بن حديج » حتى ظفر به . فأخذه إلى عمرو مقيداً . فجعلوه — رحمه الله — في جلد حمار ، وأضرموه بالنار ، وذلك في « كوم شريك »[6] .

---

١ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٤ .
٢ عين علي محمد بن أبي حذيفة ومعاوية بن حديج وقيس بن عبادة ، والأشتر بن مالك الذي لم يصل لأنه سم في طريقه ، ثم محمد بن أبي بكر (انظر تاريخ الأمم والملوك : ٣/٤٦٢) .
٣ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٤ . (وانظر وثيقة الاتفاق في المصدر نفسه بين عمر ومعاوية : ٤/٢٥٤) .
٤ الكامل : ١/٦٠٤ ، وفي رواية ستة آلاف .
٥ نص كتاب عمرو إلى محمد هو :
« أما بعد ، فتنح عني بدمك يابن أبي بكر ؛ فإني لا أحب أن يصيبني منك ظفر . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك . فهم مسلمون لو قد التقت حلقتا البطان . فاخرج منها ، فإني لك من الناصحين ، والسلام » .
٦ أسد الغابة : ٤/١١٧ . الكامل : ١/٦٠٤ .

نهاية

وهكذا عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر ، فابتنى بها داراً ، ونزلها . وحكم البلاد إلى أن وافته المنية في يوم عيد الفطر سنة ٤٣ ﻫ في خلافة معاوية . ودفن بالمقطم ، مقبرةِ أهل مصر[١] . وكان له من العمر سبعون سنة على ما ذكرنا في مطلع الباب . وكان قد حكم مصر عشر سنوات وأربعة أشهر .

وكان طيلة مدة حكمه والياً ، حسن الإدارة ، وأميراً حريصاً على العدل ، رحيماً لين الجانب للطرفين : الأقباط والمسلمين . فأحبوه ، وتفانَوا في خدمته . وصفاته هذه هي التي سهّلت عملية إدخال الإسلام بين صفوف الأقباط بمدة وجيزة .

ويحكى أنه لما حضرته الوفاة قال : « اللهم لا براءة لي فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر . أمرتَنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا . اللهم هذه يدي إلى ذقني » .

وأوصى : « إذا رأيتموني قد قُبضت ، فخذُوا في جنازي ، وكفّنوني في ثلاثة أثواب ، وشدّوا إزاري فإني مُخاصم . وألحِدوا لي ، وشُنّوا عليّ التراب ، وأسرعوا بي إلى حفرتي »[٢] .

وظل يدعو ربه حتى قبض رحمه الله رحمةً واسعة .

لم يمت عمرو بن العاص حتى أسهم أكبر إسهام في ترسيخ دعائم الإسلام

---

١ الطبقات الكبرى : ٧/٤٩٤ .

٢ مروج الذهب : ٢/١٧ . وكذلك في الطبقات الكبرى . ويروى أنه خاطب ابنه عبد الله في وصيته هذه ، والرأي أنه كان أول الحاضرين لأنه خاطب الجمع .

في مصر ، لتنطلق منها وفود الفتح إلى ليبيا والمغرب . وسنرى كيف أن عقبة بن نافع الذي تدرّب على أفانين الحرب في مصر ، ورافق ابن خالته عمراً في كل حروبه ومعاركه ، وشاركه مشاركة فعالة ، يستطيع أن يوطد الإسلام في ليبيا في مدة وجيزة ، لينطلق منها في الفتح إلى طنجة والسوس الأقصى .

وإذا قيّض الله لعمرو تحرير مصر ، وإدخال الإسلام في قلوب أهلها بعد كل هذه المعارك والكتائب ، فإن عقبة وفق بنصر مؤزر بكتائب أقلّ عدداً ، وبسلاح التبشير الإسلامي الصادق المخلص ، وبالمؤاخاة التي كان يفتقر إليها سكان المغرب ، مع نزلائهم الغرباء كالإغريق والرومان .

إصلاحات عمرو في مصر

بناء الفسطاط :

اعتاد أغلب القواد المسلمين أن يعسكروا في مناطق معينة تكون أقرب ما تكون من مكان المعارك التي تدور بينهم وبين الأعداء . وتشاء الظروف أن تغدو هذه المعسكرات نواة لتأسيس مدن لسلامية ، تأخذ طابعاً خاصاً . ومن أهم هذه المدن : البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في تونس . وخاصة إذا لم يكن في مناطق معسكراتهم مدن يعتمدون عليها ويرتكزون فيها ، أو أن المدينة الموجودة لا تتناسب والأوضاع العسكرية المعاصرة .

ناهيك عن أن القواد أنفسهم كانوا يحرصون أشدّ الحرص على وضع حجر أساس لأعمالهم الحربية وفتوحاتهم الظافرة ، ونقطة انطلاق فكري وإشعاع ديني لمبدأ الجهاد الذي خرجوا من أجله [1] . كما كانوا يلمسون رغبة العديد من الجنود في الاستقرار في المناطق المفتوحة ، ليتبوّأوا مرابعهم التي كسبوها ، وينهلوا من نتائج أعمالهم ، ويكونوا مرشدين للدين الجديد الذي يحملونه في صدورهم .

---

١ لما استولى المسلمون على ثغر الأبلة ، استعاده الفرس فأرسل سعد عقبة بن غزوان مع فصيلة عسكرية تمنع الفرس من الهجوم على الأبلة .فعسكر المسلمون سنة ١٦ في موضع البصرة ، وفي سنة ١٧ بنيت المدينة .

البحر الأبيض المتوسط
دمياط
رشيد
الإسكندرية
شبرا
دمنهور
سلطيس
طنطا
سخا
بلوز (الفرما)
من العريش إلى رفح
سيناء
مجدل
كوم شريك
منوف
نقيوس
أتريب
ترنوط
بلبيس
عين شمس
الفسطاط
أم دنين
بابليون
منف
بحيرة قارون
البهنسا
الفيوم
.... حملة عمرو بن العاص
في مصر

أهم المناطق التي جابها عقبة

في

ليبيا

البحر الأبيض المتوسط
تونس
الجزائر
مصر
السودان
فزان
غدامس
درج
ودان
هون
سوكنة
سبهة
جرمة
زويلة
مرزق
غات
أوجلة
جغبوب
الجوف
أجدابية
العقيلة
برنيق
توكرة
المرج
البيضاء
درنة
طبرق
مساعد
سرت
مصراتة
زليتن
مزدة
جادو
شروس
زوارة
صبراتة
طرابلس

البحر الأبيض المتوسط

بنزرت
طبرقة
بجاية
قرطاجنة
تونس
سوسة
القيروان
زغوان
باغاية
قمونية
قفصة
تهوذة
الجزائر
صفاقس
شط الجريد
قابس
جزيرة جربة
ليبيا

تونس

إفريقية

«والمدن التي دخلتها الجيوش المسلمة أو بنتها»

ومن الطريف أن يكون أغلب أسماء هذه المدن غير عربي . فمعنى «البصرة »[1] بعد الطريق ، وهي لفظة فارسية مركبة من : پس بمعنى بعد ، وراه بمعنى الطريق وسنرى الآن معنى « الفسطاط » ، وسنرجىء معنى « القيروان » إلى حينه .

أما « الفسطاط » فلفظ أعجمي . يقول الفيروزآبادي : « والفسطاط : بالضم مجتمع أهل الكورة ، وعلَم مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص . والسّرادق من الابنية ، كالفُسْتاط والفُسّاط والفُستات ، ويُكسرْنَ (أي تكسر الفاء فيها جميعاً) » . والفسطاط مجتمع أهل الكورة حوالي مسجد جماعتهم . يقال : هؤلاء أهل الفسطاط . وفي الحديث : « عليكم بالجماعة ، فإن يد الله على الفسطاط » ، يريد المدينة التي يجتمع فيها الناس . وتأتي بمعنى مجمع الخيام المنصوبة[2] . وكل مدينة فسطاط[3] .

يقول Betler بتلر : إن لفظ الفسطاط مأخوذ من اللفظ اللاتيني fossatum ، ومعناه في لسانهم : المدينة المحصنة أو المعسكر ، وقد أخذ العرب الكلمة عن الروم في بلاد الشام ، قبل أن يدخلوا مصر .

وعلى هذا فمعنى اللفظة الأصلي مطابق للمعنى الذي أخذه العرب عنهم ، الا وهو المعسكر أو المدينة المحصنة . أما قولهم : « حوالي مسجد جماعتهم » فهو الذي تصرّف في معناه المسلمون .

---

١ أما الكوفة ، فمعناها الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تخالطها حصباء .

٢ جاء في كتاب أسد الغابة والكامل أثناء الحديث عن حملة عكرمة : « فقاتلوا قدام فسطاط خالد ابن الوليد حتى أثخنوا جميعاً جراحاً . . » .

٣ لسان العرب – تاج العروس – معجم البلدان .

قصة بنائها :

عندما أجمع عمرو بن العاص وصحبه على المسير إلى الاسكندرية بعد فتح حصن بابليون أمر بفسطاطه أن يقوَّض . فإذا يمامةٌ قد باضت في أعلاه . فقال : « لقد تحرّمت بجوّارِنا . أقِرُّوا الفسطاط حتّى تَنقُفَ وتطيِّر فراخها » . فأُقِرَّ فسطاطه، ووكّل به من يحفظه أن لا تُهاج ! ومضى إلى الاسكندرية وأقام عليها ستة أشهر (وفي رواية : سبعة) ، حتى فتحها اللهُ عليه .

تلك هي نواة القصة التي بُنيت عليها قصة « بناء الفسطاط » . والرأي في نظرنا ــ ولا نتجرأ على الطعن في إنسانية عمرو ، أو أن نشكّك في صحة القصة ــ أن عمراً أراد جعل الاسكندرية عاصمة ولايته الجديدة ، كما كانت قبله . فكتب إلى أمير المؤمنين في المدينة يستأذنه في سكناها ، فجاءه السؤال الحكيم الذي عوّدنا على أمثاله عمرُ بن الخطاب لتخوفه على جنوده ، وكأنهم أبناؤه :

« وهل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » .

فكتب عمرو :

« نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل – أو فاض – »

فردّ عمر جوابه العسكريَّ الإداري :

« إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا في صيف »[1] .

---

[1] رواية ياقوت : « لا تنزلن بالمسلمين منزلا يحول بيني وبينهم نهر ولا بحر» . وفي حكاية =

ولعل عدم تملك العرب للأساطيل والسفن التي تسهّل عليهم الاتصال ، وصعوبة عبور نهر النيل في أغلب أشهر السنة ، وخاصة أيام الفيضان ، هو الذي حَدا بعمر بن الخطاب إلى أن يُحجم عن الإبقاء على الاسكندرية عاصمة . وآمن عمرو باقتراح عمر ، وراح يبحث عن المكان المناسب . فسأل أصحابه الأدنَين :

– أين ننزل ؟

قالوا له :

– نرجع أيها الأمير إلى فسطاطك .

فرجعوا ، وجعلوا يقولون :

– نزلتُ عن يمين الفسطاط ، ونزلتُ عن شمال الفسطاط .

فسميت البقعة بالفسطاط لذلك . ولم يمانع عمرو بن العاص من أن يغرز رايته في الرمال المحيطة بحصن بابليون ، ويخطط للبناء هناك ، فسميت المحلة بمحلّة الراية . وكانت البقعة سهلاً ، وقريبة من النهر ، وكثيرة العطاء . وقد سعى عمرو إلى أن يختار منطقة غيرَ مأهولة بالسكان ، حتى لا يتأثر أهل البلاد من البناء والتوسع ، ولا يستعظموا كثرة القاطنين .

وهكذا شرع ببناء الفسطاط سنة ٢١ هـ . ولكن المسلمين أخذوا يختلفون في المواضع ، ويتنافسون على الجيد منها . فاضطر عمرو عندئذ إلى تأليف

= بناء الكوفة بعث عمر إلى سعد بن أبي وقاص يقول : « ابعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان رائدين ، فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم بحر ولا جسر » . فاختار منطقة الكوفة ، فانتقل إليها سعد وجعلها معسكره . وكانت في البدء من الخيام ، ثم من القصب . ولما أحرقت سمح عمر للمسلمين بالبناء والمسجد الجامع في الوسط .

لجنة تخطيط يتولاها : معاوية بن حُديج ، وشريك بن سُمي ، وعمرو بن قلزم ، وجبرئيل بن ناشرة المعافري . فكانوا هم الذين نزّلوا القبائل ، وفصلوا بينهم[1] .

ويحكى أن الأقباط هم الذين بنوها لهم ، كما أنهم ساكنوهم بها ، واندمجوا بالمسلمين ، وتطبعوا بعاداتهم . . ولهذا توسعت المدينة وكبرت .

ومن الأبنية التي أشادها عمرو ، دار لعمر بن الخطاب ، يحلّ بها لدى زياراته لمصر . وكتب إليه :

« إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع » .

ولكن عمر ، الذي لم تغرّه الحضارات الجديدة – شرقاً أو شمالاً أو غرباً – ، ولم يتطبّع بالأبهة التي شاهدها بالشام أو سمع عنها بالعراق ، لم يرُق له ذلك المنزل الجديد في المدينة الجديدة . فأجابه :

« أنّى لرجل بالحجاز أن تكون له دار بمصر ! » .

وأمره أن يجعل الدار سوقاً للمسلمين ، فنفذ عمرو أمره[2] . وقد ظلت الفسطاط عاصمة البلاد إلى أن جاء « أحمد بن طولون » ، فبنى القطائع[3] .

جامع عمرو :

بنى عمرو أوّل ما بنى « المسجد الجامع » ، وبعد ذلك أخذ المسلمون

---

١ معجم البلدان – فتوح البلدان .

٢ معجم البلدان .

٣ أحمد بن طولون : مؤسس الدولة الطولونية في مصر التي حكمت خمسين سنة تقريباً . وهو أول ولاة مصر والشام المستقلين إلا بالاسم . أنظر تفصيل ذلك في كتابنا « حول الأدب في العصر السلجوقي : ٢٠ نشر مكتبة قورينا .

في بناء منازلهم ومساجدهم . والقواد أوّل بناء يشيدونه هو المسجد الجامع ، لأنهم فيه يجتمعون بالمسلمين ، ويأتمرون ، ويخطبون ، ويعطون الأوامر[1] .

كان موضع هذا الجامع « جبّانة » حازَ موضعَها « قَيْسَبَةُ بن كُلثوم التجيبي » ، ونزله . فلما ربعوا من الاسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسبةَ في منزله هذا أن يجعله مسجداً فتصدّق به قيسبةُ على المسلمين .

يذكر ياقوت أن طول المسجد خمسون ذراعاً ، في عرض ثلاثين ذراعاً . وبنى فيه منبراً يرقاه حينما يريد أن يخطب في المسلمين . ولكن عمر بن الخطاب ساءه أن يبني عمرو « المنبر » ، فأرسل له :

« أما بعد ، فإنه قد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به فوق رقاب المسلمين . أمَا حسبُك أن تقوم قائماً ، والمسلمون تحت عقبيك ! ! فعزمت عليك إلاّ كسرتَه » .

فكسره عمرو ، وأزاله . ويكفي هذا المسجد فخراً أنه وقف على قِبلته ثمانون من الصحابة الكرام ، وأنه أوّل جامع في الإسلام . في شمال إفريقية كله .

ولمّا تسلم ولايةَ مصر مسلمةُ بن مخلد الأنصاري سنة ٥٣ هـ من قبل معاوية ، بيّضه ، وزخرفه ، وزاد في أرجائه ، وأبّهته ، وكثّر مؤذنيه .

إصلاحات أخرى :

لم يكن اهتمام عمرو منصباً على الفسطاط وحدها ، بل كان يأمل بإصلاح الأوضاع العامة كلها ، التي نجمت عن الحرب وطرد الرومان ، ويعمل على إرضاء المصريين ببناء الجسور ، وتعبيد الطرق من دون أن يزعجهم

---

[1] جعل سعد بن وقاص القصر الأبيض بالمدائن العليا مسجداً ، وصلى به أول جمعة سنة ١٦ هـ .

بطلب أو يرهقهم بضرائب . ومن أهم ما قام به من إصلاحات بناء الخليج الذي يصل النيل بالبحر الأحمر سنة ٢٣ هـ . وقد بلغ طول القناة ستين ميلاً ، وسمى الخليجَ « خليج أمير المؤمنين » .

عام الرمادة :

لم ينقطع عمرو بن العاص عن المدينة وعن أمير المؤمنين ، كما يتبادر إلى الأذهان ، كما كان حريصاً جداً على تلبية طلبات عمر ، وخدمة المسلمين داخل مصر وخارجها ؛ ففي سنة ١٨ للهجرة حصل قحط عظيم في الحجاز [١] دام تسعة أشهر ، وقد سُمّي هذا العام « عام الرمادة » [٢] ، لأن الريح كانت تسفي تراباً كالرماد . فاشتد الجوع على مرّ الأيام . ورافق عامَ القحط طاعونُ « عَمْواس » الذي فشا في فلسطين . فسدّت سبل العيش على المسلمين في الجزيرة ، وبدأ ينضب الغذاء في منازلهم .

فكتب عمر إلى الأمصار ، يستغيثهم ، لمساعدة أهل المدينة وما حولها . وكتب إلى عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي . سلام عليك ، أما بعد ، أفتراني هالكاً ومَن قِبَلي ، وتعيش أنت ومَن قبلك ؟ فيا غَوثاه ، يا غوثاه ، يا غوثاه .

فردّ عليه كتاباً وعملاً ، فقال :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن

---

١ تاريخ الطبري : ٤/٢٢٢ .
٢ الكامل : ٢/٥٥٥ .

العاص . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو . أما بعد ، أتاك الغوث ، فلبِّث لبِّث ، لأبعثنَّ إليك بعيرٍ أولها عندك ، وآخرها عندي . مع أني أرجو أن أجد سبيلاً أن أحمل في البحر » .

فبعث في البر بألف بعير تحمل الدقيق ، وبعث في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والدهن ، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء[1] .

تباهيه بالعرب :

ومن صفاته التي امتاز بها حرصُه على إبراز العرب بالمظهر المشرّف بين سكان مصر ، وغيرتُه على سمعتهم العسكرية ، ومدى تجاوبهم مع البيئة الجديدة التي انتقلوا إليها . فقد حضرتِ القبطُ باب عمرو ، وبلغ عمراً أنهم يقولون : « ما أرثَّ العربَ ! ما رأينا مثلنا دانَ لهم » . فخاف عمرو أن يطمِّعهم ذلك ، فأمر بجُزُرٍ فطبخت ، ودعا أمراء الأجناد ، فأعلموا أصحابهم ، فحضروا عنده ، وأكلوا أكلاً عربياً ؛ انتشلوا وحسَوا ، وهم في العباء بغير سلاح ، فازداد طمعُهم .

وأمر المسلمين أن يحضروا الغدَ في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، ففعلوا . وأذنوا لأهل مصر ، فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس . وقام عليهم القُوّام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر فارتاب القبط .

وبعث أيضاً إلى المسلمين : « تسلحوا للعرض غداً » ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم وقال لهم : « علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب ، فخشيت أن تهلكوا ، فاحببت أن أريكم حالهم . فقد رأيتم ظفرهم بكم ، وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني ، فأردت أن

---

[1] تاريخ الأمم والملوك : ٤/٢٢٢ .

تعلموا ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ، وراجع إلى عيش اليوم الأوّل » .

فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برَجلهم . وبلغ عمر ذلك فقال : « والله إن حربَه لليّنة ، ما لها سطوة ولا سَورة كسَورات الحروب من غيره[1] .

وأمره شورى :

رأينا من كل ما سبق ، أن عمرو بن العاص كان على اتصال وثيق بالمدينة ، وأن المراسلات بينه وبين أمير المؤمنين تترى . يسأله في كل أمر ، ويستحكمه في كل معضلة ، خوفاً من أن يتّهم بالانفراد في الرأي ، وحرصاً على إيصال الحق إلى أهله . وتلك خَصلة قلّما اتبعها ولاةُ الأمصار ، على الرغم من اتهامهم إياه بالتسلط في أمر مصر ، والتفرّد في القضاء .

ومن جملة استشاراته التي لم تر طريقها ضمن الباب ما جرى بينه وبين الزبير بن العوام بعد فتح مصر . فقد طالبه الزبير بتقسيم الأراضي على الأجناد ، ليأخذ كلٌّ حصته من الغنائم ، معتبراً البلاد المفتوحة جزءاً منها . وقال له الزبير :

ـ والله لتقسمنّها كما قسم رسول الله خَيبر .

فكتب عمرو إلى عمر يستحكمه في هذه القضية ، مُبيناً فداحةَ رأي الزبير . فكتب إليه عمر أن يبقيها ولا يقسمها[2] . ولو أنه فعل لضاعت مصر مزعاً بين الناس ، ولحلّت الفوضى .

---

١ الكامل : ٥٦٦/٢ .

٢ الخراج : ١٦٧ .

ومن ذلك أيضاً عندما اعترضته مشكلة طلب استرداد السبايا التي جنَوها من مصر . فقد روى زياد بن جزء الزبيدي — وكان من جند مصر — قال :

« لما انتهينا إلى بلهيب ، وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن ، أرسل صاحب الاسكندرية إلى عمرو ، وسأله في رد السبايا ، وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا ، فقرأه عمرو بن العاص ، وفيه :

« أما بعد : فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية ، على أن تردّ ما أصيب من سبايا أرضه . ولعَمري لجزيةٌ قائمة تكون لنا ، ولمن بعدنا من المسلمين أحبّ إليّ من فيء يقسم ، ثم كأنه لم يكن . فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية . على أن تخيِّروا مَن في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه ؛ فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم . ومن اختار دين قومه وضعَ عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . فأمّا مَن تفرّق من سبيهم بأرض العرب ، فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردّهم ، ولا نحب أن نصالحهم على أمرٍ لا نفي به »[1] .

وبعدُ ، فلو كان عمرو متشبثاً برأيه ، متزعماً في حكمه لما أكثر من الاستشارات ، ولما طالب عمر بإبداء رأيه في كل قضية ، والعمل بمقتضى ما يأمر به . ولكن كتب التاريخ تتجنى على بعض رجالاتنا حيناً ، وتتهاون في حق الآخرين حيناً آخر .

---

١ مجموعة الوثائق السياسية : ٣٨٩ .

الفصل الثاني

عُقبة بن نافع
وفتح ليبيا

عُقبة بن نافع

اسمه ونسبه :

لا يمكن لأي أديب أو مؤرخ أن يدرس عَلماً من الأعلام العرب إلاّ أن يستوثق من القبيلة التي نشأ فيها هذا العَلم . لتنبسط أمامه المؤثرات الداخلية والنفسية ، وتتضح له العوامل الخارجية والبارزة . وعليه أيضاً أن يتعمق في ماهية جذوره ، ونوعيةِ بيئته ، ومكانة جدوده .

وقد تنبّه العرب إلى هذه الخصيصة ، فأولوها رعايتهم ، ووجهوا إليها عنايتهم ، بأن حفظوا أنسابهم ، وحافظوا على أسماء جدودهم ، وافتخروا بذلك . وكان هذا الافتخار سبباً في ظهور علم الأنساب عند العرب .

وقلة العناية بأنسابنا اليوم — والأمس غير القريب — هي التي جرّت هذا العِلم إلى متاهات النسيان ، وجعلته بعيداً عن الأذهان . وهو علم نفسي أصولي ، يساعد على معرفة مكانة الفرد ، ويُسهم في التوضيح عن مؤثرات نشأته ، ومسبّبات مكانته .

وإذا اكتفى الإنسان اليوم بمعرفة أسرته ، وبحفظ جدّ أو جدّين على الأكثر ، فإن العربي — الصحراوي خاصة — حافظ على الأسماء ، وورّثها لمن بعده مع ما يورّثه ، لأن ذلك مفخرة له واعتزاز . ولو أن القدامى لم يعتبروه اعتزازاً ، لما انتحله أشخاص كثيرون ، وأغلبهم من غير العرب .

ولأجل هذا ، ولكي نعرّف بعقبة بن نافع خير تعريف ، علينا عبء

ثقيل ، وواجب محتوم . فإن يسّر الله علينا كشفه وازاحته سهل على القارىء معرفة مكانة هذا « الإنسان الجليل » . واتّضحت له العوامل النفسية والبيئية التي أثّرت في خضمّ حياته الطويلة .

فهو عقبة بنُ نافع [1] بنِ عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن عائش ابن ظرب [2] بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي الفهري [3]. نشأ في بطن من بطون قريش . والبطون القرشية تتفاوت في الضعف والقوة ، والقلة والكثرة . ولكن البطون التي انتهى إليها الشرف – كما يقول النسابة الكلبي – عشرة اتصل شرفها في الجاهلية والإسلام ، وهي :

هاشم . أمية . نوفل . عبد الدار . أسد . تيم . مخزوم . عدي . جُمح . سهم [4] .

ثم إنه يلتقي بالجد العاشر للرسول (ص) فما بعده . ونسب الرسول كما أورده ابن هشام هو : محمد بنُ عبد الله بنِ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان [5] .

---

١ وقيل جاء في أسد الغابة : ٤١٦/٣ : « وقيل ابن رافع » . ويقول ابن الأثير : « والظاهر أنهما اثنان : عقبة بن رافع وعقبة بن نافع » . ويقول : « وعقبة بن نافع أشهر من أن يشبه نسبه بغيره . وقد ذكر في كثير من التواريخ والسير ، ولم أر أحداً شك في نسبه واسمه نافع » . (كامل : ٤٢٦/٣) .

٢ ابن ضرب ، في جمهرة أنساب العرب : ١٧٦ .

٣ لم يرد اسم « عامر » في نسب قريش .

٤ عمرو بن العاص : ٥ .

٥ انظر الصفحات الأولى من سيرة الرسول لابن هشام .

فأرومة عقبة تلتقي بأربعة جدود من جدود النبي . وإذا علمنا أنه افتخر أيضاً بالنسب إلى أمية ، انضمت لنا الأصالة التي تحلّى بها عقبة ، وبالعَراقة التي انتسب إليها :

والفهريون آخر بطون قريش[1] ، انتهى إليهم شرف الحرب والقوة قبل الإسلام ، وشرف الجهاد في سبيل الله بعد الإسلام . ومن أبرز الفهريين : أبو عبيدة عامر بن الجراح — أحد العشرة[2] — والضحاك بن قيس الفهري ، وأبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري . والفهريون من أكبر القبائل التي سافرت إلى الأندلس بعد الإسلام وبعد فتح شمال افريقية ، وأسست دعائم الحكم الإسلامي فيها .

غير أن التاريخ سكت عن مهمّة بني فهر في الجاهلية ، واكتفى بالإشارة إلى الحرب والغزوات . وهذا لا يكفي ؛ فلكل بطن من بطون قريش عمل اختصت به ، وتفرّدت به دون زميلاتها . وذكرنا في معرض حديثنا عن نسب عمرو بن العاص أن السهميين من بني قريش كانوا أصحاب الحكومة والقضاء . ولعل التاريخ اكتفى بذكر ما برز به الفهريون ، ونكاد نصادق على ذلك إذا علمنا أنهم كانوا من خيرة الجنود القواد بعد الإسلام ، وأنهم شاركوا بني أمية في قيادة الجيوش ، وفتح الفتوح ، والجهاد في سبيل الله .

هذه البيئة العسكرية ، وهذا الجوّ الحازم ، وهؤلاء الأقربون المناضلون

---

١ جاء في حاشية السيرة : ١/١ معتمداً على شرح المواهب اللدنية : ١/٧٥ أن فهراً اسمه قريش ، وإليه تنسب القبيلة . وقيل : بل فهر اسمه ، وقريش لقب له . وقد روي عن نسابي العرب أنهم قالوا : من جاوز فهراً فليس من قريش .

٢ الطبقات الكبرى : ٣/٤٠٩ . تقول الكتب إن نسب أبي عبيدة يلتقي بنسب رسول الله (ص) بـ « فهر » . انظر : جوامع السيرة : ٢ . البدء والتاريخ : ٥/٨٧ .

– بالإضافة إلى عمرو بن العاص على ما سنرى – كل هذا خلق في نفس هذا الفتى المسلم كفاءة نادرة ، قوّت من عُوده ، ومتّنت من كفه ، وألهبت من عنفوانه ، وهيّأته لمجدٍ عسكري قادم . . ليُعدّ – فيما بعدُ – من قادة الفتوح في الإسلام ، والقائد الأوّل في شمال إفريقية .

فبيئة عقبة عربية خالصة ؛ فهو نشأ وسط الصحراء ، ورضع لبان الإبل ، وشرب ماء واحات العرب .

أبوه :

هو نافع بن عبد القيس الفهري .

كان ممّن نخَس[1] بزينب بنت رسول الله (ص) لمّا توجّهت مُهاجرةً إلى المدينة المنوّرة ، فأفزعها ، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها بعد أيام[2] . يدل هذا العمل الشنيع على شدة حقد نافع نحو الإسلام ، ومعاصرته لهجرة الرسول وأهله وصحبه . كما يدل على مكانته بين قومه ، ولولا هذا لما تجرّأ أن يفعل فعلته ، ويتهجّم على الحرائر .

ويُروى أنه مات قبل فتح مكة مُشركاً . وفي رواية أنه أعلن إسلامه ، وعاش إلى خلافة عثمان[3] ، واشترك في عدة غزوات . فعقبة على هذا في الرواية الأولى نشأ يتيماً ، وأسلم من ذات نفسه ، وفي الرواية الثانية أسلم بإسلام أبيه .

---

١ نخس : نخز .

٢ يقال إن الذي نخزها بالرمح هو الهبار . ونافع كان من جملة المعترضين من بني قريش . انظر تفصيل الرواية في أنساب الأشراف : ٣٩٧/١ .

٣ الاصابة : ٨١/٥ . أنساب الأشراف : ٣٩٧/١ .

أمه :

لم تحدثنا كتب التاريخ شيئاً ذا بال عن « أمه » وأخواله ، ولم تُعلمنا عن مكانتهم أمراً . وجلُّ ما قيل مضطرب ، وكل الآراء تربط نسب عمرو بنسب عقبة من جهة الأم .

فرواية تقول : هو أخو عمرو لأمه « النابغة » ، التي كانت سبيّة من عَنَزة ، وكانت تغنّي بين القبائل . . ولا ندري مدى صحة قولهم هذا . ونحن نستبعد هذا الرأي ولا نقبله ، وخاصة إذا علمنا أن عمراً أكبر سناً من عقبة بما يزيد عن عشرين سنة . بل إن عبد الله بن عمرو كان يكتب ما يسمع عن الرسول من أحاديث[1] ، في حين أن عقبة – عمّه على هذه الرواية – كان طفلاً يحبو أو يخبط في مشيه . ولم يروَ أن « النابغة » تزوجت غير الثلاثة (الفاكه بن المغيرة ثم عبد الله بن جدعان ، وانتهت إلى العاص) .

ورواية ضعيفة أخرى تقول : إن عمراً خاله . وتُرفض هذه الرواية من أساسها ، لأن النسب يخالف الخؤولة ، والكتب تقول غير هذا . ورواية ثالثة تذكر أنه ابنُ أخي العاص لأمه[2] .

أما الرواية التي نرجحها ، ونرى بها رأينا أنه ابنُ خالته[3] . ولكن كيف جرت هذه الصلة ؟ نقف حيارى أيضاً ! ! فأم عمرو سبيّة كما ذكرنا ، وهي سلمى بنت حرملة الملقبة بالنابغة ، أصابتها رماح العرب

---

١ روى البخاري عن أبي هريرة قال : « ما من أحد من أصحاب النبي (ص) أكثر حديثاً عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » .

٢ سير أعلام النبلاء : ١/٣٤٩ .

٣ أسد الغابة : ٣/٤٢٠ .

فبيعت بعكاظ ، فاشتراها . . . إلى آخر ما كنا ذكرناه في مطلع حديثنا عن عمرو بن العاص .

تُرى أكانت الأخت شبيهة بأختها النابغة « تؤجر للغناء ؟ » أحترفت أم عمرو الغناء بعد السبي مضطرة في حين أن أختها ظلت في بيت ذويها ؟ أكانت سبية هي الأخرى ، فأصابها ما أصاب النابغة ؟ أم أنها خُطبت وزُفت إلى نافع الفهري بكرامتها ؟ لا نعلم .

وأياً كان الثلب والقدح بأمّيهما ، فإن العرب تفخر بالأب ، وتنتسب إلى قبيلته . وأياً كان الأمر ، فإن عقبة يتصل بعمرو بن العاص بقرابةٍ ذاتِ فرعين ؛ الأولى القرابة القرشية ذاتِ الشرف الأكبر في الجزيرة ، والثانية هي قرابة الأم .

وقد ربطت هذه القرابة الشخصين إلى بعضهما ، فأنشأتهما نشأة متقاربة ، وعملت على استفادة عقبة من ابن خالته الكبير عمرو في كثير من الأمور والصفات ، وقادت الاثنين في مسيرة واحدة ، واشتراك في مصير واحد . هو مصير الجهاد في سبيل الله . في مصر ، وفي شمال افريقية .

ولادته ونشأته :

هناك روايتان تدلاّن على سنة مولده . تقول الأولى إنه ولد قبل وفاة النبي (ص) بسنة واحدة أي سنة ١٠ للهجرة ، وهذا مستحيل طبعاً ، لأن عقبة شارك عمراً في فتح مصر الذي بدأ سنة ١٨ هـ ، وذهب لفتح برقة وزويلة سنة ٢٠ أو ٢١ . ويعني هذا أن عمره آنئذ كان بحدود العشر سنوات ، وهذا ما لا يقبله العقل والمنطق .

والرواية الثانية ، مقبولة ، ومتناسبة والوقائع التاريخية التي بين أيدينا .

تقول الرواية إنه ولد سنة ٦٢١ م أي قبل هجرة الرسول (ص) بسنة واحدة . إذا قارنّا هذه السنة بسنة ذهابه إلى مصر وضح لنا أنه ذهب إليها وهو في عقده العشرين ، وهذا مقبول قطعاً .

فعلى هذا يتضح أن عقبة ولد في عهد الرسول[1] ، ونشأ في مكة . فيعدّ من فتيان الإسلام الأوائل ، الذين ولدوا مع الإشعاع الذي أنار الجزيرة العربية ، ونشأوا في أحضان الإسلام نهضة صالحة أثبتت نتائجها في ليبيا والمغرب ، وهي نهضة لم تشُبها شائبة الجاهلية . وكأننا في قولنا هذا نعلن عن أن نافعاً أباه أسلم في إبّان حبوِ ابنه عقبة ، ونستبعد هذا أيضاً ، لأن زينب بنت الرسول هاجرت قبل هجرة أبيها ، ونخزها نافع ، فكيف يسلم وينخز في عام واحد ؟ إلاّ إذا حطّت العناية الإلهية أجنحتَها فجأة على قلب والد الطفل البريء ، أو أنه قُبض وهو في الجاهلية ، فنشأ يتيماً — كما ذكرنا — ، فهداه أحدهم هداية نصوحاً .

فإذا تذكرنا أن أرومة عقبة عربية نجيبة ، وقرابته بالرسول وبعض صحبه — كعمرو وأبي عبيدة — وطيدة ، وإذا لم يغرب عن بالنا أن الفهريين امتازوا بالروح الحربية ، وإذا اتّضحت لنا مسألة نشأته الإسلامية ، وأنه ولد مع نهضة فكرة الجهاد ، تبين لنا أن عقبة نشأ في بيئة عسكرية ذات طابع إسلامي ، وتطعّمت نشأته بأفضل ما تتطعّم به أولى حيَوات الشباب المسلم .

كل هذا أثر في حياته الأولى ، ووجّهه وجهة خالصة لله تعالى ، وطبع مواهبه بالتمسك بالروح العسكرية. ليكون من أبرز الناشئين في عهد فجر الإسلام ، وأحد الأبطال المجاهدين في سبيل الله .

---

١ أسد الغابة : ٣/٤٢٠ .

صحبته وإسلامه :

أغلب كتب التراجم والسير تصرّ على أن عقبة بن نافع « لا تصحّ له صحبة »[1] . ومؤلف الإصابة يرى أنه لا صحبة له كما لا يصلح لأن يكون صحابياً . وعلة ذلك في نظرهم صغر سن عقبة . ولا بأس من دراسة هذه الفكرة ومناقشتها على ضوء العقل .

فلقد رأينا أن عقبة ولد قبل الهجرة بسنة واحدة ، وذكرنا أن الرسول (ص) توفي سنة ١١ هـ ، أي حين كان عمر عقبةَ اثنتي عشرة سنة . ولا تكفي هذه السن لأن يعيَ الطفل واقع الإسلام ووقائع الرسول . ولهذا — أيضاً — لم يشترك في أيٍّ من غزوات الرسول ، لأن السن التي كان يُسمح فيها باشتراك المبرّزين من الفتيان كانت الخامسة عشرة فما بعد .

ونرجح ألا يكون عقبة قد دخل في الإسلام في هذه السن ، إلاّ إذا كان والداه مسلمين ، فأنشآه تنشئة صالحة ، وعوّداه على ما يجب أن يعتاده الطفل المسلم . وأياً كان الأمر فإن عقبةَ صحابي بالمولد والطفولة ؛ فقد ولد في عهد الرسول ، وترعرع في عهده بعد الهجرة ، ولعله رآه غير مرة . وعمر بن الخطاب كان لا يعين قواده — وهذا رأي الالواء الخطاب أيضاً — إلاّ من الصحابة ، كما لا يرضى أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي . ونعلم أن عقبة عين قائد الفتح لبرقة وزويلة والنوبة في عهد عمر ، وكان في جيشه عدد من الصحابة .

وكان حسنَ الإسلام منذ إعلانه ، دليلنا على ذلك ، أنه لم يُعرف عنه أنه ارتدّ أو شكّ ، وأنه كان أحد أوائل الفتيان الذين نذروا أرواحهم

---

١ أسد الغابة : ٣/٤٢٠ . الاستيعاب : ٣/١٠٧٥ . الاصابة .

في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى في أرض بكر ، وقصَرَ نفسَه ونذرها لنشر الدين فيها . وعلى هذا كان أوّل مجاهد يدخل أرض برقة ، ويدعو فيها إلى الإسلام .

وحبه للإسلام جعله يبتعد كل البعد عن كل الحركات والفتن والقلاقل التي جرت في عهده . فقد صار جندياً في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ويزيد ، ولم يتدخل في فتنة عثمان ، ولا في ترجيح علي (رضي) ، ولا في لعبة عمرو بقصة الخلع . ولهذا لم يفكر في عزله أحد من هؤلاء ، بل ظل في بلاده – ليبيا – يدعو إلى الحق ، ويحثّ على التمسك به ؛ يشرح ويفقّه آناً ، ويجاهد ويحارب المرتدّين آناً آخر . . . إلى أن غدت البلاد كلها مسلمة كأحسن ما يكون الإسلام .

وهو ، إذا لم يوفق بالاشتراك في غزوات الإسلام الأولى لصغره ، ولم يكن له نشاط ملموس في الحجاز للسبب ذاته ، فإنه أجاد في غزواته ، فيما بعد ، وعوّض عمّا سلف ، حتى عُدَّ أحد كبار المجاهدين في الإسلام ، وأوّل مجاهد في شمال إفريقية .

بين عقبة وعمرو :

ذكرنا في معرض حديثنا عن « أمه » صلةَ النسب التي ربطت بين هذين المجاهدين ، وأشرنا إلى أثر البيئة والقرابة في حياة عقبة من الوجهتين العسكرية والإسلامية . بقي أن نتوقف وقفة أخرى ، نستوضح الأحداث بعض الأمور ، ونستشفّ منها أسبابَ التحام الوشائج بين هذين القائدين .

كتب التاريخ والأنساب كلها تقول : كان عمرو كثير الاعتماد على عقبة في فتوحه . فمتى كان هذا ؟ وإلى ماذا ألمحت هذه الكتب ؟ .

لم نعرف ذكراً لإخوة عقبة ، فلعله أكبرهم أو خمل اسمهم ، أو لعله أصغرهم ولم يكن لهم مكانة .. والغالب أنه نشأ وحيداً . . إلاّ من ابن خالته الذي كفل نشأته العسكرية .

ولكن . . لماذا اختار عمرو عقبةَ في أهم غزواته ؟

تكتفي كتب التاريخ بقولها : اختاره لقرابةٍ بينهما . ولكن هل من المعقول أن يتورّط عمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر ، والحريص على وضع اسمه في مصاف أبطال الجهاد الأوائل كخالد وسعد وأبي عبيدة ، بل الذي يرفض إلاّ أن يكون أسمى منهم ، بأن يعين هذا الفتى الأمرد لخوض فتح جديد يتهيبه كبار القواد ، نقول : هل من المعقول أن يتورّط عمرو في تعيين عقبة لمجرد كونه ابنَ خالته ؟ أو ليس فيه من الصفات سوى أنه قريبه ؟ !

إنه لا يريد أن يودي بسمعته ، ويجعل اسمه لَوَاك الألسن ، ومحطّ الأنظار تحدجه أو تحسده أو تكيد له أو تتربص لأخطائه . . وهو هو الداهية ، وهو هو الذي يقدّر قيمة الأخطاء ! .

لو أنه عينه على قرية أو مدينة ، أو طلب إليه الاشراف على بعض شؤونه ، أو وظّفه وظيفة يسهّل عليه فيها كسب المال والجاه بأقرب السبل كرامةً لخالته العزيزة عليه . لو أنه فعل شيئاً من هذا لهان علينا الأمر ، وقلنا : حرصَ على ابن خالته الصغير .

ولكنه يختاره لأمر صعب ، ليس واقعةً في مصر على مرمى بصره ، ولا غزاةً تسهل عليه نجدته ، بل اختاره في مهمتين ؛ الواحدة في أقصى الجنوب وهي النوبة ، وهو أوّل مسلم يبلغ تلك الأعماق السحيقة ، والثانية إلى أقصى المغرب ، وهو كذلك أوّل مسلم يخوض فيها المعارك ، ويرفع

فيها لواء الإسلام الخفّاق . بعثه إلى تينك البقعتين الجديدتين على المسلمين . . وهو يعلم أنه الرائد الأوّل فيهما ، وطلب إليه أن يلمّ في ريادته هذه على إمكانيات الأرض ، ومكانة العدو بعد أن يتعمّد الاصطدام بهم ويستبرَ غورهم .

ثم هل كان عقبة وحده في جيش المسلمين من رحم عمرو ؟ أكيداً لا . إذاً هناك شيء آخر غير قرابته – بل أسمى منها – ، شيء يشجع هذا الداهية على إسناد أصعب المعارك إلى هذا الفتى ، ويجعله مطمئناً تمام الاطمئنان إلى رحلتيه ، ويقتاد خبرته في ريادته التي قام بها إلى برقة وزويلة ، ويدخلها وكله ثقة في ما أوصل إليه من المعلومات .

فما هو هذا الشيء ؟

إنه الروح العسكرية التي تمثّلت في شخصية عقبة منذ أن انضوى تحت لواء جيش المسلمين معلناً الجهاد في سبيل الله ، وفدائيته التي عُرف بها ، وجرأته في خوض المعامع ، واستهانته بالموت في سبيل النصر – وهي صفات تعجب القائد البصير ، وتجبره على إدامة النظر إلى هذا الفتى الناشيء الذي يتخطّى المهالك ، ويقطع المسالك ، لا يسأل على ذلك أجراً سوى النصر . إلى مثل هذا يجلب القائد ، ويحدوه للاعتماد عليه ، والاستيثاق منه . واختياره لمثل هذه المهمة يدل على ذكاء عمرو وعمق دهائه .

ولا جَرَمَ أن عقبة ذكي ، ولعله استخدم ذكاءَه هذا في لفتِ انتباه رئيسه ، لينال لديه حظوة أو ترقية . وقد حصل ، فنال شرف فتح شمال افريقية كله ، وحاز لقب « قاهر الروم » وخطا في سبيل الجهاد أطول ما يخطوه قائد عسكري في القرن الهجري الأوّل .

ولو اكتفى عمرو بقرابته لانكشف عقبة في رحلته الأولى . ولو فرضنا

جدلاً أنه عينه لقرابته ، لما أرسل إلى عمر بن الخطاب يخبره أنه عين عقبة على فتح برقة وطرابلس وعقد له لواءها . ولولا معرفة عمر لمقدرة عقبة لما وافقه ، ولما عينه فيما بعدُ على إفريقية ، ولما أبقاه في ليبيا طيلة خلافته — وهو ليس قريباً له — ، ولما أبقاه عثمان — مع خلافه لعمرو — على إمارته ، وكذلك علي بن أبي طالب ، وأكثر من نصف خلافة معاوية . . أي إلى أن اضطر معاوية إلى خلعه اضطراراً . ومع ذلك فإنه أوصى أن يُحسن إليه ، وتُخفّف عنه وطأة عزله . كل هذا دليل على كفاءة عقبة ، وحسن اختيار عمرو له .

والحق أن الشهادة الأولى والأخيرة التي مكّنت عقبةَ من أن يعين لهذا المنصب ، ما قدّمه من بطولات فائقة ، وحركات عسكرية بارزة .

أما لماذا لم يعينه قبل سنة ٢٠ هـ فلأسباب ، منها : أن عقبة كان صغير السن ، قليل الخبرة ، ولما كان في فلسطين لم يكن قد تجاوز عمره سبعة عشر عاماً ، وأن عمراً كان يهيئه لمهمّات يتوقّعها القواد عادة . ويكفي أن نقول في الختام إنه كان كثير الاعتماد عليه في مصر وفي ليبيا ، شديد الاطمئنان عليه في مسيرته ، مرتاح البال من جانبه .

زوجه وأولاده :

لم يكن الحديث عن أسرته بأقل غموضاً عن نوعية نشأته . وقد عالجنا أبواب التاريخ في هذا الموضوع فرأيناها كلها موصدة ، فشددنا على المعالجة فأبدت لنا عذرها بأنها مغلولة الأيدي مفلولة الحَول . فسكتت ولم نسكت . وتابعنا بحثنا إلى أن أضيئت لنا بعض الشموع . . فرأينا بعض أبنائه ولاةً بعده ، وعدداً من أحفاده ذوي مكانة مرموقة في المغرب والأندلس . فأفردنا

لهم ذكراً في ختام الكتاب ، ونكتفي بذكر بعضهم في هذه العجالة : حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبة الفهري — عبد الرحمن بن حبيب — عبد الرحمن بن عقبة — يوسف بن عبد الرحمن — الياس بن حبيب . . . ولكل واحد من هؤلاء دور في الجهاد والإمارة في المغرب والأندلس ودمشق .

أما زوجه ، وأم أولاده ، فلم نهتدِ إلى مصدر منير ، يحدد لنا أصلها واسمها . ولهذا لا نستطيع الاشارة إلى أنها عربية حجازية أو عربية بربرية . ولكن المهم أنه تزوج ، وخلّف أبناءً وأحفاداً وتوزّعوا في عدد من الأقطار ، مع الإشارة إلى أن أغلبهم اختار البقعة التي اختارها أبوهم ، ونذر نفسه لخدمة رمالها .

صفاته ومقامه :

نعم أهل شمال إفريقية بقدوم مجاهد صالح ، اتّصف بالورع والشجاعة والحزم ، أحبَّ العيش بين ظهرانيهم ، ووطّد العزم على تقديم رسالة الإسلام خير تقديم . ولهذا فإننا نجد الإسلام في عهده قد أرسى قواعده في قلوب البربر ، فأقبلوا على يديه يُسلمون ويُزيحون عن أنفسهم ستار الصليبية ، بل صار له منهم أنصار أعانوه في الجهاد ، ودلّوه على مكامن الكفار في الجبال والوهاد .

حرر شمال إفريقية من نير البيزنطيين ، ومحا فكرةَ التفرقة العنصرية التي كان يصرُّ عليها الروم ، جاعلين أنفسهم الطبقة الأولى والنبيلة في البلاد . والطبقة الثانية — السكان الأصليون — دونهم وأقل منهم مكانةً . فتوافدوا على عقبة بعد أن لوّح لهم بالمساواة ، وبعد أن أفهمهم أنّ أفاضلهم مَن تعمقوا في الدين ، وجاهدوا في سبيله ليس غير .

وقد لمس المسيحيون في شمال إفريقية أن الدين الجديد لا مذاهبَ فيه ولا تفرقة . فأقبلوا على الإسلام يحررون عقولهم ، ويقودونها إلى النور بمساواة وعدالة طالما حلموا بهما .

وقد علّم عقبةُ البربرَ اللغةَ العربية ؛ لغةَ القرآن ، ليفهموا أمور دينهم بأنفسهم ، فأقبلوا عليها ، ودرسوها بمدة وجيزة ، ولم تكن صعبة عليهم ، لأنهم عشقوها ، ولأنهم كذلك ساميون ، وجذور لغتهم حِميرية ، كما سنرى ذلك فيما بعد . ونرجّح أن يكون عقبة وبعضُ صحبه تعلموا لغة أهل البلاد ، ليقتربوا من قلوبهم ، ويتفهموا حاجياتهم وطلباتهم . وهذا ما افتقر إليه البربر من الروم . إذ لم يعاشروهم ، ولم يؤاخوهم ، ولم يمتزجوا بهم.

ولعل شخصية عقبة لها الدافع الاكبر في نجاح مهمته . كما أن لصفاته الحسنة وتواضعه الزائد أثراً في تيسير العبء الذي احتمله .

كما كان خطيباً ، فصيح القول . جزل الألفاظ ، مؤثراً في مستمعيه . سيرى القارىء معنا قيمة الكلمات الرصينة التي كان يلقيها على جنوده .

وكان أباً عطوفاً على جنوده ، يغضّ من بصره إذا أخطأوا ، ويعظهم ويعلمهم . ولهذا أحبوه وتفانوا في خدمته ، وتسابقوا معه إلى تخطّي الموت لكسب الحياة الأخرى بعد الاستشهاد . وكان عسكرياً بكل معنى الكلمة ، لم يُعرف عنه غيرُ الجهاد ، ولم يشغله شيء عن إعداد الجيوش ، ونشرِ الدين ، وتنظيم الإدارات العسكرية والمدنية . وكان في كل تحركاته حسنَ التكتيك ، لا يُقدم على حملة إلاّ بعد أن يُعدّ لها الإعداد المناسب ، ولا يتهيأ لغزوة إلاّ بعد طويل تفكير . وبعدئذٍ يهجم كالأسد ، ويُباغت العدو ، ويترصّد له .

ولكن هذا المجاهد الذي اتّصف بهذه الصفات ، وتحلّى بمكانة كبيرة بين المسلمين ، وتهيّبه البيزنطيون ، وخافه المرتدّون . . ولكن هذا المجاهد

استشهد في غفلة من غفلاته في الجزائر (الحالية) سنة ٦٣ هـ ، بعد أن أمضى ربع قرن تقريباً في جهاده . ولم يرَ بلادَه طيلة هذه المدة إلاّ مرةً واحدة حين عُزل ، حيث عاد إلى الشام مطالباً بعودته ، ليُعيد كرَّتَه ، ويسير سيرتَه .

رحمه الله تعالى . . فقد كان من العباد الزاهدين ، الذين يتعبّدون اللهَ في آناء الليل ويجاهدون في سبيله أطراف النهار . مات ، ولم يخلّف ما كان يخلّفه الأمراء والقواد من المال والأطيان . بل خلّف اسماً جليلاً ، يحفظه له عرب شمال إفريقية ، وأهل ليبيا بالذات ، وأولاداً ساروا مسيرة أبيهم في شمال إفريقية والأندلس ، مما سنراه في حينه .

سكان ليبيا والمغرب قبل الفتح

لقي العرب في شمال إفريقية صعوبات جمَّة في بعض المناطق ، ومقاومات منوّعة لم يألفوها في فتوحاتهم السابقة ؛ فقد فتح العرب العراقَ والجزيرة وفارس والشام ومصر في عشر سنين ، بينما استغرق إخضاع هذه البلاد ما يقرب من سبعين سنة ، عانى عقبة بنُ نافع ثلثَها القاسي . ولم يكن سبب الصعوبات إيثارَ السكان الأصليين حكم الرومان أو اليونان على العرب ، أو إيثار المسيحية على الإسلام . وإنما ترجع شدةُ مقاومتهم للعرب ، إلى أنهم كانوا يعيشون في مجتمع قبلي ، لا يقلُّ بداوةً وبأساً عن المجتمع العربي . وتمتاز بلادهم بجبالها الشامخة ، ووديانها السحيقة ، ومسالكها الملتوية الوعرة ، ممّا يهيء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة للإيقاع بالمغيرين ، إذا ما هبّت كل قبيلة للذّود عن ذمارها [1] ، بالإضافة إلى اتساع رقعة البلاد ، وتنوع التضاريس .

في هذه البلاد المرتبطة ببعضها ، دخل عقبةُ برجاله ، وتحمّل أعظم أهواله . فرأى أقواماً مختلفة مشاربُهم ، متنوعة دماؤهم . وهاله أن يرى أصحاب الأرض مظلومين مُهانين ، والغرباء حاكمين متسلطين . فعقد العزم على تطهير البلاد من الغرباء ، وعلى نشر الإسلام في ربوع تلك الأرجاء .

وعلينا الآن أن نتوقّف قليلاً ، نتعرّف فيها على أوضاع السكان المقيمين

---

[1] فتوحات الإسلام : ١٣ .

في شمال إفريقية . مَن هم ؟ ومن أين أتوا ؟ وما هي أوضاعهم في البلاد المحتلة ؟

* * *

١ — الفينيقيون :

تحكي الأساطير الفينيقية ، أن « ديدون Didon » (واسمها كذلك عليصار) ابنة معطجين ملك صور ، هربت بأموالها وجواهرها من أخيها الذي قتل أخاها « بيجماليون » ، من شواطىء صور ، وحلّت بعضَ شواطىء إفريقية ، فسميت « ديدون الهاربة » . واشترت من سكان المنطقة قطعة أرض ، وبنت عليها مدينة « قرطاجنة » سنة ٨٤٠ ق . م . ومعناها « المدينة الجديدة » .

لا يهمنا من رواية هذه الأسطورة إلاّ ما يوصلنا مع الفينيقيين إلى شواطىء تونس وطرابلس . والحق أن حب الفينيقيين للتجارة والمغامرة في عُرض البحار هو الذي جرّ مراسيهم إلى أنأى ما يمكن أن تصل إليه سفن تلك الأزمان . وما هذه الأساطير التي رُويت عنهم إلاّ تغطية لألغاز افتعلوها بعد اكتشافهم الموانىء والمحطات ، لأنهم كانوا يكتمون على سكان البحر المتوسط مكتشفاتهم ومحطات مناجمهم . وما كانوا يسمحون لأية سفينة أن تلاحقهم لتعرف طريق سيرهم . . ولهذا السبب أُلّفت الأساطير ، وسُطرت الحكايات ، وما أكثرها لدى سكان شاطيء بلاد الشام ! ولم يكن الفينيقيون قوماً سيئين أو ظالمين ، وما كان عددهم كافياً ليؤلفوا جيوشاً تحتل ، بل كانوا يسعون إلى تأسيس مستعمرات تجارية تنفع وتنتفع ، تمتد على أطراف البحر أو شواطىء الجزر لتسهيل عملية المقايضة التي كانوا يُجرونها مع أقوام المناطق ، لينقلوها إلى مكان آخر أو إلى بلادهم .

وشاء القدر — والظروف المعيشية — أن تطول إقامة الفينيقيين على شواطيء

تونس وليبيا ، فتتعدى حكومتُهم بلدتَهم قرطاجنة ، ليستولوا على سواحل شمال إفريقية كله من برقة إلى بحر الظلمات وأعمدة هرقل .

والفينيقيون أوّل من استوطن ليبيا سلمياً — وكانت تعرف باسم لوبيا ، وأقاموا فيها أوّل مراكزَ تجارية لهم . . ويأخذ تاريخ ليبيا بالوضوح منذ دخول هؤلاء الأقوام هذه البلاد[1] . وبعد حين استطاعوا أن يؤسسوا ثلاث مستعمرات شرقي قرطاجنة هي : صبراتة وأوية ولبدة ، وكلها تحيط بمنطقة طرابلس .

وتحاول كتب التاريخ المهتمة بهذه الحقبة ألاّ تذكر حروباً جرت بين هؤلاء التجار والسكان الأصليين . . . والظاهر أنهم رحبوا بهم ، لأنهم كانوا يستفيدون منهم ، ويتكسبون بالتعامل معهم . بل علموهم فنون الزراعة بعد أن أحضروا معهم عدداً من البذور والنباتات التي كانوا يستخدمونها في بلادهم ، أو يصادفونها في بعض مستعمراتهم ، وأدخلوا كثيراً من عاداتهم وحضاراتهم وكثيراً من مخترعاتهم النافعة لهذه المستوطنات .

٢ — اليونانيون :

ومن سكان البحار أيضاً ، الذين كانوا يبحثون عن مناطق يمدّون فيها نفوذهم ، ويوسعون بها معاشهم ، اليونانيون . ويحدثنا هيرودوت أن قوماً من اليونان المحبين للترحال والتجوال يُدعون بالثيرانيين وقع اختيارهم على منطقة برقة ، وهي المنطقة المتاخمة لمناطق نفوذ الفينيقيين ، فاستقروا فيها سنة ٦٣٠ ق . م . أي بعد قرابة قرنين من استيطان الفينيقيين في الطرف الآخر . وقد قدموها من جزيرة « سانتورينا » بعد قحط دام سبع سنوات ، وزاد الوضعَ سوءاً ازدحامُ الجزيرة بالسكان . وبعد عشر سنوات من نزولهم

---

١ تاريخ ليبيا : ١٣ .

برقة أسسوا مدينة « قورينا » لتُناوىء قرطاجنة التي كانت قد أسست قبل قرن ونصف .

وقد تضايق سكان لوبيا من هؤلاء القادمين ، لأنهم جاؤوهم خاوي الوفاض ، ليشاركوهم خيراتهم . بل إنهم أجلوهم عن مناطقهم ، وساموهم سوء العذاب . فارتحل بعضهم إلى وسط الصحراء جنوباً ، واتجه بعضهم شرقاً ليحتمي بسكان قرطاجنة ، على عكس ما فعل الفينيقيون المسالمون . لهذا حصل نفور تبعه هياج ، فاستنجدوا بفرعون مصر ، فجاءهم بجيوشه منقذاً ، ولكنه خسر المعركة وقتل . ومعنى هذا أن اليونانيين تمركزوا ببرقة تمركز المنتصر . وأخذوا بإنشاء مدن خاصة بهم كمدينة « توركا » وهي جزء من المرج، ثم مدينة «تولمايتا» أي طلميثة ، « أبو للونيا » وهي مرسى سوسة[1].

وامتدّ نفوذهم في المنطقة ، واشتد تسلطهم على البلاد ، ولكنه ما عتم أن لانت أعوادهم فآن زوالهم ، بعد أن امتدت نسمات الحضارة إليهم ، ولكل دولة أجل – كما يقول ابن خلدون – فما هي إلاّ مدة حتى عمت الفوضى بين السكان ، وضعف مقام اليونان . . عندئذ بدأ نفوذ الرومان يمتد إلى الشواطيء ، وأخذ يحط رحاله في طرابلس .

٣ – الرومان والنوميديون :

لانعلم بالضبط متى دخل الرومان البلاد ، ولعلهم قدموا شمال إفريقية على دفعات . ولكن الأمر المسلم به أنهم أزالوا حكومة قرطاجنة بعد تأسيسها بسبعة قرون ، وحلوا محلها . وقد كان هم الرومان ، وهم سكان بحار أيضاً ، الاستيطان على السواحل لأسباب ، منها :

---

١ تاريخ ليبيا : ٢٩ – ٣٢ .

١ – الاحتماء بالبحر تحسباً لكل هاجم ولسهولة الاتصال ببلادهم .

٢ – الفكرة التجارية تسهيلاً لنقل بضائعهم من شواطىء البلاد المحتلة إلى شواطىء بلادهم .

٣ – الابتعاد عن أعماق البلاد ومجاهلها لقلة الفائدة المرجوة .

وإذا وجدناهم في مصر قد نزلوا إلى ما بعد الشواطىء ، فلأن النيل كان بمثابة نافذة مطلة على البحر ، يمكنهم بواسطتها الانتقال إلى البحر ومن ثم إلى بلادهم . ولما لم يكن في كل الشمال الأفريقي مثيل لهذا النهر ، فقد اكتفوا بالشواطىء الضيقة وعاشوا فيها ، بل عاثوا فيها .

ولأوّل مرة تتألف دولة تضم أهالي الصحراء الأصليين على يد القائد « مسينيسا » ، واستوطنوا بلاد الجزائر الحالية ، وتسمت دولتهم بالدولة النوميدية . وقد احتل هذا القائد قرطاجنة حوالي عام ١٦٥ ق . م .

وتدخلت روما في شواطىء إفريقية مدعية مساعدة النوميديين لتبسط نفوذها على القارة . ولكنهم في الواقع كانوا يساعدون بعض المدن الليبية ضد غزاة الصحراء والنوميديين [١] . وكانت القوة تتأرجح بين الطرفين ، علماً أن سطوة الرومان كانت أقوى . فاستطاعوا أخيراً كما قلنا أن يستولوا على قرطاجنة ويجعلوها عاصمتهم . ولم يأت عام ٨٩ م حتى تم لهم الاستيلاء على ليبيا كلها بما فيها قرطاجنة .

وقد اشتغل الرومان – كغيرهم – بالتجارة ولكن لمنفعتهم الخاصة فقط ، كما اهتموا بالزراعة وحفر القنوات وذلك لتسهيل مهماتهم . وبعد انتهاء القرن الأوّل بدأوا بتطوير المدن : لبدة وأوية وصبراتة ، وكانت

١ تاريخ ليبيا : ٤١ .

سبتة
طنجة
مليلة
العدوة
وليلى
وادي ملوية
بحر الظلمات
السوس
مصمودة
سجلماسة
السوس الأقصى
جزولة
ت

إفريقية وإسبانية يسطون ويقرصنون حتى امتدت أيديهم إلى رومة نفسها ، فاستباحوها سنة ٤٥٥ م .

فاستنجد ملك رومة – ثانية – بجوستنيان ملك بيزنطة ، فأنجده بجيش لجب يضاهي قوة الوندال في شمال إفريقية فأزاحوهم عن البلاد عام ٥٣٤ م . ولكن البيزنطيين – أيضاً – آثروا إبقاء نفوذهم في البلاد .

وقد اعتنى الروم بقرطاجنة بعد أن بنوها من جديد ، وجلبوا لها المياه من الآبار والينابيع القريبة ، وأنعشوا الزراعة في منطقتي تونس وطرابلس . وفي هذا العهد اندمج البربر بالروم لأول مرة ، وتولوا المناصب الحكومية ؛ بل تمكنوا من الوصول إلى عرش رومة في عهد « سبتيم سيفاروس » البربري الأصل الذي حكم من ١٩٣ – ٢١١ م ، وفي عهد ابنه بعده . إلى أن قدم البيزنطيون الآنف ذكرهم .

أما الوندال فإنهم لم يعتنوا بحماية الحدود ، ولا بتطوير الأوضاع الزراعية والاجتماعية ، وكان كل همهم منصباً على السطو البحري[١] ، واعتبروه باب رزقهم الأصلي . غير أنهم أحسنوا معاملتهم مع البربر ، وصادقوهم ، وعاملوهم .

وظلت قرطاجنة وطرابلس تحت حكم أباطرة البيزنطيين في القسطنطينية إلى أن قدم عقبة بن نافع وغيره من القواد العرب ، فأزاحوهم عن محتلاتهم إلى غير رجعة[٢] .

---

١ تاريخ ليبيا : ١٤ .

٢ تاريخ الفتح العربي : ٢٨ .

٥ – سكان البلاد :

كانت القبائل الليبية – كما يقول هيرودوت – ترحل طلباً للعيش ، وكانت حياتها مقصورة على اللحم واللبن اللذين تستخرجهما من مواشيها . وربما كان بعض القبائل من مجموعات الرحل الموسميين الذين يعملون في زراعة الأرض لفترة من العام ، مع اعتبار الصيد مصدراً إضافياً لطعامهم .

وكانت ديانتهم ساذجة ، إذ كانوا يعبدون بعض عناصر الطبيعة كالشمس والقمر ، ويبدو أن ديانتهم قد هُذبت بتأثير مملكة مصر الجديدة ، وتهذيب عبادة الشمس من أصحاب عقيدة « آمون رع » المصري ، واشتهر معبد آمون رع في واحة سيوه[1] . ولنا حديث آخر في حينه .

---

١ تاريخ ليبيا : ٢٧ .

نظرة عامّة في هذه التجمّعات

هذه الأمواج البشرية التي تلاحقت على تونس وليبيا منذ ألف سنة قبل الميلاد ، وحتى دخول العرب في القرن السابع ، أوجد قلقاً في البلاد ، واضطراباً في الأوضاع الاجتماعية والبشرية . صحيح أن بعض هذه الأمواج كان يأتي ليُزيح الموجة السابقة ، ولكن الموجة الأولى لم ترحل كلها قاصدة بلادها ، بل كان أغلبها يبتعد — أو يختفي إلى حين — عن أنظار الفاتحين .

ولهذا ، لما قدم العرب بفتحهم ودينهم الجديدين ، وجدوا ثلاث طبقات من الناس ، تحيا منفصلةً عن بعضها ، أو كالمنفصلة ، إن لم نقل متحاربة أيضاً . طبقتان — من الثلاث — غريبتان ، وطبقة أصلية ، هي :

١ — **بيزنطيون أروام :** وهم حكام البلاد الأجانب ، الذين امتازوا بثيابهم الزاهية ، وانفردوا بنفسياتهم المستعلية . همهم التجارة ، وحلمهم الإمارة . يشغلون مدن الموانىء ، نصفُ أيديهم تمسك بحبال السفن ، والنصف الآخر يمسك بقبضات السيوف ، وأذناب الرماح .

٢ — **سكان المدن :** وهم الذين يسمون الأفارقة وهم عبارة عن مزيج عجيب غير منظم من الأقوام التي قدمت قبل البيزنطيين كالفينيقيين واليونانيين المدموجين بالبربر المستوطنين . وقد اندمج هؤلاء السكان ببعضهم بحكم الجوار والحضارة والمعاملات المتبادلة . واستقروا في المدن الداخلية ، وشارك بعضهم الرومَ بالمدن الساحلية بحكم العلاقات التجارية والزراعية .

٣ - **البربر** : وهم السكان الأصليون الذين توطّنوا شمال إفريقية كله في حقبة عريقة في القدم . وهم فريقان ؛ فريق كان يعيش على امتداد خطٍّ دون خط السواحل المحتل ، وهم بين الحضارة والبداوة ، وكانوا صلة الوصل بين الشواطىء وسكانها ، وبين الفريق الثاني من البربر الذين يعيشون عيشة البداوة في أواسط الصحراء أو على سفوح الجبال .

وسنشرح - بشيء من التفصيل - وضع هؤلاء القوم ، ونحلل أصولهم ، ونناقش جذورهم ، ونُدلي بدلونا في أوضاعهم ، بعد أن نستقرىء الآراء المبذولة حولهم . ونُوليهم كثيراً من الأهمية ، لأنهم ساميون من جذور عربية ، ولأنهم ناوأُوا عقبة ، ثم آخوه وحاربوا معه . وبالتالي كانوا العنصر الأوّل في الجهاد وبعده . وعلى أيديهم تمَّ فتح المغرب الأقصى والأندلس .

وقد يتساءل بعضُ المتسائلين : لماذا لم يستنجدِ البربر بجيرانهم الفراعنة كلما هجمت عليهم هاجمة ، وهم متاخمون لهم في الحدود ؟ في حين أننا نجد بعض الأقوام المحتلّة كانت تستنجد بغيرها كلما طرأ عليهم طارىء ، وعكّر عليهم صفو ؟ .

والواقع - وبعد أن استقرأنا بعض المظانّ - أن الصلات بين الفراعنة والبربر لم تكن دائماً في صفاء ، بل كان أغلبها قائماً على الحرب ، وكان البربر يكتفون بوجود غريب يحتلّ الشواطىء ، وحسبُها الدواخل ، وتخشى من غائلة قدوم جيوش مصر أن تحتل الشواطىء والصحارى معاً . ولم يستطيعوا - بالتالي - أن يقاوموا بأنفسهم ، لأن مقاومتهم كانت في البدء ضعيفة .

وكنا كلما اتجهنا غرباً ، رأينا عدد الروم والبيزنطيين يقل ، ويكثر عدد البربر . وكذا الأمر إذا سرنا جنوباً ، حيث يندر عدد الروم بعد أن نبتعد قليلاً عن خط الساحل ، لينعدم وجودُهم في الصحراء . ولعل أكبر

بقعتين كانتا تزدحمان فيهما هما : قورينا في الشرق وقرطاجنة في الغرب . وقد اكتشفنا ذلك من مسايرتنا للجيوش العربية غرباً وجنوباً ، وخاصة مع مسيرات عقبة . وهذا ما سيلاحظه القارىء بنفسه في الفصل القادم إن شاء الله .

وكنا نلاحظ الروم ثائرين ضد المنافس الجديد ؛ يسعون إلى منعه بكل السبل ، لأنهم على يقين أنهم سيُسْلبون كرسيَّ الحكم . وكرسيُّ الحكم ذو ثمن ؛ أوله الجاه ، وآخره المال .

ولم يقاوم البربرُ العرب القادمين في بادىء الأمر ، واقتصر وجودهم على مشاركة الروم حيناً ، والتفرج حيناً آخر . أما بعد أن رأوا القواد يتتابعون ، وإصرار عقبة بالذات على التغلغل في الدواخل كتغلغله في السواحل ، وخاصة بعد بناء القيروان ، أيقنوا أنهم سيفلتون الأزمّة المتبقية في أيديهم . لذا أخذوا بالتشدد على العرب ، وبمحاربتهم الحرب الشعواء .

أما الأفارقة ، فما كان يهمهم القادم كثيراً ؛ فكلاهما — العرب أو الروم — في نظرهم غازٍ يريد الشراء . ولعلهم وجدوا في القادمين إخلاصاً في المعاملة أكثر ، أو رغبة في الشراء أوسع . لذا أداموا الانتظار المُسالم كي يهدأ غبار الحرب ، وتعودَ قوافلهم التجارية إلى عهدها السابق .

أما الديانات التي قابلها العرب لما دخلوا البلاد ، فكانت الوثنية وعبادة الشمس في المناطق الداخلية ، واليهودية لدى الأقليات المهاجرة ، والمسيحية التي قدمت إلى مصر وشمال إفريقية مع الحكم البيزنطي .

والحق أن المسيحية دخلت إلى ليبيا ، وخاصة إلى برقة منذ أيامها الأولى ، ووصل إليها الحواري الوحيد القديس « بولس » . وأوّل مَن دان بالمسيحية فيها بعض الجاليات اليهودية التي اتجهت بعد حين نحو « قورينا » لتدمير

المعابد الوثنية المُقامة فيها [1] . بل إن القول الأشهر ان مرقص كان من يهود تونس أصلاً . وقد اختار مرقص وطنَه الأصلي للتبشير فيه ، بعد أن صاحبَ القديس بولس ، إلى أن قُتل ، وتابع صحبته لبطرس [2] .

وقد أنشأ « مرقص » بالاسكندرية مدرسة لاهوتية ، وجعل يتردّد بينها وبين موطنه الأوّل (إفريقية) ، ويُنيب « يستاس » عنه أثناء غيابه إلى أن توفي سنة ٦٨٧ م .

وازداد انتشار المسيحية في شمال إفريقية عندما اعتبرت الديانة الرسمية [3] . غير أن البربر والأفارقة لم يقبلوا بالمذهب الكاثوليكي – شأنهم في ذلك شأن الأقباط في مصر – تحدياً للحكومة الرومانية ، بل دانوا لمذهب الكنيسة الدوناتية ، وثاروا عليهم بحجة المذهب [4] .

وعلى هذا فقد كانت ليبيا في حالة انحطاط سياسي ، وتفرق اجتماعي ، وضعف فكري ، ونزاع ديني عندما دخل العرب البلاد . كل هذا كان بسبب الحاكم الأجنبي الذي قدم ليمتصّ رحيقها ، ويجعلها البقرة الحلوب ، يحتلب منها ما يريد ، من دون أن يضع لها الغذاء الدسم :

لهذا وجد الإسلامُ مقاومةً من ناحية ، وتضعضعاً من ناحية . وقاسى الكثير بين هذه المقاومة وهذا التضعضع ، إلى أن يسّر الله النصر ، وقيّض لرجاله التوفيق .

---

١ تاريخ ليبيا : ٦٣ .

٢ عمرو بن العاص : ١٣١ .

٣ انظر حديثنا عن المسيحية في « فتح مصر » .

٤ تاريخ ليبيا : ٦٣ .

البـــربر

أصلهم - وضعهم

لفظة البربر :

وردت لفظة « البربر » في أربعة عهود :

١ – في عهد هومير [1] – Homère على القبائل المتعددة اللغة واللهجة .

٢ – في عهد هيرودوت [2] – Hérodote على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم .

٣ – في عهد بلتوس – Béltose على الروم ما عدا سكان رومة وتوابعها .

٤ – أطلقها العرب على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي ، لأنهم وجدوهم يتحدثون بلغة لم تكن مفهومة لديهم . ومعناها لديهم : الأصوات غير المفهومة ، وكانوا يسكنون من الاسكندرية إلى بحر الظلمات .

صفتهم :

يقول ابن خلدون في صفة البربر : « البربر جيل من الآدميين ، سكان

---

١ هو هوميروس الشاعر الإغريقي الأعمى ، الذي عاش في القرن التاسع ق . م . كان كثير الطواف بين البلاد ويلتقي شعره في تجواله . وتنسب إليه ملحمة الالياذة والأوديسة .

٢ هو هيرودوتس الذي عاش بين ٤٨٤ – ٤٢٥ ق . م . وهو مؤرخ يوناني ، ورحالة مشهور ، لقب « بأبي التاريخ » . زار هذا المؤرخ العراق وفينيقية ومصر . وكتابه مرجع مهم لما دون من أخبار الأمم وأساطيرها .

المغرب من القدم ، ملؤوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره . يتخذون البيوت من الحجارة والطين ، ومن الخصائص والشجر ، ومن الأشعار والأوبار . ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج . وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، **شأنهم في ذلك شأن العرب** » .

ويقول أيضاً : « ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ، ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والظعن في نتاج الإبل ، وظلال الرماح ، وقطع السابلة . وأكثر أثاثهم من الصوف ، ويشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل . ورؤوسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعهدونها بالحلق » .

هذه هي صفات البربر العامة ، وهي كثيرة الشبه بصفات العرب ، وخاصة في المقطع الأوّل ، لأن المقطع الثاني صفة لهم بعد تحضرهم ، وتلاؤمهم مع البيئة الجديدة ومنتجاتها .

أصلهم :

اضطربت الآراء ، وتوزعت ، عن أصل الأقوام الذين لقيهم عقبة عندما دخل منطقتي برقة وزويلة . وأهم هذه الآراء :

١ – هم قدماء لا يُعرف تاريخهم .

٢ – هم من الأمواج البشرية القادمة من أوروبة .

٣ – هم من ولد جالوت بفلسطين .

٤ – هم من نسل قيس عيلان ؛ عرب بادية الشام .

٥ – هم من عرب الجنوب ، من اليمن وحضرموت .

٦ – هم مزيج من حاميين وساميين .

وهناك آراء أخرى لا محلّ لذكرها ، لبُعدها عن الواقع والمعقول . وإن أسقطنا الرأيين الأولين كانت الأراء كلها – جميعاً – صحيحة . ومع هذا فعلينا أن ندرس هذه الآراء ونفنّدها ، ونحاول – من ثَمّ – الوصول إلى فكرة أقرب إلى الواقع التاريخي ، والنسب الصحيح . وقبل استخلاص استنتاجاتنا الخاصة ، أرانا مضطرين إلى فرش نظريات الأقدمين ، لنبني عليها مناقشتنا .

الرأي الأوّل : أنهم قدماء لا يُعرف تاريخهم : وهذا الرأي تبنّاه ابن خلدون ، لأنه لا يريد عقد صلة لهم مع العرب ، ويسعى إلى فصلهم . وهذا ما لا يمكن للواقع التاريخي أن يقبله . فنحن نعلم – ودلتنا عليه كتب السماء – أن العالم بدأ بعد الطوفان بأولاد نوح الذين انطلقوا من شمال العراق (؟) ؛ واحد إلى الشرق هو يافث ، ومنه جاء النسل الهندوأوربي ، والثاني اكتفى بالنزول إلى جنوب الجزيرة (اليمن وحضرموت) وهو سام ، وأطلق على أهله « النسل السامي » . ورافقه أخوه حام في قسم كبير من رحلته في الجزيرة العربية ، ثم انفصل عنه بعد نزاع بين القبيلتين (أو من دون نزاع) . فعبر حام سيناء إلى إفريقية غرباً ، وتناسل ذووه هناك – كما يقول كتاب الجمان – واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب غرباً ، وإلى تخوم السودان جنوباً .

ولا يمكن – بعد هذا – قبول نظرية ابن خلدون القائلة بقدم وجود البربر . ثم هو نفسه يقول : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ، وأن اسم أبيهم مازيغ » .

الرأي الثاني : من الأمواج البشرية القادمة من أوروبة : وقد أُلقيَ هذا الرأي على عواهنه إلقاءً دونما تعليل أو تبيان . فلم يذكر متبنّوه من أين قدموا ؟ ولا كيف نزلوا ، ولا المحطات التي اتخذوا . والفينيقيون ــ كما ذكرنا ــ حطّوا سفنهم على شواطىء تونس وطرابلس ، ثم امتدوا . والمؤرخون سجلوا ذلك بالتفصيل وبرواية الأساطير . أما حديثهم عن البربر فغير ثابت عرقاً ، وغير واضح تاريخاً ،. حتّى صفاتهم التي أوردها ابن خلدون تزيد الباحث نفوراً عن مجرد التفكير بهذا الرأي .

وبعض المؤرخين يُرجع قدومهم بعد قدوم أمواج الفرنج ، ولا يعدّهم من الفرنج . ونحن ، وإن كنا لا نعتبر نظريتهم هذه صحيحة ، نستدلُّ منها على أن البربر غير الفرنج ، وعلى أنهم قدموا من غير أوروبة . قال الإشبيلي في مسالكه : « إن البربر لما دخلوا المغرب وجدوا الإفرنج قد سبقوهم إليه . فأجلوهم حتّى اصطلحوا على أن يسكنوا الجبال ويسكن الإفرنج الأوطئة ، فبنوا المدائن بها »[1] .

وهذا أمر مرفوض ، لا يقبله الواقع التاريخي ولا الوضع الجغرافي .

الرأي الثالث : أنهم من ولد جالوت : يقول بعض المؤرخين من أهل المغرب[2] إن موطنهم الأصلي بفلسطين ــ مجاورين للكنعانيين ــ وكان ملكهم جالوت ــ وكما يسميه الكتاب المقدس جليات ــ حاول مساعدة الفلسطينيين ، وكان جباراً . فطلب مبارزة واحد من بني إسرائيل ، فخافوه لأنه قوي ، ولأنه مدجج بالسلاح الحديدي . ولم يجسر على مقاومته إلاّ داود عليه السلام ، وكان في سن المراهقة ، فنازله بعصا ومقلاع ، فأصابه بحجر وقتله . فلما

١ البيان المغرب : ١/١٤ .

٢ فتوح افريقية والأندلس : ٢٨ . المغرب : ٣٩ .

قتله داود ، خرج قومه « البربر » متوجهين نحو المغرب[1] ، حتى انتهوا إلى لوبية (وكانت مدينة بين الاسكندرية وبرقة) ومراقية (وهي بلدة بعد الاسكندرية) ، فتفرقوا هناك .

فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت إحدى القبائل البربرية — وهي لواتة — فسكنت أرض انطابلس (برقة) ، وتفرقت في هذا المغرب ، وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس الواقعة جنوب مراكش . ونزلت قبيلة هوارة مدينة لبدة ، ونزلت نفوسة إلى مدينة « سَبْرَت » ، وجَلا مَن كان فيها من الروم من أجل ذلك[2] .

هذه رواية تدنو بنا إلى معرفة أصل سليم لهؤلاء الأقوام ، والقرآن الكريم ذكر هذه الحادثة بقوله تعالى : « وقتل داود جالوت » . غير أن بعض المؤرخين ينفيها أصلاً محتجاً بأن الاثنين لم يتعاصرا ، وأن قرابة خمسة قرون تفصل بينهما — وفيهم ابن حزم — . وكدنا نؤخذ بآرائهم لولا أن القرآن الكريم سدّ عليهم ذلك ، ولا يمكننا إلاّ المثول أمام قوله تعالى .

وعلماء الأنساب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان ، وهما :

١ — برنس : ومنه البرانس .

٢ — مادغيس : ويلقب بالأبتر ، ولهذا يقال لشعوبه : البتر .

---

١ قيل : جاء في الوحي لداود (أو ليوشع بن نون ، أو لأفريقش الحميري) : يا داود أخرج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض (الاستقصا) .

٢ يقول ابن الأثير : « كان سبب مسير البربر إلى سبرة وإلى غيرها من الغرب أنهم كانوا بنواحي فلسطين ، وكان ملكهم جالوت . فلما قتل سارت البربر ، وطلبوا الغرب حتى إذا انتهوا إلى لوبية ومراقية ، وهما كورتان من كور مصر الغربية ، تفرقوا فسارت زناتة ومغيلة إلى الغرب فسكنوا الجبال . . . إلى آخر التقسيم المذكور . (الكامل : ٣/٢٦) .

والجميع عند ابن حزم من أب واحد هو من نسل كنعان (أهل الشام) . أما بعض النسابين فيرون أن البرانس فقط هم من نسل كنعان ، وأما البتر فهم بنو بر بن قيس بن عيلان بن معد . وكلاهما من ولد مازيغ ، ومازيغ هو من ولد كنعان بن حام .

الرأي الرابع : أنهم من نسل قيس بن عيلان : هناك رواية طريفة ، رواها عدد من المؤرخين – وابن خلدون في طليعتهم – ، ولا ضير علينا من سرد هذه الأسطورة ، علّنا نستشفّ من ورائها شيئاً من الواقع .

تقول الرواية : كان لمضر بن نزار ولدان الياس وعيلان . أمهما الرباب بنت حيدرة . . . بن عدنان . فولد عيلان بن مضر ولدين وهما قيس ودهمان . أما دهمان فولده قليل ، وهم أهل بيت من قيس ، يقال لهم : بنو أمامة . وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية ، وهم : سعد وعمرو وخصفة ، أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار ، ثم « بر » وأخته « تُماضر » أمهما تمريغ بنت يجدول بن غمار بن مصمود البربري اليجدولي .

وكانت قبائل البربر يسكنون الشام ، ويجاورون العرب في المسكن والأسواق والمساعي . . ويصاهر بعضهم بعضاً . وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء زمانها ، وأكملهنّ ظرفاً وأدباً . فكثر خطابها من سائر العرب . فقال بنو عمها – وهم عمرو وسعد وخصفة وبر – : لا يتزوج ابنة عمنا إلاّ أحدنا ، ولا تخرج منا إلى غيرنا . فخيروها فيمن شاءت منهم . فاختارت براً – وكان أصغرهم سناً ، وأكملهم شباباً – فتزوجها دون إخوته . فحسدوه عليها ، وهمّوا بقتله من أجلها .

وكانت أمه « تمريغ » من دهاة النساء ، فبعثت إلى أبيها دهمان ، وأعلمته

الخبر ، وواطأته على الخروج بولدها إلى أرض قومها من البربر ، حيث تأمن عليه . ثم بعثت إلى قومها ، فأتوها سراً . فارتحلت معهم هي وولدها بر وكنتها البهاء بنت دهمان ، فلحقوا ببلاد البربر — وهم يومئذ مستوطنون فلسطين وأكناف الشام . فنزل « بر » على أخواله ، واعتزّ بهم ، وبنى بابنة عمه البهاء . فولدت له هناك ولدين هما : علوان ومادغيس ابنَي بر بن قيس بن عيلان . فأما علوان فمات صغيراً ، ولم يعقب . وأما مادغيس فكان يلقب بالأبتر ، وهو أبو البتر من البربر ، وإليه يرفعون أنسابهم ، ومن ولده جميع زناتة . ويزعمون أن تماضر أخت بر بكته بعد فرقته بشعر تقول فيه :

لتبكِ كلٌّ باكية أخاها كما أبكي على بر بن قيسِ
تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه أنضاء عنس

ومما ينسب إليها أيضاً قولُها :

وشطت ببر داره عن بلادنا وطوح بر نفسه حيث يمّما
وأزرت ببر لكنةٌ أعجميةٌ وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبرّاً لم نقف بجيادنا بنجدٍ ، ولم نقسم نهاباً ومغنما [1]

مع أن ما ذكرناه لا يتعدّى الأسطورة ، ومع أننا نعلم أن الأساطير نسج من الخيال ، إلاّ أننا نكاد نتقبّلها . نقول : « نكاد » ، لأن الأساطير لا تُنسج خيالاتُها إلاّ من خيوط الواقع الرفيعة . وهذه الخيوط ستنفعنا كثيراً فيما بعد ، وتقودنا إلى كشف الأصول الصحيحة .

الرأي الخامس : من عرب الجنوب ؛ اليمن وحضرموت : تذكر كتب

---

[1] الاستقصا : ٦٢ .

التاريخ – أيضاً – أن أفريقش بن صيفي [1] من ملوك التبابعة غزا إفريقية ، فسميت البلاد باسمه . وترك – الكتب تقول ذلك – بعض قبائل بني حمير كصنهاجة وكتامة في البلاد ، ثم تبعتها قبائل أخرى . وهو رأي أكثر المؤرخين المسلمين [2] .

الرأي السادس : أنهم مزيج من الحاميين والساميين : جاء في كتاب الجمان أن بني حام تنازعوا مع بني سام ، فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب والزاب ، وتناسلوا به ، واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب ، إلى تخوم السودان . وهذا يعني أن بني حام افترقوا عن بني سام من فلسطين وبادية الشام . ولكن الرأي السادس يعني – في حسبهم – أن البربر حاميون في إفريقية ، قدم إليهم قوم من الساميين ، فاندمجوا في شمال إفريقية ، فخرج عنصر جديد هم « البربر » .

وهذا مستبعد أيضاً ، إلا إذا كان القادمون هم البربر ، واندمجوا بسكان إفريقية بحكم الاشتراك في الأرض والبيئة المعيشية .

ورأينا – ولا نريد أن يؤخذ على عواهنه ، لأنه ما زال في نطاق التظني لدينا – أن البربر عرب ساميون قدموا مع الدفعات البشرية والموجات القبلية التي أخرجت ألواناً من الساميين ، كالفينيقيين الذين كانوا في اليمن ، ثم رحلوا إلى البحرين ، ثم استقروا على الشاطىء الشامي ، أو كالآراميين الذين تدرّجوا في رحيلهم القبلي من أقصى جنوب الجزيرة ، قاصدين مواطن الكلأ في الشام ، فاستقروا في البادية الشامية ، ثم صعدوا واحتلوا سورية

---

١ يقول المسعودي : بل هو افريقش بن أبرهة ذو المنار . وابن حزم : هو افريقش بن قيس ابن صيفي .

٢ الاستقصا : ٦٠ – ٦١ .

كلها . وكذا الأمر مع الأشوريين والأوكاريتيين .

ونحن إذا أغفلنا عن الرأيين الأولين لضعفهما وبعدهما عن المنطق العلمي رأينا الآراء الأربعة الباقية كلها تتجه إلى أنهم ساميون . والاختلاف الواقع بينها : هل هم من شمال الجزيرة أو هم من جنوبها . ولا يعارض هذه النظرية إلاّ ابن خلدون ، إذ يرفض أن يكون بين القومين صلة . ولكنه يقول في الختام : « وعندي أنهم إخوانهم والله أعلم » .

والفيروزآبادي يقول : « وكلهم من ولد قيس عيلان ، أو هم بطنان من حمْيرِ صنهاجة وكُتامة . صاروا إلى البربر — شمال إفريقية — أيام فتح إفريقش ملك إفريقية » .

والكنعانيون ، بقبائلهم (الأوكاريتية والفينيقية والعبرية) كما هو معلوم ، أصلهم من الجنوب ، فرحلوا ، واتخذوا الشام (ساحلياً) مقرّاً لهم . ولا مانع أن يكون قسم من البربر صعدوا من اليمن ، وحطّوا في بادية الشام وحول فلسطين حيناً من الدهر ، فاختلفوا مع بني إسرائيل وغيرهم من القبائل ، فرحلوا في الطريق المؤدية إلى مصر . ولما وجدوا البلاد مأهولة تابعوا طريقهم مُساحلين ، ينشدون أماكن غير مأهولة ، فوجدوها في مغرب النيل وتوزّعوا . . كما ورد في بعض الروايات .

ولا مانع أيضاً أن ترحل قبائل أخرى من الجنوب على خط البحر الأحمر ، لتدخل نفس المدخل الذي سلكه إخوانهم دون أن يتوقفوا . واختلطوا هناك ؛ عرب الشمال من نسل قيس عيلان ورئيسهم جالوت ، وعرب الجنوب برياسة عدد من الرؤساء أهمهم افريقش . بل إن التدافع البشري معروف لدى سائر سكان المعمورة ، بحيث تدفعُ القبيلةُ الأقوى القبيلة الأضعف لتحتل مكانها طلباً للكلأ والعيش ، لا تلبث أن تضعف هي الأخرى فتندفع

من جراء موجة بشرية أقوى منها ، فتتقدم لتدفع التي أمامها وتحتل مكانها ، وهكذا . . . كما حصل للهجمات التركية والمغولية التي بدأ تدافعها من الصين ، وانتهى في أواخر أوروبة . وما كلمة « هنغارية » إلاّ دلالة على قدوم قبائل الهون ، وما كلمة « بودابست » إلاّ تذكرة لكلمة بوذا بالإضافة إلى كثير من الألفاظ التي دخلت من أقصى الشرق في أقوام أقصى الغرب . والطبري نفسه وهو من قدماء المؤرخين يقول : إن البربر أخلاط من كنعان والعماليق[1] وغيرهم . وتفرقوا بعد جالوت .

ولعل فاضلاً يوقفنا بعد أن كاد يقتنع برأينا فيسائلنا : واللغة ماذا نفعل بها ؟ ، ويستشهد بقول ابن خلدون: « ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا لأجلها بهذا الاسم » .

ونجيبه لنزيده اطمئناناً بأن عدداً من المؤرخين ذكر أن اللغة البربرية قريبة الشبه باللغة الحميرية القديمة . بل إن دراسات تعدُّ الآن لكشف جذور هاتين اللغتين كشفاً يوصلنا إلى الحقيقة التي نريد أن نجلوها الآن .

ولا غرابة في أن يوجد بعدٌ لغوي لغير ذي اختصاص بعلم اللغة ، كمن يجد بوناً واسعاً بين الكتابات العبرية والسريانية والعربية في حين أنها ذات جذور واحدة . وسبب ذلك راجع أوّلاً إلى بعد الشقة الزمنية بين القومين (عرب الجنوب المستقرين في شمال إفريقية وعرب الجنوب الذين مكثوا في أرضهم) . وثانياً إلى تأثير البيئة في لغة الإنسان وفي مخارجه الصوتية من تأثير الصحراء أو الجبل أو الساحل ، حتّى نوع الهواء . وثالثاً إلى تأثر لغة المرء باندماجه بلغة أخيه . ويحسن أن نذكر أن لغة عرب الجنوب منذ عشرين

---

١ العماليق : شعب قطن جنوبي فلسطين وحارب العبرانيين فأبادهم شاؤل وداود .

قرناً مثلاً لا يمكن أن تفهمها اليوم إلاّ بواسطة علماء الآثار واللغات .

والبربر خرجوا من الجنوب وخرجوا من الشمال في أزمان متفاوتة ، واندمجوا – ولا شك – بأقوام قابلوهم فأخذوا منهم وأعطوهم . ثم جاءت عوامل أخرى اضطرتهم إلى هجر بعض الألفاظ وابتكار بعضها الآخر ويكفينا يقيناً ، إذا أمعنا النظر في الكتيبات الحميرية القديمة وفي الكتيبات العربية الشمالية ، أن نرى الاختلاف ظاهراً ، والبون اللغوي شاسعاً بينهما . فإذا كانت الاختلافات بهذا الشكل مع قوم لم يشكّ أحد بانفصال جديهما فمن البديهي أن يحصل مثل هذا بين عرب اليمن وعرب شمال إفريقية .

وقد نقلوا شيئاً من لغة عرب الشمال أيضاً . يقول ياقوت عن اللغة البربرية في أثناء حديثه عن طرابلس : « وفي بربرها من كلامه بالنبطية » . والنبط أو الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوبي فلسطين ، وكانت قاعداتهم : صلع وبصرى وصلخد والحجر . كانوا من التجار يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات ورومة . أما اليعقوبي فيتخذ تسميات أخرى من دون أن يبتعد عن الجوهر فيقول : « وكانت البربر والأفارقة ، وهم أولاد فارق بن بيصر بن حام بن نوح ، لما ملك إخوتهم لأرض مصر ، فأخذوا من العريش إلى أسوان طولاً ومن أيلة إلى برقة عرضاً وخرجوا نحو المغرب . فلما جازوا أرض برقة أخذوا البلاد ، فغلب كل قوم منهم على بلد ، حتى انتشروا بأرض المغرب .

فأوّل من ملك منهم لُواتة في أرض يقال لها أجدابية من جبال برقة . وملكت مزاتة في أرض يقال لها ودّان ، فنسب هؤلاء القوم إلى أبيهم . وجاز قوم منهم إلى بلد يقال له تاورغة ، فملكوا هناك وهم هوّارة . وسار آخرون إلى بلاد أرميك وهم بذرعة ، وسار قوم إلى طرابُلُس يقال لهم

المصالين ، وجاز قوم إلى غربي طرابلس يقال لهم وهيلة »[1] .

ونتيجة لكل هذا نخلص إلى آن البربر عرب ساميون ، لم يكونوا أصلاً من سكان شمال إفريقية . بل رحلوا إليها ، ورحيلهم إليها جرى على دفعات متعددة ، وفي أزمنة متباعدة من الجزيرة جنوباً وشمالاً ، واختصوا بما بين برقة وطنجة . ولما كان أكثرهم ممن اعتاد العيش في الصحارى فقد فضلوا الإقامة في بوادي هذه البقاع ، وليس كما يقول بعضهم إنهم قدموا فرأوا الروم محتلين المدن والسواحل فآثروا الصحارى والدواخل ، لأن البربر أقدم من الإفرنج بكثير جداً .

وقد عالج بعض الكتاب قضية أصل البربر شعراً ، ومما حفظ لنا التاريخ ما أنشده بعض العلماء لعبيدة بن قيس العقيلي قوله :

ألا أيها الساعي لفُرقةِ بيننا توقّف هداك الله سبْلَ الأطايبِ
فأقسمُ أنّا والبرابرُ إخوةٌ تناولنا جدٌّ كريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى له حومة تشفي غليل المُحارب
وبرٌّ بن قيس عصبةٌ مضريةٌ وفي الفرع من أحسابِها والذوائب
فنحن وهم ركنٌ منيع وإخوةٌ على رغم أعداءٍ لئام المناقب[2]

وجاء في الدُّرر الكامنة لعبد الله بن محمد الهرغي ملغزاً في كلمة « البربر » :

وما أمةٌ سُكناهم نصفُ وصفهم وعيشُ أعاليهم إذا ضُمّ أوله
ومقلوبهُ بالضمّ مشروبُ جلّهم وبالفتح مَن كلّ عليه معوّلُه[3]

---

١ تاريخ اليعقوبي ١/١٩٠ .

٢ الاستقصاء : ٦٣ .

٣ الدرر الكامنة : ٢/٨٥٢ .

ديانة البربر :

كانت ديانات البربر في ليبيا والمغرب بدائية وفاسدة ، تعتمد عبادة الشمس والقمر في بادىء الأمر . ثم دخلتها الوثنية فالمجوسية . وبعد حين من الزمن بدؤوا يدينون بديانات الوافدين والفاتحين . فعرفوا ديانة سماوية جديدة عليهم هي الديانة اليهودية . ولكن الداخلين فيها كانوا قلة ، بل نادرين .

أما المسيحية فقد أكرههم الاضطهاد على الدخول فيها ، ليتخلصوا من العذاب والضرائب . ولما كانوا غير متفقين مع البيزنطيين ، ولا يرتضونهم حاكمين . فقد خالفوهم في مذاهبهم لاختلافهم معهم في مشاربهم . فنشأ بين الطرفين تعذيب من لون آخر ، واضطهاد ذو طابع مخالف . تبعه اختلاف البيئة والأرض والطبيعة البشرية والأهواء .

ولما قدم عقبة بن نافع بالدين الجديد عارضوه بادىء ذي بدء ، وكانوا يرتدّون عنه كلما ابتعد عنهم . وقد قال ابن خلدون : « إن البربر ارتدوا بإفريقية ثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، وزحفوا في كلها على المسلمين . ولم يثبت إسلامهم إلاّ في أيام موسى بن نصير » . ولما جاز إلى الأندلس أخذ معه بعضاً من رجالاتهم ليجاهدوا معه ، واستقروا هناك ، فاستقر الإسلام في المغرب . وأذعن البربر لحكم عقبة ، ورسخت فيهم كلمة الإسلام ، وتناسوا الردة إلاّ من بعض الجيوب الكافرة التي بيّتت الشرّ له ، وأضمرت الشرك وتمسكت به ، وذلك في المناطق التي امتدت بعد منطقة تونس خاصة .

ولا مانع من أن يشكّوا ، وأن يرتدوا إلى أن يصلوا في منتهى الأمر

إلى ثبات في العقيدة وإيمان في القلب . فقبلهم ارتد بعض العرب ، فأعادهم أبو بكر (رضي) إلى خط الهداية . وهؤلاء اهتدوا مع عقبة ، ثم ارتدّوا عليه ، فأعادهم إلى حظيرة الإسلام هو وغيره من القواد . إلى أن هداهم الله في نهاية الأمر . فتقبّلوا مع الإسلام لغةَ القرآن ، ومالوا إليها بكل عواطفهم بعد أن تخلصوا من شوائب الديانات الأخرى .

وبعد أن شاع الإسلام بين البربر ، سرَت فيهم دعوة الخارجية ممّن قدموا من العراق . ووجدت في عامتهم صفاء فاعتنقوها . وتعددت طوائفهم فيها ، وتشعّبت طرقها إلى أن رسخت فيهم .. وبرز منهم هُداةٌ ودُعاة وعلماء .

ولم يكتفوا بتقبّل الدين ، بل اندمجوا اجتماعياً عندما تأقلموا بتعاليم الدين كاملة . وغدوا قوة جبارة مؤهلة للفتح والجهاد في إفريقية والأندلس [1] . وهكذا عادت جموعهم إلى قواعدها الأصلية أمةً فديانةً . . وكانوا خير أساس **لقاعدة عقبة بن نافع** التي انطلق منها النور .

---

[1] تاريخ ليبيا : ٧٨ .



الفتح في ليبيا



أ - التطلّع إلى ليبيا

١ - حماية الحدود :

تحدثنا في الفصل الأوّل بأن فتح مصر كان فكرة عمرو بن العاص وحده دينياً وسياسياً واقتصادياً . وكان هدفه الذي ناقش عمرَ حوله أن فتح مصر ضروري لحماية الحدود الغربية لفلسطين والشام ، ومتابعة فلول الروم الهاربين إلى مصر ، والمنضمّين إلى أبناء جلدتهم . ولهذا الهدف - بالإضافة إلى هدف الجهاد الأسمى - سارت جيوش عمرو إلى مصر لتقضي على كتائب الروم المعسكرة فيها .

غير أنه عند ما تمّ له ذلك ، أخذ يفكر في حماية حدود مصر ، فرأى أن مشرقه آمن ، وهو بحر القلزم المشرف من الطرف الآخر على فلسطين والجزيرة العربية . وأن شماله البحر الأبيض ، وقد عقد معاهدة مع المقوقس على ألاّ يكون هناك حرب استرجاعية . فليس إذاً أمامه سوى الجنوب ، وقد أرسل إليه عقبة بن نافع ، وإلا الغرب ، وسيرى من سيرسل إليه . وذلك تحسباً من هجمات البيزنطيين المنتشرين في البقاع الغربية بعد الاسكندرية .

فقد قدّر بتفكيره العسكري البعيد أن الروم لهم قوات في برقة وطرابلس ، قد تساعدهم على حين غرّة ، أو تتحصّن هناك فتؤلف جيوباً مُعادية ، وخلايا تتقوّى فيها . لذا عليه أن يتابع مسيرته لتطهير البلاد من الروم الغزاة [١] .

---

١ الفاروق عمر : ٢/١٦٠ .

ولعله فكر في بادىء الأمر أن يتابع فتوحه بنفسه ، ولكنه رغب في التريث قليلاً ، إذ ليس من الحكمة أن يزجَّ بنفسه ، وهو القائد الأعلى ، في مجاهل قد تودي بحياته ، أو تُضيع من أوقاته . ويهون عليه الأمر لو أنه وجد القائد المحنّك ، الذي يتفهم الأمور العسكرية بعمق ، ويعد لكل موضوع عدّته . وهو يفكر في تعميق بقعة فتوحه ، وتعقيب فلول الأعداء ليشرّدهم ويمنعَ تكتّلهم ، ليضمن أمن مصر .

والحق أن عمرو بن العاص ، بعد أن طابت له نشوة النصر ، أحبّ أن يوسع أفق معاركه . ومن الحكمة أصلاً ألاّ يوقفَ عجلة الفتح الدائرة . فرأى أن يتجه نحو تحرير الأقاليم ، ومواصلة الفتح والغزو . والجندي الذي طعم لذة النصر مرة ، يحب المتابعة والمغامرة ، ويتفانى في الوصول إلى هدفه . وأخشى ما يخشاه هذا الجنديُّ الهدوء بعد الحرب ، والركون بعد النصر .

وما دام شرع في هدفه ، وهو ملاحقة الروم ، عليه أن يتابع ذلك . وبرقة هي المحطة القادمة بعد الاسكندرية . ويريد إرسال طلائع استكشافية تترصّد العدو ، وتلاحق مواقعه ، وتكتشف مكامنه ، ثم تعود . وهذه الطلائع يلزمها رائد لا يكذب أهله ، وقائد يكفيه سؤله . ونظر حوله ، وقرأ عيون رجاله ، فرأى اتّقاد عيني شاب قد لوّحت شمس المعارك بشرته ، فغدت سمراء كمثار النقع . هو نفسه الذي كان يتوقعه ؛ فارس فرسانه ، وفتى فتيان الجيش ، الفدائي الذي سار إلى جنبه كثيراً ، والعسكري الذي أرسله في مهمات عسيرة ، وخرج منها نصيراً .

عقبة بن نافع !

ولم لا ؟ إنه يعرفه منذ صغره ، ويعرفه في كل معاركه . فوقع الاختيار عليه ، وسلّمه اللواء ، وطلب إليه أن يستطلع له أحوال البلاد بعد الاسكندرية ،

ويوافيه بأخبارها كاملة .. وبناءً على عودته وأخباره سيعدّ الجيش المناسب ليتابع مسيرة النصر .

٢ – الحملة الاستطلاعية :

وفي سنة ٢١ هـ[1] اتجه عقبة نحو برقة الواقعة على خط الاسكندرية ، ونحو زويلة الواقعة في وسط الصحراء[2] . وكان هدفه من ذلك أن يختبر قوة الساحل والداخل معاً ، ثم أن يساير الحدود المغربية لمصر ، ليرى إمكانية الحماية . وقد أثبت بهذين الهدفين مقدرة رائعة ، وحنكة بارعة .

وعاد عقبة من فتح برقة وزويلة وما جاورها منتصراً في العام ذاته . ووضع أمام قائده الأعلى خريطة العمل ، ورسم له نوعية العتاد اللازم . وأفهمه أنه صار ما بين برقة (الشاطىء) وزويلة (قلب الصحراء) للمسلمين[3] . وفي هذه الجلسة العسكرية التي وضعت القائد الصغير أمام القائد الكبير ، بدأ نجم عقبة يتألق . ونجاحه يوفق ، ويظهر على مسرح الأحداث . . القائد الذي هيأته الأقدار لفتحه الكبير .

٣ – التعريف ببرقة :

يقول ياقوت : وبرقة اسم صقع كبير – اسمه قديماً Pentapolis – كان يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها

---

١ وقيل سنة ٢٠ . فتوح إفريقية: ٣٠ . الكامل: ٣/٢٠ . أما اليعقوبي وابن خلدون فيريان فتحها سنة ٢٣ . ولعل الفتح بدأ أواخر سنة ٢٠ وتم سنة ٢٣ .

٢ فتوح إفريقية : ٣٠ . المؤنس : ٢٢ .

٣ جوامع السيرة : ٣٤٣ . الكامل : ٣/٢٠ . تاريخ الأمم والملوك : ١/٢٦٤٦ . المغرب : ٣٩ .

انطابلس [1] ، في مكان بنغازي اليوم . وأرض برقة أرض خلوفية بحيث ثياب أهلها أبداً محمرّة لذلك . ويحيط بها البرابر من كل جانب .

وفي برقة فواكه كثيرة ، وخيرات واسعة كالجوز واللوز والأترج [2] السفرجل . وفيها قبر رويفع صاحب النبي (ص) ، وقبور عدد من الصحابة متجمعين ومتفرقين . وهذا الاقليم كثير الناس والضياع . وأهله يشربون من ماء السماء ، يجري في أودية ، ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك . ولها آبار يرتفق بها الناس . . . وبين الاسكندرية وبرقة مسيرة شهر . وقال أحمد بن محمد الهمداني : من الفسطاط إلى برقة مئتان وعشرون فرسخاً [3] .

وقد رُوي أن التجار قديماً كانوا يُكثرون التردُّد على برقة مشرّقين ومغرّبين [4] . وعلى هذا كانت منطقة تجارية حساسة واقعة بين مصر وإفريقية (تونس) وأواسط القارة من الجنوب ، وملتقى القوافل ، تشتري لوازمها ، وتبيع ما عندها . يدلنا غناها على دفع الجزية الكبيرة — دون ضغط — بسرعة وسهولة . بل إنها لم تُحج الجباة إلى أن يصلوا إليها لدفع الجزية ، بل كانوا يجمعونها ويرسلونها إلى عمرو في مصر [5] . يقول ابن عبد الحكم :

---

١ انطابلس : أول مدينة لقيها عمرو وعقبة بفتوحهما . وتعني خمس مدن ، هي : طوشيرا — سيرين — برنيق Bernice — أبولونيا — بارش . وهي مدن قديمة أسسها الإغريق . وتسمى على التوالي : توكرة — شحات (قورينا) — بنغازي — سوسة — المرج . انظر : عمرو بن العاص دراسة مستحدثة : ٢٦٥ .

٢ الأترج : نوع من الحمضيات ، والكلمة فارسية (المعجم الذهبي) .

٣ معجم البلدان مادة «برقة» .

٤ الفاروق عمر : ١٦٠/٢ .

٥ الفاروق عمر : ١٦٠/٢ .

« ولم يدخل برقة يومئذ جابي الخراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها »[1] .

ويقول القلقشندي[2] : « هي أرض متسعة الأرجاء ، مديدة الفضاء . وهي من أزكى الأراضي دواب ، وأمراها مرعى . وهي شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس في منابت أشجارها ، وكيفية أرضها ، وما هي عليه . وإنها لو عَمرت بالسكان ، وتأهلت بالزراع كانت اقليماً كبيراً يقارب نصف الشام » .

وجاء في كتاب « أخبار الزمان » للمشطبي [3] : « إن بربر برقة لم يكتفوا بالخضوع السريع للعرب ، وإنما أرسلوا رسلاً منهم إلى الفاتح العربي قبل أن يخلص من فتح مصر ، يعرِضون عليه الدخول في الإسلام على يديه . واستطاع عمرو أن يفهم ما يريدون بواسطة مترجم . فأرسلهم إلى عمر بن الخطاب ، الذي رحب بهم أحسن ترحيب ، لأن أحد الحاضرين أخبره أنهم من البربر أولاد « بر بن قيس » . فلما سألهم عمر عن عاداتهم وعلاماتهم ، أخبروه بها ، فبكى لأن النبي (ص) كان قد تنبأ بفتح بلادٍ لأهلها هذه الصفات . ثم حمد الله على ذلك ، وبعث إلى عمرو أن يقدمهم على الجند . وحمّلهم بالهدايا » .

نستدل من هذا النص على أمور كثيرة وفي غاية الأهمية . أولها أنه كانت تجري صلات بين عمرو وأهل برقة قبل وصول حملة عقبة الاستكشافية . ثانيها : أن البربر كانوا على معرفة تامة بما يجري في مصر وما بعد مصر .

---

١ فتوح إفريقية : ٣٠ .

٢ صبح الأعشى : ٣/٣٩١ .

٣ هو كتاب مخطوط ، استقى منه المقدم محمد فرج في كتابه « عمرو بن العاص » ص : ٢٦٦ .

وثالثها : أن الإسلام دخل البلاد قبل أن يدخل المسلمون . ورابعها : عناية عمرو بن العاص باستشارة الخليفة في كل أمر . وخامسها : زيادة في البرهان على أن البربر من بني قيس بن عيلان .

وقد وقع عدد من الصحابة في هوى هذه الأرض . فأحبّوها ، وأخلصوا لها ، لما رأوا من أهلها حسن استقبال وإكرام . فقد قال عمرو بن العاص : « قعدت مقعدي هذا ، وما لأحدٍ من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد ، إلاّ أهل انطابلس ، فإن لهم عهداً بوفائه »[1] . وقال ابنه عبد الله معبّراً عن غرامه بهذه الأرض ، وهو من خيرة الصحابة وجامعي حديث الرسول (ص) : « ما أعلم منزلاً لرجل له عيال ، أسلم ولا أعزل من برقة ، ولولا ما لي بالحجاز لنزلت برقة »[2] . هذا بالإضافة إلى عقبة ورويفع وزهير . . وسيرد ذكرهم جميعاً إن شاء الله .

٤ ـ التعريف بزويلة :

المنطقة الثانية التي جابها عقبة بن نافع ، ورسّخ فيها أوّل دعائم الجهاد هي زويلة . وزويلة من مدن فزّان القديمة ، وتقع في الجنوب الشرقي من مرزق بنحو ١٥٠ كم ، وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو ٧٧٠ كم .

وزويلة هذه يعبّر عنها المؤرخون بزويلة السودان ، احترازاً عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي[3] بقرب تونس . وكانت زويلة السودان

---

١ المغرب : ٣٩ .

٢ فتوح البلدان : ٢٦٤ . معجم البلدان .

٣ أول خلفاء الفاطميين . هاجر من سلمية حمص إلى المغرب ، وفيها أعلن نفسه « المهدي » ، =

عاصمة فزان بدل مرزق . وسميت بعد الفتح الإسلامي مدينة الأشراف ، كما سميت زويلة بني الخطاب . وفيها قبور يسميها السكان قبور الصحابة [1] .

ويعتبر أهل زويلة متصلي النسب بسكان برقة ، ويقال إنهم من بني « حويلا بن كوش بن حام » [2] .

أما فزان فهي واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدّها من الشمال جبال السود « الهروج » ، ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذي يصل غدامس [3] وغات [4] . وقد احتلها الرومان سنة ١٩ ق . م . أشهر بلادها مرزق وسبهة وبراك وهي مقابلة لجرمة [5] عاصمة فزان أيام الروم ، وأوباري ، وزويلة واسمها عند الرومان « تيلالا » . ذكرها جرير في شعره فقال :

قفرٌ تُشابهُ آجالُ النعام به عيداً ، تلاقت به فزّانُ والنوبُ [6]

= وطرد منها الأغالبة ، وأرسل جيوشه ففتح مصر والشام شرقاً ومراكش غرباً . وغزا بسفنه سواحل مالطة وصقلية وسردينية والباليار . أسس في القيروان عاصمة « المهدية » .

١ تاريخ الفتح العربي : ٣٥ .

٢ قلائد الجمان : ٣٣ .

٣ غدامس: مدينة في الصحراء جنوبي بلاد الجريد على طريق السودان المعروفين بالكانم . اسمها البربري القديم « سيداموس » . وهي واحة من واحات طرابلس الصحراوية ، وتبعد عنها إلى الجنوب الغربي ٥٠٠ كم . وبقيت تابعة للروم منذ أن احتلوها إلى أن دخلها الفتح الإسلامي. فتحها عقبة مرتين سنة ٤٢ وسنة ٤٩ .
(صبح الأعشى : ٥/١٠٨ – تاريخ الفتح العربي ٨٨) .

٤ غات : واحة من واحات ليبيا الصحراوية ، واقعة في الجنوب الغربي من فزان على مسافة ٤٣٠ كم . وتقع في الجنوب الغربي من طرابلس بنحو ١١٣٠ كم .
(معجم البلدان الليبية : ٢٣٨) .

٥ جرمة : بلدة في فزان تقع في الوادي الشرقي . وهي مقابلة لجرمة القديمة التي كانت عاصمة لفزان زمن الروم ومن قبلهم . فتحها عقبة ثانية سنة ٤٩ .

٦ تاريخ الفتح : ٩٠ .

ب - فتح ليبيا

بعد أن وضع عقبة تجربته الاستطلاعية أمام عمرو ، وأطلعه على سرّ البلاد ، وهي أن البربر ساخطون على البيزنطيين ، كارهون لحكمهم الجائر ، وتعسفهم في جباية الضرائب ، وأنهم ناقمون على كثرة المظالم[1] . وبعد أن أطلعه على إمكانية فتح البلاد ، شرع عمرو بإعداد الخطة المناسبة ، وتجهيز العدة اللازمة .

وسار في جنده غرباً بعد أن اطمأن على مصر ، موقناً أن فتح مصر يمثل الخطوة الأولى لفتح شمال إفريقية كله ، حيث كان الممرّ الطبيعي للجيوش العربية[2] .

ولم يلق عمرو مقاومة تذكر في طريقه ، لأن قوات الروم في المنطقة كلها قد تجمعت في الاسكندرية . ولم يكن الطريق بين الاسكندرية وبرقة صحراوياً كما هو اليوم . بل كانت البقعة خصبة ، تحيطها من الجانبين زروع وفاكهة وكروم وعمران متصل . لذا كانت مسيرة الفرسان المسلمين فيه نزهة شائقة ، أدت إلى برقة[3] .

وتابع الجيش المسير حتى قدم برقة سنة ٢٢ وقيل ٢٣ ، وهي مدينة

---

١ تاريخ الدولة العربية : ٤٩٢ .

٢ القيروان : ١٠ .

٣ الفاروق عمر : ٢/١٦٠ .

انطابلس ، فصالح أهلها على الجزية[1] ، وهي ثلاثة عشر ألف دينار فرعوني ، يبيعون فيها من أبنائهم مَن اختاروا بيعه . وكتب لهم بذلك كتاباً لم يحفظ لنا التاريخ نصه[2] .

والواقع الذي حفظته أغلب كتب التاريخ أن بربر برقة تعهدوا أن يدفعوا لعمرو ١٣ ألف دينار فرعوني سنوياً ، يدفعونها من طيب خاطرهم دون أن يقهرهم عليها عمرو . واشترطوا عليه كذلك ألا يفدَ عليهم جابي الخراج والجزية حاثاً أو مستحثاً . ويعلل البلاذري بأنهم كانوا أخصب قوم في المغرب ، ولم تدخلها الفتنة[3] . ولأنهم بذلك يتخلصون من الحاكم البيزنطي المتجبر . ولا شك أن أخبار استيلاء العرب على الشام ومصر بَلغتهم ، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب . وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء لجيش المسلمين ، واستسلامهم طائعين مختارين . فصالحهم عمرو وعقبة نظير جزية يؤدونها إلى المسلمين ، وهي دينار واحد على كل حالم[4] ، ولا تؤخذ على الشيوخ والنساء والأطفال . وقد ظلت المعاهدة سارية المفعول إلى أن استولى المسلمون على البلاد التي تجاورها ، فانتقض ذلك الرسم[5] .

وكانت هذه المعاهدة مفروضة على البربر ما لم يُسلموا . فمن أعلن إسلامه عُومل معاملة المسلم ، فعليه أن يدفع عندئذ العشر أو نصف العشر . ولهذا سرى الإسلام بين القبائل البربرية كالنار في الهشيم ، ترحاباً بدين

---

١ يقول المقريزي : إن عمرو بن العاص فتحها عنوة . انظر المواعظ والاعتبار : ٨١/٢ .
٢ تاريخ اليعقوبي : ١٧٩/٣ . تاريخ الأمم والملوك : ٢٦٤٥/١ . فتوح البلدان : ٢٦٤ .
٣ فتوح البلدان : ٢٢٤ .
٤ تاريخ الدولة العربية : ٤٩٢ .
٥ معجم البلدان مادة برقة .

ينقذهم من المذاهب المضطربة أو الوثنية الكافرة ، وحباً بشعب يؤاخيهم ، ويربطهم به رابطة المساواة والحق والعدالة والأصالة .

أما قضية تقديم أبنائهم نظير الجزية لمن يرغب ، فقد استغلّها عدد من المستشرقين هدفاً مغرّضاً ، وعرضها عرضاً مشوّهاً . والحق أنها ظاهرة فريدة في تاريخ الإسلام يجب دراستها . والظاهر أن أهل البلاد الذين لا يقدرون على دفع الجزية ، أو عندهم كثير من الأولاد كانوا يتطوّعون بتقديم أولادهم . وهذا لا يغير أبداً في نظرنا، ما دام الأبناء يوضعون في أيد أمينة .، ويربّون تربية عسكرية وإسلامية صالحة ، ينفعون في فتح البلاد ، وتفهم الأوضاع ، والقيام بالترجمات المناسبة . وكانوا نواة الفتوح فيما بعد .

كان هذا العمل بالذات تعبيراً عن اندماج الشعب بالفاتح ، ورغبة أكيدة في الإخاء والصداقة . ولعل بيع الأبناء أمر معروف لدى بعض الأقوام غير البربر . والبيزنطيون هم الذين أوحوا بهذه الفكرة للشعوب المغلوبة . وأهل جزيرة «كورسيكا» من أهل اليونان كانوا يبيعون أبناءهم للحكومة البيزنطية ، عندما كان يتعذر عليهم دفع الضرائب الضخمة التي تطالبهم بها [1] . وأهل جزيرة كورسيكا قريبون جداً من أهل جزيرة سانتورينا الذين نزلوا برقة ، وأسسوا مدينة قورينا .

وإذا أحسن المسلمون تربية هؤلاء الأبناء ، فإن الدولة البيزنطية كانت تأخذ الأبناء ، وتعتبرهم عبيداً . وحين يبلغ سنّ الرشاد ، ويعلن إسلامه ، لا يختلف عن سادته بشيء . وكلنا يعرف موسى بن نصير وغلامه البطل صاحب الفضل الأكبر في فتح الأندلس كله . وبعد أن تمّ لعمرو بن العاص فتح انطابلس قام بعملين كبيرين :

---

١ L'Afrique. P: 565.

الأول : أمر بتخريب أسوار المدينة . ولم يخطىء في عمله هذا ، لأنه صمّم على متابعة الفتح ، والسير غرباً . وكان يخشى أن يعود الروم المتخفّون إلى المدينة ، ويتحصّنون ضده ، لذا آثر الحفاظ على خط الرجعة . فليس عمله هذا خطأ عسكرياً كما يزعم بعض المؤرخين . ولو أنه صمّم على الوقوف عند هذا الحد ، لعيّن عليها والياً ، وأمره أن يجعلها عاصمة ، ولاستفاد هذا الوالي من هذه الأسوار .

والواقع فإن عمراً لم يلق في هذه المدينة ، ولا قبلها ولا بعدها أيضاً ، مقاومة تُذكر ، لأن عقبة بن نافع مهّد له الطريق ، ولأن الشعب نفسه كان متفهماً نفسية القادمين الجدد بعد أن جرّب عقبةَ ، وربط معاملةَ هذا القائد بما سمعه عن فتوحاتهم السابقة ، وقارنها بأفاعيل البيزنطيين .

الثاني : كان النجاح الأوّل الذي أحرزه عقبة ، وبالتالي عقبة وعمرو في منطقة برقة حافزاً على الاستمرار في الفتح ، والمتابعة في الجهاد . ولهذا وضع عمرو في برقة خطته العسكرية التي تقضي بتوزيع قواته ، وتسييرها بخطوط رئيسية وفرعية ، بحيث تبسط قوتها على المنطقة كلها بسطاً كاملاً ، وفي وقت واحد تقريباً .

ومن البديهي أن يحتل عقبة المحلّ الأقوى في هذه الخطة ، لأنه كسب من رحلته السابقة ثقافة انفرد بها عن سائر القواد ، وعن رئيسه ذاته . وسارت الجيوش ، واتّخذ أهمها الطرق التالية :

١ – الطريق الساحلي من برقة إلى طرابلس ، بقيادة عمرو بن العاص .

٢ – فتح ودّان ، بقيادة بسر بن أرطأة .

٣ – فتح صبراتة (صبرة) ، بقيادة عبد الله بن الزبير .

٤ ــ الطريق الصحراوي (الداخلي) ، بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

بالإضافة إلى كتائب أخرى ، كانت تنفصل ، لتؤدي المهمة التي أرسلت من أجلها ، ثم تعود ، على أن تجتمع كلها حول طرابلس ، بعد أن تثبّت أقدامها في المناطق التي رحلت إليها .

أوّلاً مسيرة عمرو : لا شك أن عمراً اتخذ خط الدفاع الأوّل والأكبر في هذه الحملة . لأنه بعد أن درس جغرافية ليبيا ، وتوزّع سكانها عرف أنه سيلقى البيزنطيين ، وسيصادف مستعمراتهم ومدنهم وقلاعهم . واستسهل الصعب ، لأنه صادف أمثالهم في فلسطين ومصر ، وتفهّم إمكانياتهم ، وأنواع أسلحتهم ، ونوعية خبراتهم الحربية .

فسار مُساحلاً المدن والموانىء والقلاع من الشرق إلى الغرب . وهو في مسيرته هذه يحمي بذلك هجوم السواحل على عقبة ، ويشغلهم بجيوشه لتسهيل مهمة قائد الجنوب . وبالتالي فإن عقبة كان يشغل الدواخل ، كيلا يقدّم سكانها يد العون لسكان السواحل الحاكمين . وبين هذين العسكرين كانت الكتائب تتفرّع ؛ تضرب ضرباتها الخاطفة ، وتعود إلى الانضمام تحت لوائها . وهي فكرة عسكرية مبتكرة ورائعة ، لعله لم يستخدمها في مصر لاختلاف بيئة المنطقتين .

وبدأ عمرو بسُرت ، ولم تكن ذات خطر بالنسبة إليه . ولهذا لم نرَ المؤرخين يذكرون شيئاً عن حصارها أو حربها ، غير سورها الترابي قليل الارتفاع . وقد لاحظ أن سكان سُرت يتكلمون برطانة مزيج ؛ لا هي بالرومية ولا البربرية ولا القبطية . . ولعلها مندمجة من كل ذلك بلغة سودانية قديمة ، لصلات تجارية خاصةٍ ، كانت تقوم بها هذه المدينة الساحلية مع السودان في الجنوب .

وسُرْت (بضم السين و سكون الراء) مدينة قديمة أنشأها البربر في عصورهم الأولى قبل الإسلام ، وأهلها من برابرة منداسة وفنطاس ، وآخر منازلهم تاورغة[1] . وكلمة « سرت » تطلق على المنطقة الواقعة بين قصور حسان والعقيلة ، وهي من الأراضي الطرابلسية[2] .

وبعد أن اطمأن إلى فتحها واستسلام أهلها بسهولة تابع طريقه ، فمرّ بلِبْدةَ . فوجدها قليلة العمران ، ولم تصمد أمامه ، ولم تقاوم جيوشه لضعف الناس وفقرهم .

ولبدة أسسها الفينيقيون سوقاً تجارية في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد . كانت تسمى لديهم « لبكي » ، وحرفها اليونانيون إلى « لبتس » ، لأن الحرف « C » يقرأ بالكاف وبالسين . وظلت الكلمة الأخيرة مستعملة حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم حُرفت إلى « لبتس — Leptis » . وأضافوا إليها في حين من الزمان كلمة « ماينا » أي العظيمة ، كيلا يقع التباس في « لبتس الصغرى — Leptis Minor . واستطاع اليونان بناء المنطقة لخصبها ، ولحسن معاملتهم للبربر .

وقد مرت بلبدة حكومات كثيرة ، وإمارات عديدة عملت على توسيعها وشهرتها ، عدا الوندال الذين أهملوها فخربت . واستعادت نشاطها مع البيزنطيين الذين طردوا الوندال كما مر . ولما قدِم العرب لم تكن ذات أهمية تذكر ، وليس فيها إلاّ بقايا قصور ، وأقوام مزيج من فاتحين وسكان أصليين .

---

١ تاورغة : بلد جنوبي مصراتة بنحو ٤٠ كم . كانت قبل الفتح الإسلامي آخر ديار هوارة البرابرة جنوباً و(تا) من علامات التأنيث في البربرية . وبها عين كثيرة المياه .

٢ معجم البلدان الليبية : ١٨٨ .

وكانت لبدة قريبة جداً من طرابلس ، ولهذا وصل إليها بسرعة . وهنا – عند طرابلس – وقف أمام أسوار شاهقة وقلاع ضخمة . والراجح أن الفينيقيين بنوها مع ما بنوا من مدن تجارية على الساحل كما سنرى . أما السور فقد بناه البيزنطيون عندما احتلها « اسفاروس » قيصر الروم . وكانت مع برقة ذات حاكم بيزنطي واحد يتبع في إمرته حاكم مصر . وتتفق الروايات على أن أميرها كان « جريجوريوس الثاني » ، والذي كان يسميه ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين العرب « جرجير » .

رآها ميناء بحرياً محصناً ، ومسلحاً بأسلحة رومية . وقد هاله أن يجد الخصب المحيط بها ، والخيرات التي تغذّي الحامية الرومية . ولما رآه الجنود الروم أغلقوا أبوابهم ، ووقفوا على الأسوار يحمون المدينة ، ويرقبون البحر منتظرين المدد والعون من العاصمة البيزنطية . وانقضت أسابيع وأسابيع ، فلم يأت أحد . فضاقت نفوسهم ، وأصابهم الهلع ، خاصة وأن أسوارها ليست بمستوى أسوار الاسكندرية ، وقد بلغهم أن هذا القائد دكّها واحتلها .

وجال عمرو بن العاص أطراف المدينة فرآها مسوَّرة من ثلاثة أطراف ، أما الطرف الرابع فكان مطلاً على البحر ، ملتصقاً به[1] . فنزل عند القبة المشرفة على الطرف الشرقي سنة ٢٣[2] ، وحاصرها شهرين لا يقدر منها على شيء[3] . ومن هناك أرسل كعادته الكتائب ، تحتل المناطق المحيطة بطرابلس ، وتجلي عنها الروم .

---

١ جاء في تقرير فرسان القديس ، في وصف طرابلس ما يلي : « . . . ويبلغ محيط سورها ٣٧٢٨ خطوة ؛ ثلثاه يطل على البحر ، والثلث الآخر يشرف على البر . ويحيط بالقصر خندق عرضه ٤٤ خطوة وعمقه قصبتان » .

٢ يرى ابن الأثير أنه حاصرها سنة ٢٢ . انظر الكامل : ٣/١٩ .

٣ يرى ابن عبد الحكم أنه حاصرها شهراً واحداً . انظر فتوح إفريقية : ٣٢ .

وكان جند المسلمين يتجولون في بعض المناطق دونما خوف ، بحثاً عن الغذاء ، أو سعياً للاستجمام . . وفي أحد الأيام خرج رجل من بني مُدلج من عسكر عمرو متصيِّداً في سبعة نفر ، فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا . فأصابهم الحر في طريق عودتهم ، فأخذوا مكاناً على ضفة البحر . وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور . وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم –كعادتهم أبداً – . فنظر المدلجي وأصحابه ، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، وانحسر عن جزءٍ من اليابسة ، فوجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذي غاض منه البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة . وكبّروا فظن الروم أن العرب قد تسلقوا الأسوار ، فلم يكن لهم مفزع إلاّ سفنهم .

وسمع عمرو التكبير ، وأبصر ما جرى ، فأمر بسلّ السيوف ، وملاحقة الروم من المكان الذي انحسر عنه الماء . فلم تفلت الروم إلاّ بما خفّ لهم من مراكبهم . وغنم عمرو المدينة وما كان فيها[1] .

وبعد أن هدأت المعركة في داخل المدينة ، أمّن الشعب الذي بقي في مكانه ولم يبحر . وأمر جنوده بعدم التعرض لهم ولأنعامهم ولمعابدهم . وأمر المسلمين بهدم أسوارها[2] خوفاً من تحصّن الروم ، أو خشية قدوم نجدة من القسطنطينية . والظاهر أنه أطال المكوث بها قليلاً لدرجة أن المسلمين بنوا فيها مسجداً .

وطرابُلُس – ويلفظها العرب أطرابلس – مدينة فينيقية قديمة ، احتلها

---

١ فتوح إفريقية : ٣٠ ، الكامل : ١٥/٣ . معجم البلدان .

٢ ولما جاء هرثمة بن أعين إلى حكم القيروان بنى السور مما يلي البحر منعاً لرسو سفن الروم فيها . (معجم البلدان . تاريخ ابن خلدون : ١٩٥/٤) .

القرطاجنيون سنة ٧٩٥ ق . م . وهي أحد المراكز الفينيقية الأربعة التي أنشؤوها على الساحل الإفريقي وهي : قرطاجنة وصبراتة وأوية ولبتس مانيا . ومعنى الكلمة بالإغريقية « تريبو ليتانوس Tripolitanos » اقليم المدن الثلاث وهي : صبراتة وأوية ولبتس مانيا (لبدة) .

ولما كانت لبدة في أوج عظمتها وعز نفوذها كانت أطرابلس غير ذات أهمية . ولما جرت غارات الجرمنتيين سكان جرمة بفزّان على لبدة تأخرت في وضعها وتقهقرت في تقدمها ، فاستغلت طرابلس هذا التقهقر ، واحتلّت مركز الصدارة[١] . وظلت على مكانتها إلى ما بعد احتلالها من قبل عمرو بن العاص .

ويقول ياقوت : وتسمى مدينة إياس ، وعلى مدينة طرابلس سور صخري جليل البنيان . . . وحولها أنباط ، وفي بربرها مَن كلامُه بالنبطية[٢] .

٢ – مسيرة بسر بن أرطأة : وأهم كتيبة انبثقت عن جيش تحرير الساحل ، لفتح بعض المناطق الداخلية كانت بقيادة بسر بن أرطأة . واتجهت لفتح ودّان وجبل نفوسة[٣] سنة ٢٣ .

وهي مدينة بربرية قديمة تقع في الجنوب على واحة من واحات الجفرة ، وتقع جنوبي سُرت وغربي زلة . يتبعها زلة وهون[٤] وسوكنة وما جاورها ويطلق على الكل بلاد ودّان . وكانت ودان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة لهذه المنطقة .

---

١ معجم البلدان الليبية : ٢٣ .
٢ معجم البلدان مادة « طرابلس » .
٣ المؤنس : ٢٢ .
٤ يرى الشيخ طاهر الزاوي أن « هون » قبيلة عربية تنتسب إلى « هون بن خزيمة بن مدركة. . . ابن عدنان » .

ففتحها بسر ، وفرض على أهلها غرامة قدرها ٣٦٠ رأساً من الرقيق[1] .
وعقد معهم معاهدة سلمية ، وأعلنوا فيها الإسلام . غير أن أهل ودّان ارتدوا بعد عودة بسر . وظلوا على ارتدادهم حتّى وصول عقبة إليهم سنة ٤٩ هـ زمن معاوية بن أبي سفيان ، حيث فتحها وردّ أهلها إلى الإسلام .

وكان هدف هذه الحملة ربط حملة عمرو في طرابلس بحملة عقبة المختطّة طريق الجنوب في منطقة فزّان . وهي خطوة تدل على يقظة عمرو من مَغبّة حركة تنبعث من قلب ليبيا ، تُضرب بها جيوش الشمال أو جيوش الجنوب .

٣ – مسيرة عبد الله بن الزبير :

عندما وصل العرب إلى طرابلس وحاصروها ، أصاب أهل « صبراتة » الهلع ، فأغلقوا أبوابهم ، واختفوا داخلها ، واستعدّت حاميتها للدفاع عنها . غير أن حصار المسلمين لطرابلس طال . وبلغتهم أنباء تفيد أن طرابلس مستعصية على المسلمين ، ولا يمكنهم فتحها ، وهم من خلف أسوارها يائسون . فأصاب أهل مصراتة الزهو – بعد الهلع – قائلين : وكيف إذاً يتوصلون إلى أسوارنا ، وبلدنا أكبر ، وحاميتنا أقوى ؟ !

فلانَ الشعب واستكانوا ، وفتحوا الأبواب ، وعادوا إلى أعمالهم .
غير أن الله فتح طرابلس على أيدي المسلمين فجأة كما بيّنّا . وكان من عادة عمرو بن العاص – وعقبة بن نافع كذلك – أن يفكر بالمدينة التي تلي ما يحاصر استعداداً . والمدينة التي تلي طرابلس هي « صبراتة » . ولعله أرسل بعض

---

١ المؤنس : ٢٢ .

الكشافة ، فأخبروه خبرهم ، وشرحوا له انغلاق المدينة ، ثم انفتاحها بعد اطمئنان [1] .

ولما كانت صبراتة لا تبعد عدة فراسخ عن طرابلس ، صمّم أن يسيّر الجيش إليها فوراً وبالليل . فجرّد لعبد الله بن الزبير خيلاً كثيفة في جنح الظلام ، وطلب إليه أن يسرع قبل أن يصل إلى أهل صبراتة خبرُ فتح طرابلس، ونبأ مسيرته . وكان السكان غافلين ، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم . ولكنهم فوجئوا بدخول المسلمين المدينة .

وأخذوا يقتلون من يعترضهم ويبارزون من يحمل السلاح في وجههم . وكانت عملية المفاجأة التي اتبعها عمرو بن العاص بقيادة فارس من أبرز فرسان الإسلام ناجحة تماماً ، إذ يسرت له فتح مدينة كانت ستمتنع عليه مدة طويلة وعسيرة . ولكن الله شاء أن تفتح ، ويحتوي عمرو على ما فيها [2] .

وهرب أغلب السكان بسفنهم إلى جزيرة صقلية ، أما الباقون فقتل بعضهم واستسلم بعضهم الآخر . وكتب عبد الله بن الزبير يخبره بالنصر ، وبأنه هدم الأسوار وجمع الغنائم .

وأغلب الروايات [3] تقول إنه أعدّ قوات كثيرة ، وجنّد جنداً كثيفاً . والرأي عندنا أنه اكتفى بالفرسان ليصلوا في جنح الظلام . وأبقى المشاة حامية له في طرابلس .

وهكذا كان عنصر المباغتة ، وسرعة الحركة من أهم عناصر النجاح العسكري اللذين اتبعهما عمرو بن العاص .

---

١ فتوح إفريقية : ٣٢ .

٢ فتوح إفريقية : ٣٢ . فتوح مصر والمغرب : ١٧٢ .

٣ منهم ابن الأثير .

وصَبراتة مدينة قديمة أسسها الفينيقيون في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد . وكانت من أعظم مدن شمال إفريقية . كما كانت أكبر من طرابلس ، وأعظم منها عمراناً ومدنية ، وأروج تجارة . وقد انتعشت في القرن الثاني الميلادي سياسياً واقتصادياً ولكنها عادت فضعفت قيمتها حين احتلها الوندال في القرن الخامس (عام ٤٥٥ م) . واسترجعت مكانتها حينما احتلها البيزنطيون عام ٥٣٢ م . وظلت تحت حكمهم إلى أن قدمها المسلمون سنة ٢٣ هـ وفتحوها .

كان اسمها الرومي «سبراتا» بكسر السين ثم حرّف العرب السين إلى صاد على عادتهم في تعريب الأسماء الأعجمية . كما كان يطلق عليها «سبرة» . ولفظه العرب كذلك «صبرة»[1] .

وبعد أن تم للمسلمين فتح صبراتة ، واطمأن عمرو إلى نصره على البلدين . اتجهت أنظاره إلى مدينة شروس في الجنوب الغربي ، وهي مدينة تقع في جبل نفوسة، وتعتبر شروس من أكبر عواصم البربر ، وقد كان في هذا الجبل المذكور لدى البربر عاصمتان هما (شروس وجادو) . كانت شروس تضم ثلاثمئة قرية[2] . ولما حاصرها العرب وفتحوها كانت تدين بالمسيحية ولم يذكر المؤرخون كيفية فتحها ؛ هل فتحت عنوة أم صلحاً[3] ؟ والظاهر أنها لم تستعص عليهم ، وهي المدينة التي توقف عندها عمرو ، واستأذن عمر بالاستمرار في الفتح ، ومنعه من المتابعة بعدها على ما سيأتي .

أما جادو فهي غير موجودة الآن وإن كان اسمها معروفاً . وقد أُنشئت مكانها مدينة فسّاطو .

---

١ معجم البلدان الليبية : ٢١١ .

٢ تاريخ الفتح العربي : ٥٦ .

٣ لم يبق من شروس اليوم سوى خرائب . وتلفظ شينها سيناً في بعض الأحيان .

ونفوسة سلسلة من الجبال الصخرية المرتفعة في بعض مناطقها . وتمتد من المغرب غرباً مارة بالجزائر وتونس وتنتهي بجبل قماطة ، وهي جزء من سلسلة جبال أطلس .

وفي هذه السلسلة كثير من السفوح الخصبة الخضراء والمراعي الفسيحة والمياه الجارية . استوطنها عدد من قبائل البرابر البتر ، وتنسب إلى « نفوس ابن زحيك بن مادغيس » وهو مادغيس الأبتر جد البرابر البتر . كانت بطونهم تسكن الجبل المعروف بجبل نفوسة ، وكانت مدينة صبراتة في مواطنهم وتنسب إليهم [1] . وبعد الفتح شاركتهم قبائل عربية في السكن ، واندمجت بهم .

٤ ــ مسيرة عقبة :

بعد أن تشاور القائدان ، ورأيا أن حامية طرابلس والساحل رومية ، وأن الواحات والدواخل بربرية ، خشي عمرو إن هو ذهب بكامل قواته إلى طرابلس أن يفاجأ بهجوم مباغت من قبل سكان الصحراء والمناطق المأهولة بالبربر الموالين للحكومة البيزنطية . ولما كان عمرو قد خبر محاربة الروم ، وعقبة جرّب حرب البربر فقد أوعز لعقبة أن ينزل نحو الجنوب مسيرته السابقة .

وهو في هذا التقسيم دليل على دهائه العسكري وخبرته في توزيع الجيوش ، فقد اتبع هنا خطة غير الخطط التي اتبعها في مصر ، كما ذكرنا . وسبب ذلك راجع :

أولاً : إلى اتساع رقعة البلاد ، ونوعية العدو المتربص على السواحل في حين أنه في مصر متوزع في الساحل والداخل .

ثانياً : إلى أن ساكني الصحراء يحتاجون إلى شيء من الدهاء والتكتيك

---

١ تاريخ الفتح العربي : ٢٢ .

والتوجيه يختلف في جوهره مع حرب أهل السواحل . فوزع الاختصاص بينه وبين عقبة بشكل عادل .

وعلى هذا فلا تقل مسيرة عقبة أهمية عن مسيرة عمرو ، لأن الطريق طويلة ومنحنية بشكل نصف دائري تبدأ ببرقة وتنتهي بطرابلس . وكلها طرق صحراوية جافة ، تتطلب عتاداً من نوع خاص وصبراً على تحمل شظف العيش ، واستعداداً لاستقبال المفاجآت التي تصادفه خلف تلك الكثبان الرملية الحمراء . وهناك رأي يقول بأنه طلب إليه أن يؤدي مهمته ويعود إلى برقة وينتظره في أنطابلس .

وفي نظرنا أن مهمة عقبة كانت أهم بكثير من مهمة عمرو ، لأن عمراً عليه محاربة الروم ، وتطهير البلاد منهم ، متخذاً طريقاً مستقيماً فيه خصب وفيه حياة ، وهو إذا انتصر عليهم فسيهربون بحراً غالباً ، أما عقبة فإن حملته حملة جهادية هدفها الجهاد ، وتنقية عقول سكان الصحراء من الشوائب العالقة في أذهانهم ، وإدخالهم في الدين الإسلامي ، وتقديم العون المتوجب عليه من ناحية التعليم والتفقيه ، بالإضافة إلى كسر شوكة من يسعى إلى الوقوف ضده ، أو يحاول الهجوم على كتائب المسلمين المرابضة في الساحل .

اتجه عقبة إلى المناطق الجنوبية والداخلية بسرعة خاطفة ، فوصل إلى واحة عقيلة[1] . فتجاوبت معه ثم تابع طريقه إلى فزّان ، فوفق توفيقاً كبيراً بعد أن احتل أغلب مواقعها . وكانت القبائل تُبدي خضوعها التامّ لأسباب ذكرناها مفصلاً آنفاً ، ومُجملها :

١ — إيمان القبائل البربرية بنصر العرب بعد أن كانوا يعتقدون أن البيزنطيين لا يُغلبون .

---

١ مكان على البحر صغير ، يقع جنوبي بنغازي بنحو ٢٨٥ كم ، وغربي أجدابية بنحو ١٠٠ كم .

٢ — رغبتهم في التخلص من الحكم البيزنطي الجائر ، ومن الجندي الرومي المتعجرف بأية وسيلة .

٣ — وجود صلة تشابه بين القادمين والقاطنين .

٤ — تفكك الارتباط القبلي ، وعدم تجمعهم تحت قيادة حازمة واحدة ، لأننا سنرى أنهم عندما يحكمهم كُسيلة أو الكاهنة سيقفون وقفة العناد والعداء .

٥ — تخوّفهم من عنصر المفاجأة الذي كان يتبعه عقبة في هجومه . ولم يكن في اعتقادهم أن أحداً يستطيع عبور الصحراء . وساعد عقبة على ذلك تعودُ العربي على السير في الصحراء ، واعتماده الكلي على الجمال المعتادة على تخطي البوادي .

وتختلف روايات المؤرخين العرب في حملة عقبة ؛ فبعضهم يرى أن الرحلة الاستطلاعية التي قام بها ، والتي خرج بها من مصر هي هذا الجيش الذي وصل إلى فزان ، وحرّر هذه الأقسام الصحراوية . وآخرون يرون أن الرحلة الاستكشافية هي غير الجيش الذي خرج من برقة منفصلاً عن جيش عمرو . ونحن نميل إلى الرأي الثاني .

وأياً كان الأمر ، فإن عقبة تخصّص جيشه بالاستيلاء على مناطق الصحراء والواحات التي تحتلها بطون من لُواتة[1] ونفوسة وهوارة[2] . وقد كانت

---

١ لواتة : من أشهر قبائل البربر . كانت زمن الفتح العربي تسكن برقة . وهي من أكبر بطون البربر البتر . وينسبون إلى « لو » الأصغر وهو ابن « لو » الأكبر ، ولو الأصغر هو نفزاو . والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء ، فقالوا : لوات . فلما عربته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به الهاء (تاريخ الفتح العربي : ٢٢ — الكامل : ٣/٢٦)

٢ هوارة : من أشهر قبائل البربر ، وهي بطن من البرانس ، تنسب إلى « هوارين » أو « ريغ ابن برنس » جد البرانس . كان موطنهم زمن الفتح حول طرابلس ، إلى ما يقارب سرت ، وإلى قصر ميمون من ناحية الجنوب (تاريخ الفتح العربي : ٢١) .

مهمة عقبة صعبة ، وتُحيج قائدها إلى صفات خاصة تمكّنه من أن يكون رجلاً واسع الصدر ، من صفاته التحكُّمُ في الموقف ، وسياسةُ الشعب الساذج ، وتعريفُه بأمور الدين الجديد ومزاياه . . قبل أن يكون عسكرياً محنكاً . ويتبيّن من عبوره تلك المسافة الطويلة ، بهذه المـــدة القصيرة (من برقة إلى زويلة) ، والتي أنجز مهمته فيها سنة ٢٢ ، أنه وفّق تمام التوفيق .

وعندما بلغ عَمراً ما قام به عقبة من نصر ساحق ، كتب إلى الخليفة عمر يُنبئه بما حقّقه هذا القائد الفتى من نصر بين برقة وزويلة ، وأبلغه أن بعض القبائل دخل في الإسلام ، وأن من أسلم دفع الصدقة . وأن عقبة ردّ صدقة الأغنياء على الفقراء من أهل القبائل إصلاحاً لحالهم ، ورفعاً من شأنهم ، وأن من بقي على المسيحية دفع الجزية .

وجازاه عمرو بن العاص على انتصاره ونجاحه بأن عيّنه أميراً على برقة . فكان عقبة بذلك أوّل أمير عربي مسلم يتسلم إمارة ليبيا ، وكان ذلك سنة ٢٣ . وقد عُدّ هذا التاريخ بدءاً لعهد جديد على ليبيا ، ومرحلة جديدة لإعادة شعب هذا الصقع إلى كرامته . واعتبر عقبة منطقة برقة قاعدة له ، يبثّ منها إشعاع الدين الجديد ، ويمهّد لتركيز دعائم الإسلام ، ومُنطلقاً لتحرير الأرض من أغلال الجائرين ، والحكام المتسلطين .

وظل في نجاحه وتحريره ونشره للدين قرابة ربع قرن ، لا يعرف الراحة ولا الاستقرار . وعُزل عمرو بن العاص عن مصر ، فظل عقبة في مكانه في عهد عبد الله بن سعد عندما تسلّم إمارة مصر . ولا شك أنه زار مصر عدة مرات ، ولكن زياراته هذه كانت إمّا لعرض تطورات أعماله على أمير مصر ، وإما لطلب النجدات والمعدّات .

وسنتابع فتوح هذا القائد العربي في المغرب، وقصة بنائه لمدينة القيروان ، وغير ذلك من تسلسل أحداث شمال إفريقية على يديه وفي عصره .

الاستئذان بفتح افريقية

بعد أن اطمأن عمرو إلى فتح برقة وطرابلس والمناطق الصحراوية ، هدأت نفسه . ولكن الطموح شدّه بعد أن رأى الانتصار يتبعه ، وساقته الرغبة إلى دخول إفريقية ، وهي المنطقة التي تلي طرابلس في عرف القدماء . والذي دفعه إلى فكرة الإقدام ما بلغه من امتداد حصون البيزنطيين على ذلك الخط . فرأى أن مهمته التي بدأها في فلسطين منذ خمس سنوات تقريباً ما زالت قائمة ، وما عليه إلاّ أن يستأذن الخليفة عمرَ ، ويتابع الجهاد ، والذي حداهُ إلى طلب الاستئذان أسباب أهمها :

١ — أنه توجَّس من الإقدام والتغلغل والابتعاد عن مركز قوته .

٢ — أن طلائعه وأخباره أنبأته أن البلاد القادمة تعجّ بالروم والبربر الموالين لهم ، وأن القلاع عديدة وعنيدة .

٣ — وأن جيشه تعب كثيراً ، وتوزع في البلاد بين غازٍ وحامٍ وجريح عائد . وعليه أن يحصل على إمدادات جديدة تغذّي الفتح الجديد .

٤ — أن البلاد التي فتحها الآن هو وعقبة (وهي ليبيا) واسعة جداً ، وتحتاج إلى قوة تراقب التحرُّكات ، واستعدادٍ يصمد للتحرُّشات إذا ما أراد أن يتقدم في المغرب أكثر .

٥ — أن من عادته الاستئذان والاستشارة .

لكل هذا — ولحاجته إلى المدد خاصة — أحسّ بضرورة طلب الإذن

والسماح من عمر . ولو أنه كان بين يديه المدد الكافي لتخطّى صبراتة إلى قابس وما بعدهما ، ولاكتفى بإرسال رسائل النصر ، تُقرأ في مساجد المدينة بعد كل صلاة . ولكن الحاجة إلى الجيش والأسلحة هي التي دعته إلى التريث والكتابة، أملاً في أن يصله الردّ السريع بالإقدام، ولو وعداً . وكتب كتابه الموجز إلى عمر ، وكان غاية في الإعجاز المانع ، والإيجاز الناجع :

« إن الله فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلاّ تسعة أيام . فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »[1] .

وانتظر الردّ . . .

ولكن الخليفة الذي ينظر إلى جنوده بعين الرحمة ، ويتصوّر مدى الفائدة التي يجنيها الإسلام من هذا الإقدام ، أبى أن يمدّه ، بل أن يسمح له بالتغلغل أكثر ممّا فعل . وكيف يوسّع الفتح ، وجنود المسلمين لا تكفي لأن تقف وقفة الصمود ؟ وأن ما حقّقوه حتى الآن حصل بقدرة قادرٍ ، حريصٍ على نشر كلمته العليا ؟ يجب التريث إذاً ؛ فالمجاهل صعبة ومخيفة ، والجنود أبناؤه ، وقد طال بهم المدى . وبعد كل هذا التفكير والإمعان في الأمر أجابه :

« لا ، إنها ليست إفريقية ، ولكنها المفرِّقة ، غادرة مغدور بها — لأن أهلها كانوا يؤدّون إلى ملك الروم شيئاً ، وكانوا يغدرون به كثيراً — لا يغزوها أحد ما بقيتُ »[2] .

---

١ فتوح البلدان : ٢٦٦ . المغرب : ٣٩ . الحلة السيراء : ١٣/١ . ولم يذكر مؤلف البيان المغرب : ٢ ، النص بل قال : كتب إلى أمير المؤمنين يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثيرة ، وأهلها عديدون ، وأكثر ركوبهم الخيل .

٢ قال عمر (رضي) لمن حضر الرسالة بعد أن كرر اسم « إفريقية المفرقة » ثلاث مرات : لا أوجه إليها أحداً ما مقلت عيني الماء (أي ما نظرت) . فتوح إفريقية : ٣٤ .

ولن نتصوّر أن عمرَ لم يكن يشاركُ جنود عمرو وعقبةَ — وغيرهما — بعيونه وقلبه وعقله . بل من المؤكد أن رسلاً خاصين يعملون بإمرته ، كانوا يحكون له ما يجري ، وما هو المتوقّع . ولهذا قال قولته هذه ، وطلب منه أن يعود إلى مصر ، ويبقى فيها والياً .

فعاد عمرو أدراجه إلى برقة ، بعد أن وصلته رسالة أمير المؤمنين — حيث قدِمت إليه أكبر قبائل البربر ، تقدّم له واجب الطاعة ، وأهمها قبائل زناتة . وبعد أن اطمأن إلى تطهير البلاد من الروم ، ترك عليها عقبةَ أميراً متصرفاً بها — كما قلنا — ، وقفل راجعاً إلى الاسكندرية .

وسنرى — فيما بعد — كيف أن برقة غدت مُنطلق الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب ، بعد أن كانت الفسطاط تحتلّ هذه المكانة .

وفي طريق العودة ، جاءته رسالة من المقوقس تخبره أن الروم نقضوا المعاهدة ، ويريدون محاربته ، وعليه أن يعود لتهدئة الأوضاع . فعجّل عمرو في سيره ودخل مصر .

نظرة في فتح ليبيا

١ — كان هذا الفتح نقطة انطلاق جديدة في تاريخ الأمة العربية ، ومحطة تقدم قوافل الجهاد والاستشهاد في سبيل تثبيت دعائم الإسلام وقد تبع حملةَ عقبة الأولى عشر حملات امتدت خمساً وستين سنة كانت الأولى سنة ٢٢ ﻫ والأخيرة بقيادة موسى بن نصير سنة ٨٨ ﻫ ، حيث أقصى هذا القائد كل جيوب الكفر الممتدة غرب طرابلس ، وقاد الجيوش مع مساعده البطل طارق بن زياد .

ونتيجة لما درسنا رأينا أن ضمان تحرير فلسطين ، واستقرار الإسلام فيها كان بفتح مصر ، وضمان فتح مصر وتثبيت دعائم الإسلام فيها كان بفتح برقة وطرابلس ، وضمان فتح ليبيا والمغرب كان بفتح الأندلس .

والواقع فإن العرب لم يقاسوا من كثرة الحروب في ليبيا قدر ما قاسوا من اتساع رقعتها طولاً وعرضاً . ولو لم يسترفد عقبةُ المتطوعين من سكان البلاد المسلمين لهال الأمر عليه، وصعب ضمان تحرير البلاد بالسرعة التي حققها .

٢ — اختلف المؤرخون الغربيون والعرب على السواء في تحديد حدود « إفريقية » ؛ فبعضهم يعتبرها بدءاً من برقة ، وبعضهم الآخر يراها من طرابلس . بل إن آخرين يجزمون أن إفريقية ما كان بعد طرابلس ، أي من أطراف تونس (الحالية) إلى بحر الظلمات ، أو أنها « تونس » الحالية .

وكذا الأمر حاصل للمغرب ؛ فالمغرب في عرف بعضهم هي الأرض

التي تلي الاسكندرية ، أو أنها التي تلي طرابلس إلى بحر الظلمات . وهذا ما دعا العرب لأن يسموها طرابلس الغرب . فعلى هذا كانت « إفريقية » و « المغرب » كلمتين مترادفتين تؤدي كل واحدة منهما غرض الأخرى على أفضل الآراء .

ولما كانت الفتوح في شمال إفريقية على ثلاث مراحل : مصر ، وليبيا ، والمغرب (بما في ذلك إفريقية) فقد رأينا تقسيمها إلى هذه المراحل الثلاث . ومرّ بنا قبلاً كيف أن عمرو بن العاص بعد أن أتمّ فتح مصر اتّجه وعقبة إلى فتح ليبيا ساحلاً وداخلاً . وبعد أن اطمأن عقبة عليها ركز دعائم الإسلام ببناء « القيروان » ، ليعتبرها بدء المرحلة الجديدة للفتوح . وهذا يعني في نظره أن ما قبلها قد دان للإسلام وأن غربها ينتظره . وكانت بذلك (ليبيا) ولاية جديدة منفصلة عن مصر بكل شؤونها ، المالية والإدارية .

٣ — صحيح أن عدداً من القواد العرب دخلوا ليبيا والمغرب بعد عقبة وحاربوا وانتصروا ، ولكن التاريخ الصادق ينسب إلى عقبة شرف هذا الفتح لأنه :

أوّلُ من دخل البلاد .

وأوّل من بلغ بحر الظلمات .

وأوّل من بنى مدينة ومسجداً للإسلام .

وأوّل والٍ اهتم بشؤون الدين في ليبيا والمغرب .

وأوّل من عُني بترتيب أوضاعها وحماية أهلها .

وإذا كان الفاتحون الآخرون قد أحرزوا بعض الانتصار فلأنهم كانوا يسيرون على خطاه ، ويتبعون إرشاداته ، ويعتبرون بتجاربه . بل إن عدداً

منهم طلب إليه أن يسير معه في هذه المعارك كما أن عقبة هو الوحيد الذي قضى ربع قرن من حياته ، أي قرابة نصف عمره ، في تلك البلاد . وجعل هـــدفه الوحيد نشر الإسلام ، وعانى وتحمل السجن والعزل وقاسى الكثير في إقناع معاوية ويزيد ، إلى أن عاد ليتابع جهاده ، حتّى قيض الله له النجاح .

ولكن التاريخ جار على المغرب وعلى فاتحيه ، فلم يذكر منه إلاّ ما طارت أنباؤه، واشتهرت أخباره . فلم يُعنَ المؤرخون بتأريخ صغار الأحداث ولا بعض كبرياتها ، ولم يسجلوا ماجَرَيات الأعمال الباسلة التي كان يقوم بها رجال وهبوا أرواحهم لنشر الدين وتطهير البلاد بصمت .

ولم يكن التاريخ عامداً إغفالَ حق هذه البقعة وهذه الفئة ، إنما بُعد البقاع عن قلب الوطن العربي ، وندرة وجود المؤرخين الذين جابوا البلاد وسجلوا أحداثها ، وقلة الجغرافيين الذين جالوا في المغرب العربي جولاتهم في مشرقه ، كل هذا جعل تسجيلاتهم عن الشرق زاخرة ، وتأريخاتهم عن عقبة وصحبه نادرة . وإن وجدنا بعضها لمسنا تكراريّتها في أغلب كتب التاريخ ، وما ذلك إلاّ لأنهم تناقلوا الأخبار عن بعضهم بعضاً ، من دون أن يُعنوا بالشخوص بأنفسهم ليسجلوا الأحداث على طبيعتها .

٤ — لن نسير مع بعض المؤرخين ، فنعدّ ما بعد مصر متأخراً حضارياً وفكرياً ، لأن التاريخ القديم يثبت أن المغرب كله كان فيه حضارات قديمة وعريقة ، بالإضافة إلى الحضارات الأجنبية التي نشأت في بلادها وطعّمتها بكثير أو قليل كالفينيقية والإغريقية ، والبيزنطية أخيراً .

ولن ننسى أيضاً حركة التجارة القائمة بين جنوب البحر وشماله ، وأواسط القارة الإفريقية وشمالها . والتجارةُ ثقافةٌ ، والنقل البحري

يحمل في طياته أشياء وأشياء ، والاحتكاك (مهما كان شكله) ينجم عنه الكثير ، وكذا التطعيم .

والمدارس الأجنبية ، ومراكز الإشعاع الفكري كانت موجودة على طول السواحل ، ومراكز التبشير المسيحي كانت قائمة على قدم وساق ، والإنجيل نفسه يحمل بين طياته تعاليم سامية ، وأحداثاً تاريخية مهمة .

كما لم تكن البلاد كلها صحراوية كما كان يُظن ، تماماً كالجزيرة العربية ليست كلها رباعاً خالية ولا صحارى خاوية . بل فيها من المناطق ما يشبه بعض بلاد الشام – على قول بعض المؤرخين – من الخضرة وسخاء الأرض والغنى الزراعي . والاشتغالُ بالأرض يدل عند علماء الآثار على تطور حضاري متمايز . كما أن استيعاب هذه الأرض لهذه الجيوش المسلمة ، واحتمالها للقبائل القادمة دليل على كفايتها وزيادة خيراتها . وقد جاء في كتاب (المعجبِ) وصف حيٌّ لما بين الاسكندرية والقيروان يقول فيه المؤلف : « وكانت العمارة متصلة بين مدينة الاسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً . وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جداً ، فإذا ظهر في البحر عدو نوَّر كل حصن للحصن الذي يليه ، واتصل التنوير ، فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الاسكندرية أو من الاسكندرية إلى طرابلس في ثلاث ساعات ، أو أربع ساعات من الليل . فيأخذ الناس أهبتهم ، ويحذرون عدوهم [1].

وعلى هذا فلم تكن حملات المسلمين هذه منجرَّة إلى أرض قاحلة وفكر جدب إلاّ ما كان في الصحراء . ولعل هذا التيقظ الفكري وهذا الوعي

---

[1] المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ٣٠٠ .

الحضاري هو الذي سهل على عقبة مشاريعه ، وأوضح للبربر تعاليمه . وقد رأينا كيف أنهم كانوا يحكمون العقل بين الحاكمين آناً ويقارنون بين الدينين آناً آخر . حتى هداهم الله سواء السبيل .

عقبة يفتح النّوبة

استطاع عقبة أن يلفت انتباه قائده عمر ، ويشجعه لأن يعتمد عليه في كبريات أعماله . وما ذلك إلاّ لأن عقبة كان ينظر بعين الفارس اليقظ ، والداهية المتفكر في كل منطقة يمر بها ويتفرس في أمورها ومزاياها ، ويترصد النجاح لإظهار مقدرته الفريدة ، ويحرص على الفوز في أعماله كلها . وكان مع كل هذا الرجل العسكري الدؤوب الذي كان يستفيد من كل معركة ناجحة أو خاسرة .

فبعد أن قدم مع عمرو برقة ، وطهر المنطقة ، ومشط بعض القلاع ، وأثبت جدارة وفوزاً ندبَه عمرو — بعد برقة — لفتح بلاد النوبة ؛ ذلك أن عمراً بعد أن ضمن حدود الغرب لمصر ، أحب أن يضمن الجنوب أيضاً دون أن يستأذن الخليفة . والظاهر أنه لم يستأذنه لأنه لم يكن يريد لحرب النوبة مدداً ، أو أنه اعتبر هذا الفتح جزءاً من حملته على مصر ، كما جعل حملته على برقة وطرابلس جزءاً من فتوح مصر . وقد استأذن عمر في فتح المغرب لأنه تخطى الحدود المتاخمة .

وقد عقد اللواء لعقبة وهو في برقة ، فأعدّ جيشه ، وجهزه على الخطة التي أرادها . وسار نحو الجنوب ليدخل أرض النوبة . وقد ظن عقبة نفسه أنه سيلقى جيوشاً كالروم أو قبائل كالبربر ، بأسلحة اعتاد على صدّها ، وعتادٍ خبِر ردّه . ولكنه فوجىء بقوم بارعين بضرب النبال الصغيرة المسمومة ، وبأراض لا تشبه في طبيعتها طبيعة مصر أو ليبيا .

ولما عبر حدود النوبة خرج إليه قوم أساود كثيرو العدد استطاعوا أن يصدّوه منذ اللقاءات الأولى ويعيدوه القهقرى ، ذلك أن هؤلاء السود كانوا يضربون هذه النبال ولا يخطئون ، ويعينون مكاناً معيناً من أجساد المسلمين فيصيبونه . وكانوا يهدفون إلى العيون خاصة ، لأنها العضو الأكثر فعالية في الحروب اليدوية . وكان النبل لا يذهب طائشاً ، بل يصيب العين ويفقؤها . وقد سماهم العرب « رماة الحدق » وسموا المعركة « معركة الحدق » .

وعاد عقبة يحكي لعمرو عن هؤلاء الأقوام وعن أسلحتهم الجديدة عليهم . وأخبره أنه عاد بلا صلح ولا هدنة ولا نصر . واضطر إلى الانسحاب السريع خشية أن يفقد جنوده أعينهم جميعاً .

ولم يترك عمرو الحدود الجنوبية مكشوفة بلا رقيب ، بل أعد الكتائب ووزعها على تخوم النوبة ، تترصد تحركاتهم ، وتمنع اقترابهم من أرض مصر .

ولم تكن خسارة عقبة في النوبة خسارة بالمعنى الكامل ، بل كانت فتح باب جديد للجهاد ، سيلجه قواد آخرون ، يتلافون فيه أخطاء عقبة ويستفيدون من ملاحظاته وتجاربه . أما الذين فُقئت عيونهم فقد بشّر الرسول الجنود الذين حاربوا قبلهم وجاهدوا في سبيل الله وأصيبت أعينهم بأنها لن تمسها النار . قال الرسول : « ثلاثة أعين لا تمسسها نار جهنم : عين فقئت في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »[1] .

---

[1] شرح السير الكبير : ١/١٠ .

الفصل الثالث

عقبة بن نافع
وفتح المغرب

كلمة حول الفتح

لقد توالى على فتح المغرب عدد من القواد وتوافدت مجموعات من الجيوش كلها كانت تقدم واجبها المقدس نحو تحرير هذه الأرض ساعية إلى تحقيق أمنية عمرو بن العاص التي حرمه منها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكان من أهم هؤلاء القواد عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، ومعاوية ابن حُدَيج السكوني وعقبة بن نافع الفهري، وأبو مهاجر دينار ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان بن نعمان الأزي ، وختم الفتح موسى بن نُصير اللخمي . وكان لكل واحد من هؤلاء الصحابة والتابعين فضل يذكر وفضل يشكر . أما عقبة بن نافع فكان البطل الوحيد الذي تخطّى المغرب العربي كله من القيروان إلى السوس الأقصى ، وأمضى في هذه البقاع سنين طويلة من عمره . بل إنه روّى رمال تلك البقاع بدمائه الذكية فداءً لإعلاء كلمة الله .

من هنا ننطلق إلى فتح المغرب من وراء عقبة الذي شارك أغلب هؤلاء القواد ، وأسهم معهم في أكثر فتوحاتهم . وإن وقفنا عند كل واحد من هؤلاء فلأننا نسعى إلى إبراز فضلهم ، وتعداد أمجادهم ، وعرض ما قدموه من غزوات ومعارك في سبيل الجهاد . ولأننا أيضاً نبغي إلى إجلاء حقيقة جهاد عقبة الأكبر . على مدى ربع قرن قضاه فيما بين برقة والقيروان وطنجة .

ولما قتل عمر بن الخطاب (رضي) أهمل المغرب خمس سنوات ، فعاد البربر والروم إلى تمدُّدهم عوداً على بدء ، وإلى دينهم الذي كانوا عليه . فاستعادوا طرابلس وصبراتة وبعض الأطراف الأخرى ، ونقض

الروم العهد ، وازدادوا في تلاحمهم مع البربر . كل هذا حصل في غرب طرابلس ، أما في شرقها ونعني برقة فقد ظل فيها عقبة القائد اليقظ والعامل المدبر والمسلم الغيور . ولم يستطع عقبة في رأينا أن يذهب بنفسه لفتح طرابلس لأن هذا العمل يحتاج إلى جيوش مُعدّة، وأوامر من الخلفاء الراشدين وأمراء مصر المتتابعين . ولم يكن الوضع السياسي يساعده على ذلك . ولهذا كنا نراه يجاهد في المنطقة التي عينه عليها والي مصر عمرو بن العاص والذي أبقاه فيها هو ومن تبعه من الأمراء الآخرين .

وسنسعى في هذا الفصل إلى ذكر عدد من القواد والأمراء الذين فتحوا المغرب لنرى تطور الأحداث ، ونشهد مواقف عقبة في هذه الحقبة .

١ - عبد الله بن أبي سرح

من هو عبد الله :

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن حُبيب بن جَذيمة بن حِسْل بن عامر بن لؤي القرشي العامري ، ويكنى أبا يحيى [١] .

أمه مُهابة بنت جابر الأشعري ، وهي التي أرضعت عثمان بن عفان ، لهذا يقال إنه أخوه بالرضاع [٢] .

أسلم قبل فتح مكة ، وكان من المهاجرين ، وكان يكتب الوحي لرسول الله (ص) . ولما كان يغير فيما يمليه عليه الرسول أهدر الرسول دمه فخرج عبد الله هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً عن الإسلام . ويوم فتح مكة استأمن له عثمان لدى الرسول ، وكان قد غيّبه عن الأعين ، وتوسّط له وترجّى ، حتى قبل النبي وساطته وإسلام أخيه .

وكان يفر من مقابلة النبي (ص) حياء منه ، فشكا ذلك عثمانُ إلى الرسول فقال لعبد الله: الإسلام يجبُّ ما كان قبله . فكان بعد ذلك يجالسه ويسلم عليه [٣] .

---

١ انظر في ذلك أسد الغابة : ٣/١٧٣ . طبقات ابن سعد ٧/٤٩٦ . الإصابة : ٤/٧٦ . النجوم الزاهرة : ١/٧٩ .

٢ الإصابة : ٤/٧٦ . سيرة ابن هشام : ٤/٢٨ .

٣ تهذيب ابن عساكر : ٧/٤٣٤ .

طموحه :

كان ابن أبي سرح كثير الطموح ، راغباً في الوصول إلى المجد العسكري بسرعة . إذ لم يكتف بأن صار قائداً على ميمنة عمرو في مصر ، بل كان يسعى إلى أبعد من هذا . ولما انضوى تحت لواء عقبة بن نافع في فتح برقة عمل في الخفاء ليتسلم القيادة . دون علم عقبة — ولكنه أخفق لأن عمراً كان يحب عقبة ويطمئن إليه .

وظل يسعى في مصر ، ويحيك الأحبل في عهد عمر حتى عُيّن على خراج مصر ، ومن ثم على صعيدها . ولم يكتف بذلك بل أخذ ينافس عمراً ويباغيه، وقصدُه مضايقة الأمير ليتنازل عن الحكم وينفرد هو به . وواتاه الحظ في هذه الأثناء بقتل عمر وتعيين عثمان خليفة للمسلمين فانتهز الفرصة واستغل الرضاع ، فراح يعمل في الخفاء والعلانية . ونجحت مساعي عبد الله في عمرو ، فنزل الأخير إلى المدينة يطالب عثمان بعزل أخيه عن صعيد مصر فأجابه عثمان : ولاّه عمر الصعيد ، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ، وقد علمتَ أنه أخي في الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيري ؟ فغضب عمرو وقال : لست راجعاً إلى عملي ذلك .

ولما اعتزل عمرو حكم مصر كتب عثمان إلى عبد الله — وكان في الفيوم — يؤمّره على مصر كلها سنة ٢٥ هـ على ما ذكرنا مفصلاً في فصل سابق .

ولكن عبد الله لم يكتف بمصر ، وكان هذا من حظ الإسلام إذ عاد إلى مساعيه ليتسلم إمارة إفريقية أيضاً ليفوق بها ولاية عمرو ، ويفتحها في الوقت الذي مُنع عنها ابن العاص . وظل على عثمان يطالبه حتى وافق أخيراً .

ومهما كان الأمر فإن طموحه هذا نفع المسلمين كثيراً ، خاصة بعد عزل عمرو ، لأنه تمكن من الحصول على موافقة أمير المؤمنين على فتح إفريقية ، فكان أوّل قائد يدخلها كما سنرى .

ومن جملة طموحه الذي خدم فيه الإسلام ، رغبته في فتح النوبة التي لم يحرز عقبة فيها انتصاراً . وقد استطاع أن يبني فيها أوّل مسجد للإسلام .

جهاده

قبل ولاية مصر :

مما لا شك فيه أن ابن أبي سرح كان بطلاً من أبطال الإسلام الأوائل وقائداً فذاً من القواد المعدودين . فقد شارك المسلمين في فتح الشام وأظهر بينهم مقدرة عسكرية جبارة ، وعمل على نشر الدين الحنيف في ربوعها . ولما تجهزت جيوش عمرو لفتح مصر لحق بها ووضعَ بين يديه إمكاناته العسكرية . فاستفاد منه قائده ، وعينه قائداً على ميمنة خميسه [1] ، ثم تسلم إدارة خراج مصر وإمارة صعيدها [2] .

ولما استقر الأمر في مصر لعمرو بن العاص بعثه – فيمن بعث – عدة مرات لغزو بعض المناطق النائية من ليبيا وغيرها . وكان في كل مرة يعود ظافراً غانماً [3] .

---

١ النجوم الزاهرة : ١/٨٣ .
٢ فتح مصر والمغرب : ٢٣٣ .
٣ الكامل : ٣/٣٣ .

وقد امتاز جهاد عبد الله بأنه اتخذ صفة الاتساع في المساحة ، وصبغة التنويع في الحروب براً وبحراً . وكان النصر حليفه في كل غزواته .

ومن الجدير بالذكر أن عقبة لم يشترك معه في غزواته البحرية ، ولكنه كان الساعد الأوّل في جهاده البري .

١ ـ جهاده البحري

أ ـ فتح قبرس[1] : وكتب معاوية بن أبي سفيان ، وكان والياً على الشام ، إلى الخليفة عثمان بن عفان أن القسطنطينية لا تفتح إلاّ إذا فتحت جزيرة قبرس ، ليقطع على الروم الامدادات البحرية ، وليجعل هذه الجزيرة محطة للجيوش المسلمة القاصدة فتح القسطنطينية . فسمح له عثمان بذلك. ولما سار الجيش وصلت أنباء إقلاع سفن المسلمين إلى مصر ، أعدّ عبد الله بن أبي سرح أسطوله ، واتجه به قاصداً قبرس ، ليعين جيش معاوية في الحرب . ولما وجد الروم أن جزيرتهم مطوقة بسفن المسلمين من كل جانب ، عرضوا عليه الصلح ودفع الجزية[2] ، فوافق المسلمون على الصلح ، وعادت سفنهم أدراجها إلى موانئها الخاصة . وكان لعبد الله فضل كبير في هذا الانتصار ، وتجربة مثمرة في الحروب البحرية .

---

١ يكتبها بعض المؤرخين بالصاد وصحة رسمها بالسين كما ذكرنا فأغلب الأسماء الرومية تنتهي بالحرف « س » كطرابلس ونابلس . وهي جزء من التنوين في لغتهم .

٢ الاستقصا : ٣٥/١ .

ب – **معركة ذات السواري**[1] : لما علم ملك الروم بهزيمة جيوشه في شمال إفريقية أمام هجمات عبد الله بن أبي سرح ، وبأنه سبب عقد الصلح في قبرس ثارت ثائرته ، وقرر أن يلقن هذا القائد درساً لا ينساه ، والظاهر أن بلاط الروم أخذ يستعيد شيئاً من نشاطه وبعضاً من استقراره .

فأعدّ أسطولاً بحرياً ، قوامه خمسمئة سفينة[2] . حشد فيه المحاربين الأشداء ، والعتاد الحربي الفائض ، وأرسله بقيادة قسطنطين بن هرقل إلى مصر . ليضرب به المسلمين في قاعدتهم، ويستعيد مصر وليبيا منهم ، وذلك سنة ٣٤ هـ[3] .

ولما وصلت أنباء الحملة البحرية الكبيرة إلى عبد الله ، جمع المقربين وعرض عليهم الأمر واستشارهم بشأن هذا الهجوم ، وقال : « بلغني أيها الإخوان أن ابن هرقل أقبل إليكم في ألف مركب حربي ، فأشيروا علي ماذا أصنع » . وبعد مداورة وتفكير نهض أحد الأبطال وقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ .

ولقيت هذه الآية من نفوس المسلمين المجتمعين القبول الحسن ، فتشجعوا ووافقوا صديقهم . فقال لهم عبد الله : « اركبوا باسم الله » .

وبدؤوا بإعداد العدد وإرسالها إلى الاسكندرية ، ثم لحقوا بها لينظموا أمر الحرب على السفن . ولكنهم فوجئوا بوجود مئتي سفينة فقط مستعدة لخوض عباب البحر[4]، وبعدد ضئيل من المحاربين بالنسبة إلى أعداد الأعداء .

---

١ وتكتب بالصاد كذلك . الطبري ٣/٣٣٨ . الكامل : ٣/١١٧ .
٢ وفي رواية ستمئة .
٣ النجوم الزاهرة : ١/٨٠ .
٤ فتح مصر والمغرب : ٢٥٦ .

ومع هذا أخرجوا مستعينين بالله الذي أنجدهم بسفن المسلمين قادمة من الشام بقيادة معاوية ، فقوى ذلك من عزائمهم وشدّ من أزرهم .

كانت الريح في بدء المعركة غير مناسبة للمسلمين ، فانتظروا هدوءها ، وباتوا ليلتهم يقرؤون القرآن ، بينما كان الروم يضربون بالنواقيس . وفي الصباح الباكر هدأت الريح فجدفوا سفنهم إلى عُرض البحر ، وقربوها من سفن الروم ، ثم ربطوها إلى بعضها ، حتى تكون جداراً متيناً يصعب على الروم اختراقه ، وحتى يتسنى للمسلمين الانتقال على السفن بسرعة ويسر . وكان المكان قريباً من الاسكندرية[1] .

ووقف عبد الله بجنوده خطيباً يحضهم على تقديم أرواحهم فداء للحق الذي وجههم إليه الرسول ، ويعلمهم أن الحرب البحرية تلمع فيها السيوف وتتطاير الخناجر . وأن النبال يضعف مفعولها في مثل هذه المواقف . ويعظهم بالتمسك في تلاوة القرآن ، وهم يحاربون لتقوى أفئدتهم وتتماسك قواهم .

واحتدمت المعركة ، واحترب الطرفان . وقتل من المسلمين ومن الروم ما لا يحصى . غير أن المسلمين صبروا ، ولم يسمحوا للعدو باختراق خط دفاعهم الذي نصبوه . وقد قدم المبارزون بطولات محمودة إلى أن انهزم الروم وتفرقت سفنهم وسط البحر ، وهربوا يحملون معهم قسطنطين جريحاً[2] .

وكاد عبد الله في هذه المعركة أن يقتل عندما ترصدت له ثلاثة من جنود الروم ، وحاولت جذب سفينته إلى مكان ناءٍ لتضربه هناك . ولما رأى أحد المسلمين محاولة الروم قفز إلى السفينة ، وقطع الحبل بسيفه مُحبطاً

---

١ النجوم الزاهرة : ١/٨٠ .

٢ تاريخ الأمم والملوك : ٣/٣٤١ .

بذلك ما أراده الروم . ولو أن عبد الله قتل أو أسر لفتّ في أعضد المسلمين ، وحلت بهم الهزيمة .

وعاد جيش عبد الله إلى الاسكندرية ظافراً ، وقد سميت هذه المعركة بمعركة ذات السواري لكثرة سواري السفن الشاهقة في عرض البحر ، وكان ذلك سنة ٣١ هـ[1] .

٢ — جهاده البري

اتجهت أنظار عبد الله إلى الفتح غرباً وجنوباً ، وهما المنطقتان اللتان عجز عن فتحهما عمرو بن العاص وعقبة بن نافع كما أسلفنا .

أ — فتح النوبة جنوباً : غزا عبد الله بلاد النوبة والبـِجَة سنة ٣١ هـ . فرآهم على الدين المسيحي ، وقاتلهم قتالاً شديداً . فصمدوا أمامه صمودهم أمام عقبة . ولم يستطع فتح البلاد . وهو إذا لم يحقق نصراً استطاع أن يحرز بعضه . ويتضح ذلك من المعاهدة التي أجراها مع ملكهم . وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — عهد من الأمير عبد الله بن سعد لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته .

٢ — عهد عقده على الكبير والصغير من أهل النوبة ، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة .

---

١ الكامل : ٣/١١٧ . وترى بعض الروايات أنها جرت سنة ٣٤ . أما تتمة الرواية فتقول : إن قسطنطين سار في مركبه إلى صقلية . فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم . فقالوا : أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ، ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم . ثم أدخلوه الحمام وقتلوه ، وتركوا من كان معه في المركب وأذنوا لهم في السير إلى القسطنطينية .

٣ ـ إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة ، جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاؤوهم من أهل صعيد مصر ، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة .

٤ ـ إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله ورسوله (ص) أن لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حرباً ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم .

٥ ـ أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه .

٦ ـ وعليكم حفظ مَن نزل بلدكم ، أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم .

٧ ـ وإن عليكم ردّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين ، حتى تردوه إلى أرض الإسلام . ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده ، وحاوَرَه إلى أن ينصرف عنه .

٨ ـ وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسُه وإسراجه وتكرمته .

٩ ـ وعليكم في كل سنة ثلاثمئة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أواسط رقيق بلادكم ، غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث . ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . تدفعون ذلك إلى والي أسوان .

١٠ ـ وليس على المسلمين دفع عدو عرض لكم ولا منعه من حد أرض علوة إلى أرض أسوان .

١١ ـ فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً ، أو تعرضتم

للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلاثمئة رأس والستين رأساً فقد برئتْ منكم هذه الهدنة والأمان ، ونحن وأنتم على حرب حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

١٢ — علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد (ص) . ولنا عليكم أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين ، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

١٣ — كتبه عمرو بن شُرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين [١] .

وقد وصف هذه المعاهدة بأنها اقتصادية [٢] مسالمة ، وأنها عُقدت بين قوتين ذَواتَيْ تعادل ، أو كالندّ للند . ولكن النصر الأكبر الذي حققه عبد الله ، أنه بنى مسجداً على باب مدينة ملكهم ، وشرط عليهم حفظه أبداً . وما عتمَ أن أسلمت أقوام البجَة [٣] كلهم . وبقيت النوبة والحبشة خاصة دون سائر السودان منهم نصارى ، وما ارتفع من بلادهم ظلوا يعبدون الأصنام ، ويسمونها الدقرة [٤] . وعندما وصل عبد الله إلى دُمْقلة [٥] في بلاد النوبة قال أحد الشعراء :

لم ترَ عيني يومَ دُمْقُلَه والخيلُ تَعدو بالدروع مُثْقَلَه

....

١ الخطط : ١/٢٠٠ .

٢ تاريخ الإسلام : ١/٢٦٦ .

٣ البجه أو البجاه : قبائل من بني حام ، تعيش بين النيل والبحر الأسود في السودان .

٤ جوامع السيرة : ٣٤٥ . فتوح مصر والمغرب : ٢٥٢ .

٥ دمقلة : اقليم في منطقة النوبة على ضفتي نهر النيل الأعلى في السودان . ودمقلة قاعدة هذا الإقليم ومنزلة ملك النوبة . طول بلادها ثمانون ليلة على النيل . وتلفظ دنقلة ودنكلة (معجم البلدان) .

ب — فتح إفريقية غرباً : لم يكد عبد الله يهدأ من معركته في النوبة ، حتى أخذ يستعد للهجوم على إفريقية ، وشرع يرسل الكتائب وجرائد الخيل لكشف أحوالها [1] . وكان عقبة بن نافع في برقة ينظمها أو يقودها ، ثم يعيدها إلى الفسطاط ، تحمل لأميرها أنباء مشجعة على الفتح ، وغنائم تحثّ على الإسراع في الحملة .

فكتب عبد الله إلى عثمان بن عفان ، يخبره بقرب إفريقية من حرز المسلمين ، ويحكي له نتائج اكتشافاته ، ويستأذنه في غزوها ، ويستحثه على الاستكثار من الجموع عليها . فاستشار عثمان مَن عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بالفتح . فجهز إليه العساكر من المدينة ، وتوافد المسلمون يطلبون السماح بالاشتراك في الجهاد [2] . واجتمع في هذه الحملة عدد كبير من الصحابة والتابعين ، وسارت القبائل والمتطوعون بعد أن خطب فيهم عثمان قوله : « لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد ، فيكون الأمر إليه ، واستودعتكم الله » وقد تبرع عثمان — كعادته دائماً — بألف بعير ، عدا الأحمال والأسلحة والخيل . وسارت القوافل سنة ٢٧ هـ [3] ، قاصدة مصر . وكتب إلى عبد الله : « إنْ فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس » [4] .

ولما وصل الجيش استقبله عبد الله وأضاف عليه ما عنده من جنود مسلمين

---

١ فتوح إفريقية : ٣٦ فتح مصر والمغرب : ٢٤٦ .

٢ فتوح البلدان : ٢٢٨ .

٣ وفي رواية : ٢٦

٤ الاستقصاء : ١/٣٧ .

وأقباط حتى بلغ عشرين ألفاً[1] . وقد سميت هذه الحملة بغزوة العبادلة[2] . وسبب ذلك أنه اجتمع فيها سبعة من الصحابة كل واحد منهم اسمه عبد الله وهم : عبد الله بن عباس ، عبد الله بن أبي سرح ، عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم أجمعين . فعين على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وخرج في مقدمة جيشه . ولما وصلوا إلى برقة لقيهم واليها عقبة بن نافع فانضم إليهم فيمن معه من المسلمين ؛ عرب وبربر ، ووجه نصائحه إلى القواد قبل أن يسير الموكب .

واتجهت الحملة إلى طرابلس منتصرة في كل مراحلها . وفوجئوا بطرابلس بعودة سكانها إلى طبعهم السابق وتحصنهم بها ، فتركوها ليلحقوا بجرجير الذي كان قد احتلها ، وهو حاكم سبيطلة . ودخل الجيش إفريقية وعاصمتها آنئذ قرطاجنة . ولما وصلوا إلى قابس[3] وجدوا البيزنطيين قد تحصنوا داخل أسوارهم ، ولكن عبد الله تبع خطة جديدة لم يستخدمها عمرو بن العاص ، وهي تلافي الحصار الطويل المدى إلى أن يَستتبَّ له أمر القلاع الصغيرة ، ويتفرغ للضربة الأصلية القاضية . فتركها وتابع طريقه .

ولما دنا من سبيطلة خرج إليه جرجير (واسمه جريجوريوس) بجيش لجب قوامه ١٢٠ ألف مقاتل . والتقى الجيشان قرب العاصمة ، في مكان يدعى عقوبة[4] . ودارت الحرب ، وأبلى المسلمون بلاء حسناً ، غير أن

---

١ فتوح البلدان : ٢٤٧ .

٢ تاريخ ابن خلدون : ٢ / ١٢٨ .

٣ قابس : مدينة تقع بين طرابلس وصفاقس ، وهي على ساحل البحر .

٤ فتوح البلدان : ٢٢٨ .

جيش المسلمين كان يبدو ضئيلاً أمام جموع الروم والبربر ، فوجم عبد الله ، وأحس بضعف جيشه أمام العدو ، وانزوى يفكر في حلٍّ قبل أن ينكشف جيشه[1] .

وفوجىء عبد الله، وهو على هذه الحال، بعرض الصلح يصل إليه من قائد الروم على أن يدفع له ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار (أي ثلاثمئة قنطار ذهباً) ، على أن يرتحل العرب عن البلاد ويكفّ عبد الله عن الفتح .فاهتبل هذه الفرصة لإنقاذ جيشه وتغطية ضعفه ، وأحسن إذ وافق وعاد إلى مصر بعد أن أمضى في غزوته سنة وثلاثة أشهر دون أن يستخلف أحداً على إفريقية : وكتب إلى عامله بمصر أن يبعث إليه بالسفن إلى طرابلس لتحمل غنائم المسلمين ، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته السفن بها وحملت الغنائم مستخفّة بأساطيل الروم وجيوشهم .

غير أن المعاهدة التي اتفق عليها الطرفان ما كانت إلاّ مؤقتة ، تصنّعها جرجير ليستعد استعداداً أكبر ، ويجمع الروم والبربر ، ويجهزهم تجهيز الواثق من النصر . إذ إنه سرعان ما نقض المعاهدة ، وخان المواثيق التي صكها .

ولما بلغ الأمر عبد الله في مصر – ولعل عقبة المرابض في برقة هو الذي طير له الخبر – عاد إلى إعداد الحملة ثانية ، وصمم هذه المرة على النصر . وسارت الجيوش إلى طرابلس ، وتوقفت هناك تنتظر الكشافة التي أرسلها عبد الله لمعرفة أسرار الجيش الرومي ، وقوة جرجير . ولما عادت أعلمته أن الجيش كبير ، وأن الروم يفوقونهم عدداً وعدة ، ولا يفوقونهم هوًى ورغبة .

---

١ تاريخ الدولة العربية : ٤٩٧ .

وصمم على الحرب فسار إلى قفصة[1] ، وبعدها التحم الجيشان . كانت معركة ضارية اندلعت فيها النيران بين الصفوف وتطايرت السهام من بين الطرفين . وظلوا هكذا مدة طويلة ؛ يحتربون بعد صلاة الصبح ، ويتوقفون عند صلاة الظهر . وكانوا عندما تهدأ الحرب يستريح الروم من سيوف المسلمين ، ويستعد المسلمون للهجوم في اليوم الثاني . . وهكذا .

وفكر جرجير بطريقة يتخلص فيها من قائد المسلمين ابن أبي سرح . وعلم أنه إذا ما تخلص منه انفرط عقد جيشه ، وتنكس لواء المسلمين ، فوقف يخطب في جنوده ويحثهم على قتل رأس الجيش لتتوقف الأعضاء عن المعركة ، وقال : « وإن من يأتيني برأس عبد الله وهبته مئة ألف دينار رومي ، وزوجته ابنتي الأميرة » .

ألهب جرجير قلوب جنوده بهذا الوعد . فتسابقوا إلى اختراق الصفوف ، وكل واحد منهم يسعى إلى الوصول إلى عبد الله ليظفر بالثمن الموعود . وأحس عبد الله الأمر غير طبيعي ، وتساءل عن هذا التجمع حوله! وتيقّن أن في الأمر سرّاً . فانسحب إلى مؤخرة الجيش ينتظر انتهاء اليوم ليفهم أسباب هذا التجمع .

وعندما توقفت رحى المعركة جاءه القواد العبادلة ، ومعهم عقبة يسألونه عن سبب تراجعه ووجومه، فحكى لهم القصة . فاهتم عبد الله بن الزبير للأمر وطلب من الكشافة أن تستطلع الأمر من بين جنود الأعداء ، فجاؤوهم بخبر خطبة جرجير ، ووعده الذي قطعه . فقال له : سنقدم لجنودنا ما هو أفضل من هذا . وبعد أن تشاور القواد نهض عبد الله خطيباً بجنوده قائلاً :

---

١ قفصة : بليدة في أقصى المغرب بينها وبين القيروان شرقاً ثلاثة أيام .

« اعلموا يا معشر المسلمين أن الملك جرجير وعد جنوده بأن من يقتلني سيعطيه مئة ألف دينار ويزوجه ابنته . وإنني أعلمكم أن من يقتل قائد الروم هذا له مني مئة ألف دينار ، وأزوّجه ابنته ، وأعينه والياً على قرطاجنة مكانه » .

وعادت رحى الحرب تدور بعد أن تعادل حماس الجيشين ، وامتلأت نفوس الفئتين شوقاً إلى قتل رئيس عدوها . ولم يلتحم الطرفان حتى اخترق المسلمون الصفوفَ غير هيّابين يريدون رأس جرجير . ولما رآهم جرجير يسرعون نحوه هرب من وجوههم ، وغاب عن أعينهم .

ولم يعجب عبد الله بن الزبير بخطة عبد الله بن أبي سرح الحربية ، ورأى أن الأيام تمضي ، والمسلمين ينقص عددهم دون أن يُحرزوا نجاحاً ، وكأن الأمر مجرد مناورات فأعدّ خطة جديدة وافق عليها القواد ، تقضي بأن يقسم المسلمين إلى كتيبتين ؛ تبدأ الأولى بالحرب بعد صلاة الصبح ، وتبقى الثانية في خيامها مختفية مُستريحة . حتى إذا أزف وقت الظهيرة وتوقف الطرفان فاجأوهم بهجمة ضارية .

وتسلم ابن أبي سرح قيادة كتيبة الصباح وابن الزبير قيادة هجوم الظهيرة . وأدى الجنود في الصباح واجبهم خير أداء ، حتى إذا أذن الظهر ، وتوقف الروم ينشدون الراحة حمل عليهم ابن الزبير حملة مباغتة أطارت صوابهم ، فهربوا دون سلاح ، وطاردهم فتفرقوا . ولما وصلت بشائر نجاح الخطة إلى الكتيبة الأولى نسي رجالها تعبهم ، واستعادوا بالظفر قواهم . فكبروا وهجموا يلاحقون العدو ، فمنهم من لاذ بالفرار ، ومنهم من تحصن في سبيطلة وراء الأسوار . وتبع ابن الزبير جرجيرَ إلى أن ظفر به وقتله ، ويقول ابن الزبير : « فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف ، وهو

راكب على برزون ، وجاريتان تظلاّنه بريش الطواويس . فذهبت إلى عبد الله بن سعد فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري ، وأقصد الملك . فجهز معي جماعة من الشجعان ، فأمر بهم فحموا ظهري . وذهبت حتّى فرقت الصفوف إليه ، وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك . فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففرّ على برذونه ، فلحقته ، فطعنته برمحي ، وذففت عليه بسيفي ، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح ، وكبرت . ولما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا، يتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون »[1] .

وبعث ابن أبي سرح السرايا ليفرّق جيش الروم ، فأصابوا غنائم كثيرة . ولما رأى رؤساء المدن ما حلّ بملكهم طلبوا إلى ابن أبي سرح أن يأخذ منهم مالاً ، ويخرج من بلادهم . فقبل ابن أبي سرح ، وأخذ منهم الأموال بعد أن فتح سبيطلة ، وجمع منها ما لا يُحصى[2] .

فوزع عبد الله الغنائم على المسلمين ، وكان سهم الفارس منهم ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً . أما ابنة جرجير ، فيروى أنه حار لمن يعطيها بعد أن نفى ابن الزبير أنه قتل أباها . ولكن ابنته قالت لقائد المسلمين : « أعرف من قتل أبي » . ومرّت من بين المسلمين ، وأشارت إلى ابن الزبير . فسأله ابن أبي سرح مُعاتباً : « لمَ كتمتنا قتلك جرجيرَ ؟ » فقال : قد علمه الذي قتلته . فقال ابن أبي سرح : لك ابنتُه[3] . ولما اعتذر عبد الله عن أخذها

---

١ البداية والنهاية : ١٥٢/٧ .

٢ يعتبر بعض المؤرخين أن ابن أبي سرح غزا إفريقية غزوة واحدة جرى فيها كل ما ذكرنا . ويرى آخرون أنه حمل على جرجير مرتين ، ويجعلون الحملة الأولى سنة ٢٧ ، والثانية سنة ٣٤ أو ٣٣ ، بل إن بعضهم يعد إحدى الغزوتين غارة خاطفة وحسب .

٣ البيان المغرب : ٧/١ .

وقعت لرجل من الأنصار ، فأركبها بعيراً ، وارتجز بها ، يقول :

يا بنة جرجير تمشّي عـُقـْبتك إنَّ عليكِ بالحجازِ ربـّتك
لتحمِلنَّ من قـُباء قـِرْبتك[1]

قالت : وما يقول هذا الكلب ؟ فأُخبرت بذلك . فألقت نفسها عن البعير الذي كانت عليه ، فاندقّت عنقها ، فماتت[2] .

أما عبد الله بن الزبير ، فقد أرسله ابن أبي سرح إلى عثمان يحمل بشارة فتح إفريقية ، وما كان من أمر تلك الغزوة . فأعجب عثمان ، فقال له: هل تستطيع أن تـُخبر الناس بمثل هذا ؟ . قال : نعم . فأخذ بيده حتى انتهى به إلى المنبر . فقام بالناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إن الله فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله »[3] .

ثم قال : « اقصص عليهم ما أخبرتني » . فتلكأ عبد الله ، فأخذ الزبير (أبوه) قبضة حصباء ، وهمَّ أن يحصبه بها ، ثم تكلم كلاماً أعجبهم[4] .

أما عبد الله بن أبي سرح ، فقد عاد من إفريقية إلى مصر ، ولم يفقد من رجاله إلاّ ثلاثة آلاف نفر ، قـُتل منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فدُفن

---

١ يرى عبد الله المالكي أن ابن الزبير قال فيها لما بلغه أنها سألت أباها أن ينحلها العرب :

ابنة جرجير تلقي نحلتك لقيت بالنحلة ثكلى أبتك
لتأخذن في الطريق عقبتك لتسقين شر ماء قربتك
شر عجوز بالحجاز ربتك (رياض النفوس : ١٣) .

٢ فتوح إفريقية : ٣٨ . الكامل : ٣/٩٠ .

٣ العقد الفريد : ٢/٣٧٥ .

٤ فتوح إفريقية : ٤١ .

هناك : وكان جيشه كله عشرين ألف مقاتل[1] .

أما عقبة ، فقد ساير الجيش إلى أن وصل برقة ، فودّعهم هو وجموعه ، وبقي في مكانه ، يؤدي مهمته التي كان عليها . . وهي نشر الدين بين جموع البربر .

---

١ الكامل : ٣/٩٠ .

نهـــايته

ولما قُتل عثمان بن عفان ، عُزل عبد الله ، لأنه لم يبايع علياً ، كما لم يبايع معاوية [1] . فقصد بلاد الشام ، واستقر في عَسْقلان بفلسطين ، واعتزل الناس والسياسة والفتنة [2] ، واشتغل بالعبادة . وكان دعا ربه أن يُميته في الصلاة بقوله : « اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح » [3] . وفي صبيحة أحد الأيام ، وبينما كان يصلي الصبح ، سلّم على يمينه ، وقبل أن يسلم على شماله فاضت روحه . وكان ذلك سنة ٣٧ — وقيل سنة ٣٦ — ، ودفن في مقابر قريش بعسقلان [4] .

غير أن أهل أوجلة [5] — منذ قديم الأزمان وحتى هذا اليوم — في ليبيا ، يعتقدون أن الضريح الذي يزورونه ، ويتباركون به هو ضريح الصحابي عبد الله بن أبي سرح . ويزعم أهالي أوجلة أنه هرب ، بعد فتنة عثمان ، وخوفاً من قتله من قبل أهل مصر المعادين لأخيه عثمان ، إلى جنوبي برقة في طريقه إلى زويلة ، وتوفي في أوجلة .

---

١ أسد الغابة : ٣/١٦٤ .

٢ معالم الإيمان : ١/١١٢ . تهذيب ابن عساكر : ٧/٤٣٣ .

٣ النجوم الزاهرة : ١/٨٣ .

٤ النجوم الزاهرة : ١/٨٣ .

٥ اسم واحة تقع في الجنوب الغربي من أجدابية بنحو ٢٦٠ كم ، وهي من أعمال برقة . يقول الشيخ طاهر الزاوي : ومن الشائع عند سكانها أن بها قبر عبد الله بن سعد بن أبي سرح الصحابي .. وأهل أوجلة متفقون على وجوده فيها (معجم البلدان الليبية : ٤٢) .

ولا نستطيع أن ننفي هذا الرأي ، ولا أن نوافقه ، لعدم وجود رأي ثابت في هذا الموضوع . فلعل الأمر صحيح ، ولعل الضريح لأحد الصحابة العبادلة الذي قدموا معه في غزوته ، أو لعله لأحد أبنائه .

أما الثابت تاريخياً فهو أنه عندما عاد عبد الله من المدينة إلى مصر ، لتهدئة الفتنة المستعرة في مصر بشأن عثمان ، منعه أهله من دخول مصر . فعاد أدراجه إلى فلسطين ، وأقام في الرملة أو عسقلان[1] .

وقد اتصفت غزوات ابن أبي سرح بالانتصارات المذهلة ، وبالسير في الآفاق الشاسعة . غير أن المأخذ الوحيد – والمهم جداً في نظر التاريخ – كان بتراجعه عن البلاد التي كسبها دون أن يعيّن عليها والياً ، مكتفياً بالأموال التي غنمها . وكأنه كان يكتفي بالأرباح دون نشر الإسلام ، على عكس سابقَيه ؛ عمرو وعقبة .

---

١ الولاة والقضاة : ١٧ .

٢ ـ مُعاوية بن حُدَيج

من هو ؟

هو معاوية بن حُديج[١] بن جفنة بن قنبرة بن حارثة بن عبد شمس . . . السكوني ، ويكنى أبا نُعيم[٢] .

إسلامه :

لم يشهد معاوية غزوات الرسول (ص) لأنه كان صغيراً آنئذ . غير أنه وفد عليه وأعلن له إسلامه ، وروى عنه بعض الأحاديث ، واتصل بأبي بكر الصديق[٣] .

جهاده :

قدَّم معاوية كل حياته هبة للجهاد في سبيل الله ؛ فلم يترك معركة بعد أن شب إلاّ خاض فيها ، وبرز في أعماله كلها . فقد اشترك في فتح مصر ، والنوبة ، وإفريقية ، وخاضت أساطيله البحر الأبيض لاحتلال بعض الجزر .

١ ــ في مصر والنوبة : شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان

---

١ لفظه بعضهم بالخاء (خديج) منهم مؤلف أسد الغابة .

٢ أسد الغابة : ٣٨٣/٤ . الاستيعاب : ١٤١٣/٣ . الاصابة : ١١١/٦ .

٣ طبقات ابن سعد : ٥٠٣/٣ . الاستقصا : ٦٨/١ .

من القادة المقربين ، ومن تلاميذ عمرو العسكريين المخلصين . وكان عمرو يثق به ويطمئن إليه كثيراً . وكان هو رسول البشرى إلى عمر بن الخطاب بعد فتح الاسكندرية . وقد سرّ عمر بقدومه وبرسالته ، وأعلن في المسجد الأنباء التي حملها معاوية بن حُدَيج[1] .

ولما ولي ابن أبي سرح إمارة مصر ، وتجهز لفتح النوبة انضوى معاوية تحت لواء الجهاد ، وكان من السباقين في المعارك ، وأبلى هناك بلاء حسناً ، ولكنه فقد إحدى عينيه في دنقلة[2] .

عندما حصلت الفتنة ضد عثمان ، أخلص له دون أن يسعى إلى ظفر أو إمارة من وراء هذا الإخلاص . بل ظلّ في مصر منعزلاً ، يشهد الأحداث عن بعد . ولما قدم محمد بن أبي بكر والياً من قبل علي ، امتنع عن مبايعته، وبالتالي ، أحجم محمد عن إكراهه لمكانته وقوته . ولما عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر ، تعهد معاوية قتل ابن أبي بكر بنفسه ثأراً لعثمان[3] وعاد إلى ولائه لعمرو بن العاص ، ولابنه عبد الله بن عمرو .

وفي سنة ٤٧ هـ ولاه معاوية إمارة مصر وما يفتحه من إفريقية . فلم يعزل عقبة بل أثبته في مكانه ببرقة ، واستعان به في فتوحه التي ستراها بعد قليل ، وعينه على بعض فتوحه في الغرب . غير أن معاوية بن أبي سفيان عزله عن إفريقية، وثبته على مصر سنة ٥٠هـ ، وما لبث أن عزله عنها أيضاً سنة ٥١ هـ . فلم يخرج من مصر بعد عزله ، واعتكف في منزله عاماً توفي فيه سنة ٥٢ هـ .

---

١ فتح مصر والمغرب : ١٣٧ . الاستقصا : ١/٧٨ .
٢ تهذيب التهذيب : ١٠/٢٠٤ .
٣ يروى أن زوجة عثمان قبلت قدمه عندما رأته ، وقالت له : أخذت ثأري من ابن الخثعمية .

٢ ـ في إفريقية (المغرب) : كان معاوية أحدَ قادة الفتح اللامعين في المغرب ، وأحد الأبطال الظافرين . فقد فتح مناطق شاسعة ، وثبت ما قام به غيره من القواد . ونشر الإسلام بين البربر ، وسعى إلى تعليم القرآن بين القبائل . وهي الرسالة التي تبناها عقبة بن نافع في برقة خاصة والمغرب كله عامة . وقد امتازت حملاته بأنها ضمَّت خيرة الصحابة والتابعين أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، ورويفع بن ثابت الأنصاري .

يحكى أنه غزا إفريقية ثلاث غزوات ، كان الظفر حليفه فيها كلها . وكانت على التوالي سنة ٣٤ ، وسنة ٤٠ (ويروى ٤١) وسنة ٥٠ (ويروى ٤٦) .

الغزوة الأولى : ففي سنة ٣٤ ، وقبل أن يذهب عبد الله بن أبي سرح إلى إفريقية أغزاه عثمان بن عفان إفريقية . ولعل حملته هذه كانت إحدى الحملات الاستطلاعية لعبد الله التي قام بها في سنته نفسها .

فنزل في برقة ؛ محطة المسلمين الأولى بعد مصر ، وتابع طريقه إلى طرابلس وكانت تابعة للمسلمين . ثم دخل إفريقية فأصاب فيها . وفتح بعض المناطق ، وانتصر في لقاءاته ضد الروم والبربر . ثم اتخذ قيرواناً له عند جبل القرن ، وهو موضع القيروان الذي بناه عقبة بعد خمسة عشر عاماً تقريباً . ولم يزل فيه حتى خرج إلى مصر[١] .

الغزوة الثانية : وفي سنة ٤٠هـ قدم إفريقية بطريق جديد مكان جرجير الذي قتله عبد الله بن الزبير ، بعث به هرقل ملك القسطنطينية ، فنزل في

---

١ تاريخ المغرب الكبير : ٢٢/٢ .

قرطاجنة وطالب البربر والعرب المقيمين في إفريقية بثلاثمئة قنطار ذهباً ، كما أعطوا ابن أبي سرح . فأبى الوالي القديم الذي عينه الشعب مكان جرجير ، ورفض أن يظلم الشعب ، ويحمّله ما لا يطيق . بل طلب إليه أن يترك البلاد في أمنها وينصرف . غير أن البطريق الجديد أصرّ على تنفيذ الجباية . فما كان من خليفة جرجير إلاّ أن رحل إلى الشام ، وقابل معاوية بن أبي سفيان ، وناشده أن يبعث معه جيشاً لطرد البطريق الجديد[1] .

فسير معاوية جيشاً من الشام[2] إلى مصر ليترأس قيادته معاوية بن حديج . وكان في حملته عامئذ عبد الملك بن مروان . وعبر برقة قاصداً طرابلس ، فلم يرها نقضت عهدها مع المسلمين ، فعين عليها أميراً جليلاً هو الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري ، فأمِن بذلك انتقاض أهلها ، كما حفظ خط رجعة الجيوش .

وتابعت الجيوش طريقها حتى نزلت قمُونية (وهو الموضع الذي بنى عقبة فيه القيروان) . واشتبك الجيش العربي مع البيزنطي ، فكان النصر حليف العرب . وهرب البيزنطيون ، وتحصنوا في سوسة . فعسكر ابن حُديج في جبل (القرن) ، وسيّر من هناك ثلاثة جيوش :

الأوّل : كان بقيادة عبد الله بن الزبير ، لمحاصرة سوسة[3] .

الثاني : كان بقيادة عبد الملك بن مروان ، لفتح جلولاء .

الثالث : كان بقيادة رويفع بن ثابت ، لفتح جزيرة جربة .

---

١ الكامل : ٩٢/٣ .

٢ فتح العرب للمغرب : ٨٣ . الاستقصا : ٧٨/١ .

٣ النجوم الزاهرة : ١٣٢/١ .

فأما عبد الله بن الزبير ، فقد انتصر على سوسة فوراً ، وفتحها [1] . وأما عبد الملك بن مروان ، فقد اتجه نحو « جلولاء » في ألف رجل ، فحاصرها أياماً . فلم يستطع أن يفعل شيئاً . ولما تيقّن من منعتها على جيشه قفل راجعاً . ولم يسر إلاّ يسيراً ، حتى رأى في ساقة جيشه غباراً كثيفاً ، فظن أن العدوّ طلبهم . فكرّ جماعة من رجاله نحوهم لنجدتهم ، وبقي مَن بقي معه في مكانهم ، ينتظرون انجلاء الموقف ، وانقشاع الغبار . فإذا مدينة « جلولاء » قد وقع حائطها ، وغدت مكشوفة للمسلمين . فدخلوها منتصرين غانمين . وبعد ذلك عاد عبد الملك إلى معاوية يخبره بما جرى لفتح جلولاء [2] .

أما معاوية ، فقد سار بنفسه يريد « سبيطلة » ، فسبقته أخباره فتحصن أهلها بها ، واستنجدوا بقيصر الروم ، فأنجدهم . ولما التقى المسلمون بالروم والبربر بقرب « أجم » ، انكشف العدوّ للمسلمين ، فتراجعوا إلى « سبيطلة » ، وتحصنوا بها . فلم يقدر معاوية عليها ، بعد أن خسر العديد من رجاله ، فتركها وعاد إلى « القرن » ، واستقر فيه ، وبنى بناحيته بعض المساكن سميت « القيروان » . واحتفر فيها آباراً سميت « آبار حديج » .

أما رويفع بن ثابت ، فقد جهّز له معاوية بن حديج جيشاً وسفناً ، وطلب إليه أن يفتح جزيرة « جَربة » القريبة منه ، ليحفظ حدوده ، ويمنع سفن الروم من أن تحطّ بها . فذهب رويفع إليها من طرابلس ، وضمّها إلى إمارته طرابلس [3] .

الغزوة الثالثة : لم يذكر التاريخ شيئاً عنها ، سوى أنها جرت سنة

---

١ الاستقصا : ٧٨/١ .

٢ فتوح إفريقية : ٤٨ . الكامل : ٩٢/٣ .

٣ النجوم الزاهرة : ١٣٢/١ . فتح العرب للمغرب : ١٢٦ .

٥٠ هـ . والظاهر أنه أرسل إليها عقبة بن نافع باسمه ، على ما سنرى .

غزو معاوية البحري :

يعتبر ابن حديج أوّل من غزا « صقلّية » ، وحط في الجزيرة قدمه . فقد بثّ إليها أحد قواده ، ويدعى « عبد الله بن قيس »[١] سنة ٤٦ ، ووضع تحت قيادته مئتي سفينة . فحاصرها عبد الله إلى أن فتحها ، وأصاب منها مغانم كثيرة ؛ من ذلك أصنام مصنوعة من الذهب والفضة ومطعمة بأحلى الجواهر[٢] .

وهكذا كان معاوية بن حديج أحد دعائم الفتح العربي في المغرب ، ومن الذين جاهدوا في سبيله تعالى في أعماق المغرب ، وممن كشف لعقبة بعض غوامض تلك البقاع .

---

١ سيكون له دور كبير في فتوح الأندلس .
٢ معجم البلدان . قادة فتح المغرب العربي : ١/٨١ . الاستقصا : ١/٧٨ .

٣ ـ رُويفع بن ثابت الأنصاري

نسبه : هو رويفع بن ثابت بن سَكَن بن عديّ بن حارثة الأنصاري ، من بني مالك بن النجار [١] .

إسلامه : ضن التاريخ بحقّ هذا الإنسان المناضل ، الذي نشأ في جو غامض ، وخدم الإسلام ، وجاهد في سبيل الله صامتاً . وتذكر كتب الأنساب أنه صحابي جليل ، روى عن النبي (ص) بعض الأحاديث ، وأنه كان ينزل في الجِناب ، دون أن يذكروا شيئاً عن نشأته ، وكيفية إسلامه .

ونحن ، من خطبته في جموع المسلمين يوم فتح « جربة » ، نستدل على أنه شهد خَيبرَ [٢] مع الرسول (ص) . ونحن نعلم أن فتح خيبر جرى سنة سبع أو ثمان . وهذا يعني أنه أسلم قبل فتح مكة ، وأنه اشترك في عدد من غزوات الإسلام في عهد الرسول (ص) . وتحكي الكتب أيضاً أنه كان يسير على سنة الرسول ، ولا يخالفها ، ويعتدّ بما سمعه عنه .

لمحات من أخباره : نادراً ما تذكر كتب التاريخ شيئاً عن حياته وأخباره مع مقامه وجلالة قدره . ومما عُرف عنه أنه لم يشترك في فتنة عثمان ، واعتزل الحركات السياسية التي نجمت عنها ، وبقي في مصر بعد أن اختطّ لنفسه داراً فيها وسكنها ، ومثله في ذلك مثلُ ابن حديج . أما جلّ أخباره فتأتي من صفحات الجهاد التي سجلها إخوانه وزملاؤه ، وورد فيها ذكره .

---

١ أسد الغابة : ٢/١٩١ . الإصابة : ٢/٢١٤ . وفي الطبقات الكبرى : ٤/٣٥٤ اختلاف في نسبه .
٢ كلمة « خيبر » عند اليهود تعني الحصن . وكانت المنطقة ذات خيابر كثيرة أي منطقة حصون .

جهـــاده

كان رويفع في أوّل أمره مع المجاهدين في الشام . ولما بلغه عزم عمرو بن العاص على فتح مصر تبعه في فتوحه . وعندما سار عقبة لفتح النوبة وبرقة كان في جيوشه . كما شارك ابن أبي سرح وابن حديج في معاركهما .

وقد ولاّه معاوية بن حديج سنة ٤٦ على طرابلس [1] . وطلب إليه أن يغزو بعض أطراف تونس ، وأن يحتل جزيرة « جَرْبة » [2] . فأعدّ الجيش والسفن ، وخطب فيهم ، يحضّهم على المعاملة الحسنة للبلاد المفتوحة ، فقال :

« أيها الناس ، لا أقول فيكم إلاّ ما سمعته من الرسول (ص) يقول فينا يوم خيبر ، فإنه قام فينا فقال : لا يحلّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقيَ ما زرعه غيرُه – يعني إتيان النساء الحبالى بالفيء – . ولا يحلّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي ثيباً حتى يستبرئها . ولا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردّها فيه . ولا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر يبيع مغنماً حتى يقسم . ولا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه ردّه » [3] .

---

١ المؤنس : ٢٦ . أسد الغابة : ٢/١٩١ . الإصابة : ٢/٢١٤ .

٢ يقول ياقوت : جربة : قرية في المغرب ، وقيل هي جزيرة من ناحية إفريقية ، قرب قابس . يسكنها البربر ، وفيها بساتين كثيرة .

٣ أسد الغابة : ٢/١٩١ . معجم البلدان مادة « جربة » وانظر اختلاف الرواية بينهما .

وبعد أن فتحها ، عاد إلى طرابلس والياً ، ناشراً الإسلام بين أرباض طرابلس . وظل في مكانه ، يؤدي واجبه المقدس حتى ولي مصرَ « مَسْلمة ابن مُخلَّد » ، فعيّنه على برقة سنة ٥٣ هـ[1] بعد عزل عقبة . والظاهر أنه ضمها إلى منطقة طرابلس . غير أنه عندما تولى « برقة » فضّل العيش فيها ، والإشراف على إدارة البلاد منها .

نهـــاية

توفي رويفع ببرقة سنة ٥٦ هـ[2] ، وهي السنة التي عُين عليها والياً على إحدى الروايتين ، وبعد ثلاث سنوات من إقامته ببرقة على الرواية الأخرى . وهذا يعني أنه أقام قرابة العشر سنوات في إمارته في ليبيا ، وأكثر من هذا في جهاده العام في ليبيا والمغرب .

ودفن في الجبل الأخضر ، في مدخل مدينة « البيضاء » . ويتبارك الناس بوجود هذا الصحابي الجليل بينهم . وقد يسّر الله علينا زيارة ضريحه في العام الماضي ، أيام تدريسنا في إحدى كليات جامعة بنغازي هناك .

ويقال : إنه آخر أصحاب الرسول (ص) الذين توفّوا في شمال إفريقية ، رحمه الله ، فقد كان من حَمَلة لواء نشر الإسلام بين البربر ، والفائزين في التبشير والهداية . ومن أصحاب الفتيا ، ، والمتعمقين في الدين ، ومثل هذا التعمق يلزم لسكان الأراضي البكر ، كالتي أقام فيها .

---

١ وفي رواية ٥٦ . وفي كتاب الفتوح ص ٨٦ أنه ولي إمارة برقة سنة ٤٣ ، والظاهر أنه خطأ ، والمقصود سنة ٥٣ .

٢ يروى أنه مات بالشام (أسد الغابة : ٢/١٩١) . وهو غير صحيح لأن التاريخ يثبت وفاته في برقة وهو أمير عليها .

٤ - عقبة بن نافع

ذكرنا في فتح ليبيا أن عقبة دخل برقة سنة ٢٢ ، ولم يخرج منها إلاّ لحرب أو غزوة برية أو بحرية ، لا يلبث أن يعود إليها ، ليتنقل فيها بين القبائل . كما ذكرنا أن الأحداث السياسية لم تُغرِه ، والاضطرابات الحزبية لم تؤثر في مكانته . فعلى الرغم من أن عمرو بن العاص عينه ، وعلى الرغم من أن ابن أبي سرح نافسه واحتل مكانه ، فإن الثاني لم يُزح عقبة عن ولايته ، بل ثبته واعتمد عليه . وكذا الأمر مع سائر الأمراء والقواد الذين وفدوا على مصر والمغرب . ذلك أنه كان قائداً عسكرياً ، مخلصاً في أداء واجبه ، مطيعاً لأوامر رؤسائه ، متفانياً في خدمة ما وُكل إليه .

ومع أن الأمراء لم يزيحوه من مكانه ببرقة ، فإنهم لم يعطوه الفرصة كي يمتدّ أكثر مما بيده ، أو يُبدي نشاطاً في غير منطقته . فصبر حتى أعاد الله عمرو بن العاص سنة ٤٠ . وعندما استعمله عمرو على إفريقية سنة ٤١ ، توطّد عزمه على الفتح ، وأعدّ العدة ، واتّبع خطة جديدة في مسيرته التالية .

وكان عليه قبل أن يتخطّى حدود ليبيا غرباً أن يلمّ شعث ليبيا ، ويجول فيها بجيوشه ، ويهدىء ما ثار منها ، ويُعيد ما ارتجع . وقد لاحظ :

١ - أن جيوش الأعداء متجمعة على السواحل بين سُرت وقابس[1] خاصة . ففضّل السير بين القبائل لابتعاد الروم عن الدواخل .

---

[1] قابس : مدينة بين طرابلس وصفاقس وهي على البحر .

٢ ـ أن البربر الذين فتح بلادهم هو أو غيره ، عادوا إلى شركهم ، ونقضوا كل عهودهم . وأنهم يُبدون الخضوع عندما يقدم إليهم الجيش العربي ، ثم يعودون فينقضونه حال ابتعادهم عنهم . لذا فكر أن يشتدّ في ضربته ، ليثبِّت طاعتهم .

٣ ـ أن عليه تطهير ليبيا داخلاً ، ثم الاتجاه نحو المغرب دون التعرض للسواحل ما أمكن كيلا يُضعف من قوة جيشه ، وهي خطة اتبعها ابن أبي سرح قبلاً .

٤ ـ أن فتوحه ستتخذ ثلاث مراحل :

أ ـ مرحلة ليبيا ، وجوانب من تونس (إفريقية) .

ب ـ مرحلة إفريقية .

ج ـ مرحلة بناء القيروان .

مرحلة ليبيا

سار عقبة قاصداً لُواتة ومزاتة سنة ٤١ ، وكان سكانها قد نقضوا صلحهم . فغزاهم ، فتنحّوا نحو طرابلس ، فتبعهم وشدّ عليهم . فسألوه الصلح والمعاهدة ، فأبى قائلاً لهم : « ليس لمشرك عهد عندنا . إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿كيف يكون للمشركين عهد ؟﴾ ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمّتي ، إن شئنا أقررناكم ، وإن شئنا بعناكم »[١] .

---

١ الولاة والقضاة : ٣٢ .

ولما رأى عمرو اتساع رقعة البلاد ، واجتهاد عقبة في تهدئة القبائل عيّن معه « شريك بن سمي » لغزو لبدة . على أن يسير عقبة على هوّارة [1] ، فقتلا وسبيا .

وفي سنة ٤٢ افتتح غدامس [2] ، ثم نزل جنوباً أكثر حتى بلغ بعض كور السودان سنة ٤٣ ، وعامّة بلاد البربر [3] . وكان كلما سمع بارتداد منطقة حمل عليها وهدّأها .

وفي سنة ٤٦ بلغه أن ودّان نقضت عهدها [4] الذي قطعته على بسر بن ارطأة سنة ٢٣ ، ورفضت ما كان فرض عليها . وكان جيشه وقتئذ يطهّر منطقة سُرت ، فترك جيشه بمغمداس [5] برئاسة عمر بن علي القرشي وزهير ابن قيس البلوي [6] ، وذهب إلى ودان ، ومعه أربعمئة بعير ، وأربعمئة فارس ، وثمانمئة قربة ماء . ولما وصلها أبى أهلها إلاّ العصيان ، فحاربهم ، وقبض على ملكهم ، فجدع أذنه فقال : لم فعلتَ هذا بي وقد عاهدتَني ؟ فقال عقبة : فعلتُ هذا بك أدباً لك ؛ إذا مسستَ أذنك ذكرتَه ، فلمْ تحارب العرب . واستخرج منهم ما كان فرضه بسر عليهم ، وهو ثلاثمئة وستون رأساً من العبيد .

وبعد أن وطّد منطقة ودان سأل أهلها : هل من ورائكم أحد ؟ فقيل

---

١ المواعظ والاعتبار : ٨٣/٢ . الولاة والقضاة : ٣٢ .

٢ غدامس : واحة قرب طرابلس . احتلها القرطاجنيون سنة ٧٩٥ ق . م . واحتلها الروم سنة ١٩ ق . م . ثم جاءها عقبة مرتين سنة ٤٢ وسنة ٤٩ .

٣ الكامل : ٣٥١/٣ .

٤ أسد الغابة : ٤٢٠/٣ .

٥ مغمداس : مكان بأرض سرت .

٦ سيكون له دور كبير عقب مقتل عقبة .

له : جرمه[1] ، وهي مدينة فزان ، وأهلها من نسل نوح . فسار إليها في ثمان ليالٍ . فلما دنا منها ، دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا : وخرج ملكها يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً حالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب[2] . وكان ناعماً ، فجعل يبصق دماً . فقال : لم فعلتَ هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : أدباً لك ، إذا ذكرته لم تحارب العرب . وفرض عليه ثلاثمئة وستين عبداً .

ووجّه عقبة من يومه رحله إلى المشرق[3] ، متجهاً صوب قصور فزان . فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى إلى أقصاها . فسألهم : هل من ورائكم أحد ؟ قالوا : نعم ، أهل خاوار ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة ، في وعورة على ظهر جبل . وهو قصبة كوار (كاوار) . فسار إليهم خمس عشرة ليلة في الصحراء ، فلما انتهى إليهم تحصنوا . فحاصرهم شهراً ، ولكنه لم يقدر على فتحها ، فتابع في طريقه إلى قصر كوار ، فافتتحه . وعندما بلغ أقصى المنطقة أمسك بملكها ، وقطع اصبعه . فقال : لم فعلتَ هذا بي ؟ قال : أدباً لك ، إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب . وفرض عليه ثلاثمئة وستين عبداً .

وسألهم : هل من ورائكم أحد ؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة . فانصرف عقبة راجعاً . ولو أن الدليل ذكر له شيئاً لتابع مسيرته في هذه الصحراء ، ينشر فيها الطاعة والإسلام .

---

١ جرمة : بلد في فزان ، في الجنوب الغربي من سبهة ، وهي مقابلة لجرمة القديمة التي كانت عاصمة فزان زمن الروم وما قبلهم .

٢ لغب : تعب تعباً شديداً .

٣ فتوح إفريقية : ٥١ .

وفي أثناء عودته مرّ بقصر خاوار ، فلم يعرض له ، ولم ينزل به . وسار ثلاثة أيام ، فأمن أهله وفتحوا مدينتهم . وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فَرَس » ، ولم يكن به ماء . وكان مخزون عقبة من الماء قد نضب . فأصاب جيشه وخيله العطش الشديد ، حتى أشفى الجميع على الهلاك ، فراحوا يبحثون عن الواحات ، ويدعون الله أن ينقذهم بماءٍ من عنده . ولما يئسوا من البحث ، نزل عقبة عن جواده ، وصلى ركعتين ، ودعا الله أن يسقيه ويسقي جنده . وكان عقبة مستجاب الدعوة .

وفيما هو منشغل بالدعاء ، جعل فرسه يبحث في يديه في الأرض ، وينقب الرمل بحوافره ، ويضع فمه في الحفرة التي أحدثها ، ويمصّ منها ماءً . فاتجه عقبة نحو الصوت ، فإذا الماء ينفجر من بين أطراف الفرس . فنادى في الناس أنِ احتفروا . فحفروا سبعين حِسْياً[1] فشربوا ، واستقوا واختزنوا . فعلَتْ أصوات الجنود شاكرة المولى تعالى على المعجزة العظيمة التي حصلت لهم . فسمي المكان « ماء فرس » نسبة لذلك الحدث .

ولم يرد عقبة أن يسير ، وقصر خاوار لم يفتح ، لذا عاد أدراجه إليه من غير طريقه التي أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين ، قد تمهدوا في أسرابهم . فاستباح ما في مدينتهم من ذرياتهم وأموالهم ، وقتل مقاتلتهم . ثم انصرف راجعاً ، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم . وتابع سيره بعدها ليصل إلى عسكره الذي تركه بغمداس منذ خمسة أشهر .

---

١ أي سبعين حفرة ، والحسي : حفرة قليلة العمق .

مرحلة افريقية :

وبعد أن استراح ، وأعدّ الجيش ، اتجه في مسيرته غرباً ، متحاشياً الطريق الأعظم (الساحلي) . واتخذ وجهته أرض مزاتة ، ونزل هوّارة ، ثم مضى إلى صفر ، فافتتح كل قصر بها . ثم مضى يفتتح القلاع والقصور[1] .

ثم بعث خيلاً إلى غدامس ، فاستعاد فتحها بعد أن نقضت عهدها . ثم سارت خيله إلى قفسة[2] فقسطيلية[3] . وبعد أن فتح عدداً من المواقع في إفريقية ، انصرف بعد ذلك إلى منطقة القيروان .

وتنتهي بذلك المرحلة الأولى من فتوح عقبة التي بدأت في برقة ، وانتهت بالقيروان ، متخذاً طرقاً صحراوية ملتوية ، وكل قصده تهدئة القبائل البربرية . حتى إذا فرغ منها صبّ همه على ما تبقى من إفريقية وما بعدها من مدن المغرب .

وهو بهذا استطاع أن يفتح ليبيا كلها ، ويُرهب العناصر المناوئة ، ويأمن هجماتها المباغتة ، ويُرعب البربر وسكان الصحراء حتى لا يتفقوا مع الروم . وأدخل في ربوعهم الإسلام حتى يكسب صفهم ، ويستفيد من قوتهم وأعدادهم[4] ، ويدخل إفريقية بكل راحة بال مطمئناً إلى أن البلاد خلفه غدت قاعدة عسكرية تنطلق منها الفتوح بدءاً من سنة ٤٦ هـ .

---

١ فتوح إفريقية : ٥٣ .

٢ قفسة (وبالصاد) بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير . بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .

٣ المؤنس : ٢٧ . قسطيلية : بلدة في بلاد الجريد من أرض الزاب الكبير ، وهي كورة تضم مدناً .

٤ الكامل : ٣/٣٨٦ .

ولما توفي عمرو سنة ٤٣ ، وعين على مصر معاوية بن حُديج ، فصل معاوية بن أبي سفيان مصر عن المغرب سنة ٤٦ [1] ، وأبقاها لمعاوية . أما المغرب فقد أوكل أمره إلى عقبة . وكان مقيماً عامئذ ببرقة وزويلة ؛ ينطلق منهما لفتوحه ، ثم يعود إليهما .

ولما استعمله معاوية ، سيّر إليه عشرة آلاف فارس ، وانضاف إليهم من أسلم من البربر [2] . فدخل إفريقية ، ونازل مدنها ، فافتتحها عنوة ، ووضع السيف في رقاب أهلها . وأسلم على يديه خلق كثير من البربر ، وفشا فيهم دين الله ، حتى اتصل ببلاد السودان .

---

١ ويروى سنة ٤٩ ، ويروى أيضاً سنة ٥٠ .
٢ الكامل : ٣/٣٨٦ .

بناء القيروان

سبب البناء :

عانى عقبة كثيراً من مسألة ارتداد أهل البلاد عن الدين كلما نأى عنهم ، أو غفل جنده عن متابعتهم . لذا جمع أصحابه وأتباعه ، وكان بينهم ثمانية عشر صحابياً وقال لهم :

« إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر . فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر »[1] .

والواقع فإن أسباباً أخرى دفعته إلى هذا المشروع الضخم ، ولكن سبب الارتداد كان من أكبرها وأهمها .

البحث عن المكان :

استصوب الصحابة رأيه في بناء القيروان ، فأخذوا يبحثون معه عن بقعة مناسبة . ولما وصلوا مدينة « قمونية » — وهو المكان الذي حل به عبد الله بن أبي سرح ، واتخذه معاوية بن حديج قيرواناً له ، وبنى فيه بعض المنازل ، توقفوا عنده ، ورأوا أن تُبنى عليه المدينة .

---

١ البيان المغرب : ١/١٣ . رياض النفوس : ١/٦ . وانظر معجم البلدان مادة « القيروان » لاختلاف الرواية .

والسبب الذي شجع القائدين عليه ، أن المكان بسيط الأرض ، كثير المراعي ، جيد الهواء ، خصب التربة ، غزير المياه . . . ولكنه قريب من البحر .

وناقشهُ أحدهم حاثّاً إياه على اختيار المكان السابق ، لأنه على الساحل ، فيكون عملهم ذا أثرين ؛ الجهاد والرباط ، وقال : « قرّبها من البحر ليكون أهلها مرابطين » . واحتدم النقاش دونما إصرار ، وراجع القوم المواضع . كان القوم في واد ، وعقبة في واد وكلاهما مخلص .

ولكن ثاقب فكر عقبة هداه إلى شيء أعمق . إذ لا يجوز أن تكون عاصمة المسلمين على الساحل ، فهم لم يستعدّوا ليكونوا بحارة أو قراصنة ، وليس هدفهم التوطن للاستفادة الشخصية كما فعل غيرهم ، ولا أن يبنوا حصناً بحرياً يحتمون فيه ويتاجرون . ولن يبني على الساحل ، ويقضي ليله ونهاره متربّصاً قدوم الروم .

ثم إن بناء العاصمة على الساحل خطر جداً في الوقت الحاضر ، لأن خطر سفن الروم شديد بعد الآن ، وخاصة بعد إصرار قيصر ، الذي ضُرب من البر ، أن يأخذ ثأره من البحر . . ولهذا يجب أن تكون العاصمة بعيدة عن الشاطىء . فقال لهم : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر » .

وراح يعلّل الأسباب لأصحابه ، ثم أردف يقول : « لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل ؛ فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل ، فيخرج ، فيقيم في غارته إلى نصف النهار ، فلا تدركها منه غارة أبداً . فإن كان بينهما وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير — في الصلاة — فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم ، وهم

عسكر معقود إلى آخر الدهر ، وميتهم في الجنة »[1] .

وأعجب الحضور من تحليل رأي قائدهم الأعلى . وكيف لا يعجبون ، وهو بذكائه وإخلاصه أوصلهم إلى هذا المكان ، ورأوا منه كل خبرة وبادرة ! فوافقوه فوراً . وعندئذ قال :

« قرّبوها من السبخة » .

ولما رأوا السبخة ، هلعوا من منظرها ، وتراجعوا ! ، وقالوا له :

« هذه غياض كثيرة السباع والهوام ، ونخاف على أنفسنا هنا أن تهلكنا الذئاب ، ويهلكنا بردها في الشتاء ، وحرها في الصيف » .

فأجاب : « لا بد لي من ذلك ، لأن أكثر دوابكم الإبل ، وهي التي تحمل عسكرنا . والبربر قد تنصروا ، وأجابوا النصارى إلى دينهم . ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن بدّ من المغازي والجهاد . ونفتح منها الأوّل فالأوّل ، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها ، آمنة من غارة البربر والنصارى » .

فهو غيور على أمن المدينة براً وبحراً ، حريص على مدّها بحاجاتها المعيشية . وقد فهم كيف أن الروم كانوا يبنون مدنهم على الشاطىء ، ويربطون سفنهم بحبال إلى منازلهم ، فإذا داهمهم الخطر ركبوا السفن إلى عُرض البحر . والعرب ما زالوا جنود صحارى ، ولهذا فإن سفنهم هي الإبل ، وبحارهم البوادي والقفار . ولهذا قال لهم عقبة ما قال .

ولما أخبروه أنهم لا يقدرون على هذه الغيضة لأنها كثيرة الأشجار ، ومأوى الوحوش والسباع والهوام ، جمع مَن كان في عسكره من الصحابة ،

---

١ البيان المغرب : ١/١٤ . رياض النفوس : ١/٦ .

وكانوا ثمانية عشر ، ووقفوا تجاه الغياض . وكان عقبة مستجاب الدعوة وراح ينادي بأعلى صوته :

« أيتها الحشرات والسباع ، يا أهل الوادي ، نحن أصحاب رسول الله (ص) ، ارتحلوا عنا رحمكم الله ، فإنا نازلون . فمن وجدناه بعدُ قتلناه » .

نادى بذلك ثلاثة أيام . فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل ؛ كان السبع يحمل أشباله ، والذئب يحمل أجراءه ، والحية تنساب ومعها أولادها ، وكذا العقارب وغيرها ، وهم خارجون أسراباً [1] ، وهم قيام ينظرون إليها . فحمل ذلك كثيراً من البربر على الإسلام . وخاصة عندما ذكّروهم بدعوته وسط صحراء ليبيا في موضع « ماء فرس » .

مرحلة البناء :

وبعد أن جعل طول سورها اثني عشر ميلاً ، خطط للمدينة ، ثم اختطّ جامعها ، وداراً للإمارة ، واختط الناس حوله . وعندما تمّ بناء جامعها تحير في قبلته ؛ أين يوجهها ؟ وبقي مهموماً ليلته ، ولكنه سمع هاتفاً يقول :

« في غدٍ أدخل الجامع ، فإنك تسمع تكبيراً ، فاتبعه . فأي موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التي رضيها الله للمسلين بهذه الأرض » .

ولم يطمئن ليلته ، ولم يغفُ ، بل زاده الهاتف قلقاً . إنه يريد أن ينبلج

---

١ معجم البلدان . البيان المغرب : ١٣/١ . رياض النفوس : ٦/١ . أسد الغابة : ٤٢١/٣ . ويضيف فتوح البلدان : ٥٤ « وأقاموا بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون فيها حية ولا عقرباً ولو التمست حية أو عقرباً بألف دينار ما وجدت » .

الصباح وتنقشع العتمة ليشرع بما أمره الهاتف . ودخل المسجد مع الصباح ، وأذناه متربصتان سماع شيء . وما ان خطا فيه عدة خطوات حتى عاده الصوت يحمل تكبيرات متتالية . فتبعها إلى أن عرف جهتها ، ووضع فيها القبلة . واقتدى بها بقية المساجد »[1] .

وقد سعى إلى أن يكون المسجد أوّل ما يُبنى لتكون مئذنته صَيْدح الدين ، وتكون باحته منتدى المسلمين ، ومجمع القواد ، وليطمئن إلى رسوخ دعائم الإسلام . ثم أمر ببناء دار الإمارة لتكون عاصمة جديدة بعد الفسطاط .

وتبعه الناس في البناء عدة سنوات ، ولكنها لم تستقم إلاّ في سنة ٥٥ هـ . وكان قد بدأ بها سنة ٥١ . وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمئة باع . وقد امتدت المدينة فيما بعد حصن قمونية فدخلت كنيستها في العمران . وكان في قمونية ساريتان دخلتا في المسجد .

وتوافد الناس على القيروان ، وبنوا مبانيهم ، ووسعوا من تجارتهم ، ونظموا أسواقهم ، واحتكّوا بجيرانهم . . حتى غدت مدينتهم أهم مدينة في شمال إفريقية . أما سورها فلم يبنَ إلاّ بعد انتهاء مرحلة بناء الشعب .

وهو لم يبنها على غرار المستعمرات اليونانية أو البيزنطية ، منعزلة عن الناس ، مترفعة عن أهل البلاد . بل بناها وأبوابها مفتوحة لكل طارق مُسالم . حتى أسست تأسيساً مستحبّاً مشتركاً . ولهذا قُدر لها البقاء ، ولغيرها من المدن الاسم والرسم . وكان أن توافد عليها البربر يُسلمون ويسكنون .

وكان كلما أقبل البربر على الإسلام ضعف نفوذ الروم بينهم وتقلصوا عنهم ، وبالتالي قوي نفوذ العرب .

---

١ معجم البلدان . البيان المغرب : ١/١٥ .

مكانتها :

عندما دخل عقبة بلاد إفريقية ، أراد أن يطمئن على ما فتحه شرقاً ، لأنه علم أنه إذا بنى حاضرة للمسلمين في بقعة لم ينشط الإسلام فيها بعدُ فسيفدُ عليها المسلمون من غير العرب ، وسيحتكّون بإخوانهم العرب ، ويدعّمون الإسلام بين القبائل التي لمّا تهتدِ . ومن تجربته طيلة ثلاثين سنة سابقة تقريباً أيقنَ أن إقامة المسلمين بين رباع البربر تُدخل الإسلام ، في أعماق قلوبهم ، وتنظّم صفوفهم .

ونجحت خطته ، وسلمت فكرته ، وأقبل عليها البربر زرافاتٍ ووحداناً يُسلمون وغدت « القيروان » شعلة الهداية الثانية بعد أن كانت البرقة ، وكانت المحطة الثالثة بعد الفسطاط وبرقة ، لنشر الإسلام وتسيير الجيوش .

كانت القيروان أوّل مدينة للإسلام في شمال ، وكان جامعها أوّل مسجد بُني في الإسلام في إفريقية والمغرب[1] . وقد غدت ثكنة المسلمين الكبرى ، يأمنون فيها على أهلهم وأموالهم وأنعامهم ، كما كانت المحطة الإسلامية العسكرية الأولى في المغرب كله . وقد صدق حدس عقبة — كما يقول ابن خلدون — عندما قال : « سأبني مدينة تكون قاعدة لسلاح المسلمين ، وتبقى أبد الدهر » .

والحق فإن عقبة وضع أسساً مهمة ، وركائز ناجعة في اختياره هذا المكان . واعتمد نجاحُه على أسباب أهمها :

١ — أن الموقع ذو صفة استراتيجية عسكرية . فهو ليس بعيداً عن

---

١ بنى عقبة عدة مساجد صغيرة في برقة ، وبنى كذلك رويفع في طرابلس . ولكن هذه المساجد لم تأخذ طابع الشهرة ، لأنها لم تبن مع بناء كبير كمدينة القيروان .

الساحل ، ولا متغلغلاً في الداخل ، فهو بينَ بين . كما أن بناءه في تونس أفهم البربرَ الذين كانوا يعيشون شرقيَّ القيروان .، والذين لمّا ينضَوُوا تحت لواء الإسلام أنه لا مفرَّ لهم من الخيار . وبالتالي فإنه جعلها محطة عسكرية هي أقرب إلى الغرب منها إلى الفسطاط أو برقة ، وملاذاً للجيوش الفاتحة[1] المتراجعة قبل أن تنهكها المسافات . فالمسافات الشاسعة التي كان يقطعها هو وغيره من القواد كانت ترهق الجنود . ولهذا أحب أن يوطّد الأمن من برقة إلى القيروان ، وأحب أن يعتبر الجهاد يبدأ من هذه المدينة . وبالطبع فإن القيروان منتصف الشرق والغرب ، وهذا يدل على نجاح الإسلام وامتداده . ولعل عيشه في برقة ربع قرن ، وقبلها في مصر عدة سنوات جعله يقدِّر قوة البيزنطيين البحرية ، ومفاجآتهم المتكررة .

٢ — أن المكان ذو موقع استيطاني ناجح . فالقيروان تقع على بعد مئة ميل جنوبي تونس اليوم (قرطاجنة بالأمس) . وهذا يعني أن الفينيقيين عندما اختاروا هذا المكان ، اختاروه لازدحام السكان فيه ، ولأنه مكان خصب . وجاء العرب اليوم — والفينيقيون منهم — يبحثون عن مكان يتلاءم والحياة ، ويشجع على الاستيطان والتلاحم بين المسلمين من عرب وبربر . وقد أحب أن يكون قريباً من البربر الذين عاشرهم في مناطق عدة ، وخشي أن ينقلبوا في ديانتهم . والاستقرار في مكان معين ، يحدو على الاستقرار الفكري ؛ وهذا يشجع بالتالي على تعلم أهل البلاد من العرب دينهم ولغتهم . وفعلاً ، فإن العرب استقروا ، وداخلهم البربر . واختلط القومان ببوتقة الإسلام والجهاد .

وقد حافظت القيروان على صبغتها الدينية ، وعلى طابعها الإسلامي

---

١ القيروان : ٥٥ .

طيلة مدة حياتها . فيحكى أن ترف سكان « رقادة » وصل إلى درجة إباحة بيع النبيذ فيها ، في حين أنه كان ممنوعاً في القيروان . وقد قال في ذلك بعض ظرفاء القيروان :

يا سيد الناس وابن سيدهم ومَن إليه الرقابُ مُنْقادَه
ما حرَّم الشربَ في مدينتنا وهو حلالٌ بأرضِ رقاده ؟

كما أنها حافظت على مكانتها التي أراد لها عقبة . يقول ياقوت :

« وهذه مدينة عظيمة بإفريقية غَبَرَت دهراً ، وليس بالغرب مدينة أجلُّ منها » .

٣ — أنها اعتبرت أساساً إدارياً شاملاً الشرقَ والغرب على السواء . وهو بهذا لم يخرج عن منهج غيره من القواد في المشرق وفي مصر ؛ فكل واحد يفتح بلاداً يؤسس في بقعة منها مدينة ، تتخذ في البدء صفة القاعدة العسكرية ، ثم تتحول فجأة إلى موقع ذي صفة إدارية [١] . فالبلاد المفتوحة تحتاج إلى إشراف دائم ، ولا يتم الإشراف إلاَّ بتأسيس دواوين تدرس أوضاع الجند والشعب .

والأعمال الإدارية تدل على الاستقرار ، كما أنها تدل على التطور . وهذا يعني أن بناء القيروان ، كان من أنجح أعمال عقبة في شمال إفريقية . وكنا رأينا قبلاً أنه لم يكن ذلك العسكري الذي يضرب ضربته ثم يعود ، ولا ذلك الأمير الذي يحرص على جمع الأغنام ويكنزها ، أو يُرضي بكثرتها رؤساءه . بل كان — لما كان ببرقة — الرجل المصلح الواعظ ، والمرشد الفقيه ، والأب الأكبر لجنوده ، وللشعب الذي يتحلّق حوله .

---

١ انظر حديثنا عن بناء الفسطاط في هذا الكتاب .

وحريٌّ بمثل هذا الإنسان أن يبحث عن مكان آمن ودائم ، يرسل منه إشعاعات هديه ، وإرشادات دينه . . كما يرسل سرايا غزوه . وهو وبعد أن اطمأن إلى سير عمله في برقة ، وسنحت له الفرصة أن يسير غرباً ، بحث عن مكان آمن ودائم آخر ، ليقوم منه بواجب الجهادين ؛ الفتح والهداية .

غير أن المدينة أخذت بالاندثار والضعف عندما أخذ بنو الأغلب يبنون المدن حولها ، وخاصة مدنهم الثلاث : العباسية ، رقادة ، صبرة[1] . يقول ياقوت : « رقادة : بلدة كانت بافريقية ، بينها وبين القيروان أربعة أميال » .

والقيروان اليوم ، إحدى المدن الصغيرة في القطر العربي الشقيق « تونس » ، ليس فيها ما يشجع على زيارتها سوى الذكر الحسن الذي خلّده على ترابها البطل العربي الكبير عقبة بن نافع . وكم نتمنى على المسؤولين في قسم السياحة أن يولوا هذه المدينة عنايتهم المعهودة سياحياً ، لتكون صورة لأمجاد العرب الزاحفة ، وتكون كذلك مرآة سحرية تُري الغربيين ماضي العرب المشرّف ، وجهاد الإسلام المقدس .

عقبة حول القيروان :

أمضى عقبة خمس سنوات[2] يشرف على تأسيس القيروان من ٥١ — ٥٥ دون أن يشغله البناء عن الجهاد يوماً . ولم يكن همه البناء أصلاً إلاّ من أجل تأسيس ثكْنة عسكرية تنطلق منها الجهود والوفود للفتح . فقد كان يخطط للسرايا — دون أن يذهب — ، ويرسلها إلى المناطق المحيطة بالقيروان ،

---

١ القيروان : ٦٠ . ولم يبق من هذه المدن إلا ذكرها في الكتب .

٢ ويروى ثلاث سنوات (الاستيعاب ٣/١٠٧٦) .

وينتظر نتائجها ليبعث غيرها . بل إنه أرسل سرية إلى طرابلس لتهدئتها ، والظاهر أن بعض أطرافها نقض عهده بعد ارتحال رويفع عنها ، أو أنه أوفدها لإعانته على تهدئة القبائل الثائرة . أما الأسباب التي دعته لأن يجتهد في إرسال الكتائب وهو في مرحلة البناء عديدة أهمها :

١ — كي لا يقوى العدو إذا أهمل عقبة محاربته .

٢ — كي لا يظن العدو أنه توقف عن الحرب ، ويسهل بذلك عليه عملية التحصن والتجمع ضد عقبة .

٣ — كي يحيي عمل المسلمين المنشغلين بالبناء :

لماذا لم يبن القيروان في برقة ؟

سؤال توارد على خاطري كثيراً فيما كنت أتابع عقبة في أسفاره ، وألاحقه في فتوحه وتسياره . إنه أحب برقة ولا شك ، ولا شك أيضاً أنه طاب له المقام فيها ، ولمس نجاحه وقطف ثماره . فلماذا لم يفكر في البناء ؟ ولا ينقص برقة شيئاً تعوزُه المدينة الجديدة ! الخصب والأشجار ، والطبيعة والبحار . . . كل ذلك متوفر بل ، إن المنطقتين برقة والقيروان متشابهتان كثيراً في الطبيعة وفي الاستراتيجية .

وتبادرت إلى ذهني أمور ، أقرب ما تكون إلى الصواب ، منها :

١ — أن آمال عقبة في المغرب العربي واسعة وبرقة قريبة جداً من مصر حيث بني فيها الفُسطاط .

٢ — أنه يريد بناء عاصمة ، والعاصمة يجب أن يكون موقعها وسط البلاد . وتكون صلة وصل بين أطرافها . وإنه عندما تم له اختيار القيروان في مكانها اطمأن على مستقبل الإسلام والعروبة في شمال إفريقية شرقاً وغرباً .

٣ ــ كانت برقة بدء طموحه وليس نهايته .

٤ ــ ضمت منطقة البرقة كثيراً من المدن ، ولم ير حاجة إلى المزيد من بناء المدن الأخرى . ولهذا نراه يكتفي ببناء المساجد .

٥ ــ ثم إن الإمكانات التي كانت بين يديه محدودة ، وكان يتصور إثر القلاقل السياسية أن أيامه فيها معدودة . ولكنه لما عُيِّن أميراً على إفريقية ضمن مستقبله ، وتهيأت له المساحة التي اختطتها أحلامه شرع بالتفكير بحثاً عن المكان المناسب .

معنى « القيروان » :

ذكرنا في أثناء حديثنا عن الفسطاط أن أغلب القواد العسكريين يحرصون على ترسيخ دعائم قاعدة عسكرية وإدارية في البلاد التي يفتحونها ، وكذلك فعل قبله سعد وعمرو .

ومن الجدير بالانتباه أن أغلب هذه الأسماء التي كانت تطلق على هذه المدن أعجمي . لعل ذلك راجع إلى مجرد الصدفة ، أو إلى أنهم يبنون المدن في بلاد يغلب عليها العجمة . أو أن العربية اشتقت كثيراً من الألفاظ التي تسربت إليها من لغات الأمم التي جاورتها . ونحن نعلم أن الفارسية من أكثر اللغات تطعيماً بالعربية قبل الإسلام وبعده . يدلنا على ذلك ما لمسه المفسِّرون في القرآن الكريم والحديث الشريف ، والشارحون للأدب الجاهلي والإسلامي [1] .

وكلمة « قيروان » فارسية معربة أصلها « كارْوان ــ Karvan » ، ومعناها الأصلي : القافلة . مناخ القوافل . ومن معانيها المنبثقة عن المعنى

---

١ انظر كتابنا « المجموعة الفارسية » وفصل « نظرة في الصلات العربية الفارسية » خاصة ، صفحة ٨٠ .

الأوّل : الجيش . معظم الكتيبة . الجماعة من الخيل والقُفُل (ج قافلة) . موضع اجتماع الناس في الحرب . ولم يكن هذا اللفظ جديداً على عقبة ، فقد سبقه بعض القواد إلى استخدامه في المكان ذاته ، كما أن المكان لم يكن جديداً على المسلمين .

وقد تكلمت به العرب منذ الجاهلية ، واستخدمه امرؤ القيس في إحدى لامياته ، في قوله :

وغارةٍ ذاتِ قيروانٍ كأنَّ أسرابَها الرِّعالُ[1]

والنسبة إليها قَيرواني ، وقَيرَوي . كتبت عنها الكتب ، وعقدت الفصول .

---

١ لسان العرب . معجم البلدان ، مادة «قيروان» .

عزل عقبة وسجنه

لعن الله الحسدَ ، كم ألهبَ قصار العقول وصغارَ الأنفس حقداً ! !
وكم أضرّ بالأمة ، وبالمجموعات البشرية حسد حاسد . . وخاصة إذا كان
الحاسد متسلطاً ، طويل الباع ، أو كان لا يستطيع الإبداع ، أو لا يقدر
على الفداء .

ولعل الحسد الذي يضرّ (وقد يقتل) المحسود ، ينفع أحياناً ، إذ يحمّس
المصابَ بالعين ليُبدع أكثر . فيزداد حاسدُه إيلاماً وإيذاءً ، فتضيق عينه
أكثر ، ويجتهد في الأذى .

وعقبة الذي قدم من الشام وهو في ريعان الشباب ، وكله لهيب مخلص ،
وعنفوان صادق للبناء والتأسيس والفتح كانت خلفه عيون مخلصة تعينة وتمده
وعيون ضيقة تحدجُه بنظراتِ الحقد على كل ما كان يُقدم عليه .

ولهذا لم يطل بقاؤه على كرسي القيروان غير خمس سنوات ، بل إنه
لم يكد يصنع كرسيّ الإمارة له ولغيره حتى فوجىء بضربة الحاسد وعزل
الناقد . ثم متى كان الحاسد يكتفي بضربة واحدة ؟ ! بل إنه جَرجَره ،
وسجنه ، وأهانه ، ولفّه بالأغـلال ، وزاد عليه الإذلال بأنْ ألغى
الاستيطان بالقيروان بعد أن أفنى عقبةُ أحلى سنواته فيها ، وصرف طاقةَ
جنده عليها .

عزله :

في سنة ٥٠هـ عزل معاويةُ بنُ أبي سفيان معاويةَ بنَ حديج عن مصر [١] ، وولى مسلمةَ بن مُخلّد الأنصاريّ [٢] مصر والمغرب كله [٣] . فكان أوّل من جُمع له المغرب كله (مصر وبرقة وطرابلس وإفريقية وما وراءها) .

ولكن ، لماذا خُصّ مسلمةُ بكل هذا الرضى ؟

كان مسلمةُ عثمانيَّ الهوى ، وشهد مع معاويةَ واقعةَ صفين . وكان من أكبر أعوان عمرو في استعادة مصر من محمد بن أبي بكر ، وكان ممّن شهد قتل ابن أبي بكر . كما كان من الذين وطّدوا أركان الدولة الأموية في مصر . فلم يكن لمعاوية — بعد هذا — مناص من تولية مسلمة بعد أن ولى عليها من قبله أمثاله من الأعوان المقرَّبين إليه والمخلصين له كعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج [٤] .

وقد جرى عزل عقبةَ بسعاية مسلمة أمير مصر والمغرب سنة ٥٥ هـ — سنة انتهاء بناء القيروان — . فقد كانت أنباء فتوحه تصل إلى مصر ، فيتألم مسلمةُ في كونه قابعاً في الفسطاط ، ولغيره الجهاد والاسم والنشاط . فما كان منه إلاّ أن أمر بعزله .

ومن البديهي — وهذا مما يؤسف له — أن يعين الوالي عماله وموظفيه

١ يقال بل سنة ٤٧ . انظر فتوح إفريقية : ٥٦ .

٢ هو مسلمة بن مخلد الأنصاري الخزرجي . كان من التابعين الموالين لمعاوية . شهد فتح مصر مع عمرو ، ثم حكمها من ٤٧ إلى ٦٢ . أعاد بناء مسجد عمرو ، وسمح للأقباط ببناء كنيسة لهم في الفسطاط .

٣ البداية والنهاية ٢١٧/٨ .

٤ تاريخ الأمم والملوك : ٩٤/٢ . قادة فتح المغرب العربي : ١٢٨/١ .

وقواده عندما يتسلم إدارة البلاد التي عُيِّن عليها ، متناسياً حاجة البلاد والوطن ، ومدى المنفعة من وجود أولئك الموظفين . وخاصة إذا كان من وراء ذلك سعاية وحسد . وهناك مأخذ كبير على بني أمية ، عُرف عنهم ، وحطَّ من مكانة أعمالهم المجيدة ، وكان سبباً في انتهاء حكمهم ، ومناصاً للمؤرخين في النقد والقدح . هذا المأخذ هو اعتمادهم الكبير على قوادهم المقربين الذين ساعدوهم في الوصول إلى الحكم ، وبالتالي ضربهم ضربة لازبٍ إذا احتاجوا إلى وضع مقرب عزيز مكانهم . وما زلنا نفخر بأمجادنا التي صنعها لنا موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع . . . ، وما فتئت صفحات التاريخ ، وأقلام الشعراء تنوء بما حملت على بني أمية من مآخذ لإهانتها لهؤلاء الأبطال ، وإذلالهم بسجنهم ، أو مصادرة أموالهم .

ولهذا عُيِّن مسلمةُ ، وكان أن عيَّن « مولاه » أبا المهاجر ديناراً على القيروان ، — وسكت بنو أمية ، أو أسكتوا — وطلب إليه أن يسرّح عقبة بإحسان ودون إزعاج .

كان أبو المهاجر مقرباً من مسلمة ، ومساعداً مخلصاً ، ومولى الأنصار . لذا أراد أن يكافئه — كما فعل سادته معه — ، ويضعه تحت نفوذه ، ليطمئن به على ما يعينه ، وبالتالي يتخلص من مكانة عقبة الطاغية عليه في شمال إفريقية كله .

ولكن هذا المولى لم يُحسن العزل ، ولم يستمع إلى طلب سيده بأن يعزله بإحسان[1] . فأساء إزاحته ، واستخفّ به ، وسجنه ، وأوقره الحديد . وأقامه في السجن شهوراً ، دون أن يهتم به أحد ، أو يقدِّر جهوده أمير .

---

[1] يرى بعض المؤرخين أنه اضطر إلى سجنه لمقامه بين جنوده ، فخاف على نفسه . وإذا كان الأمر صحيحاً فلماذا وضع الأغلال بين يديه ، وأهانه ؟ .

ولما تحامل معاويةُ ، وأرسل كتاباً يطلب من أبي المهاجر تخليةَ سبيله ، فكّ أبو المهاجر أغلاله ببطءٍ ، وأشخصَه مخفوراً إليه .

من هذا الكلام نتوصل إلى أن أموراً كبيرة جداً كانت تُحاك في قصور دمشق والفسطاط ضده وهو لا يعلم ، وإلى أن أصابع كانت تلعب في الظلام ، وفي الظلام لا يُرى شيء . . إلاّ من خبّأ وأعدّ مُسبقاً .

والواقع — وهذا هو ظننا — فإن الأمر ليس مجردَ مساعي معاوية إلى إرضاء مقرّب ، وهو مسلمة ، وتعيين مولى لمسلمة تابعٍ له . وإلاّ لما جرى ما جرى معه . بل لما استهان معاوية نفسه بما حصل لعقبة ، وتباطأ في إنقاذه من السجن . ولو أن معاوية لم يكن راضياً عن ذلك لأمرَ مسلمة أن يعزل أبا المهاجر ، ولطيّر أمر الإفراج عنه تطييراً . . . إلاّ إذا كانت مكانةُ هذين أهمَّ عنده من أعمال عقبة نفسه .

والآن ، من كان الحاسد ؟ من الذي حمل الضغينة ضدّ هذا الصحابي المجاهد ؟ أكان مسلمةُ وحده في هذا الأمر ؟ أم أن آخرين كانوا يسعون معه في دمشق ؟ هل الذي أمر بسجنه هو نفسه الذي حسده ؟ ولماذا غلّ بالحديد ؟ لماذا تأخر معاوية شهوراً حتى أطلقه ؟ أصحيح أنه كان ينوي تأسيس خلافة للمهاجرين في المغرب العربي كما يقول بعض المستشرقين ؟ يُستبعد هذا ، لأننا لم نره يشترك بالسياسة يوماً !! فلماذا تكاتلت عليه عناصر البغي وأثقلت عليه ؟

أسئلة كثيرة نخشى أن نكون فتحنا بذكرها جروحاً لا قبلَ لنا على رأبها .

الواقع أن أغلب هذه الأسئلة غامض ؛ فكتب التاريخ دائماً تسكت عن الحقائق العميقة ، وعن الحركات التي كانت تجري في دمشق بالنسبة لقواد المغرب ، ولعل السبب أن المسافة شاسعة ، والأخبار غير قاطعة .

نستطيع أن نعزوَ جلَّ الأمر إلى مسلمة بن مخلد ، فهو :

١ — أنصاري ، وعقبة من المهاجرين .

٢ — لا يرضى أن يضع والياً على المغرب ذا سمعة عسكرية جبارة تطغى عليه ، وقد تمحو مكانته ، لأنه لن يطيعه أو يستجيب إلى أوامره . وسيكون موقفه موقف الموافق بلا مشورة ، لا الآمر المقنِّن . والعمال يجب أن يكونوا أتباع الولاة ، وليس العكس . ولهذا يجب أن يُزيحه من مكانه . وكيف ؟ إن عقبة جبل أشمّ ، راسخ في هذا الصقع منذ ثلاثين سنة ، دانت له قبائل البربر ، وخافته جيوش الروم ، وبنى القلاع ، وأسس شريعة الإسلام . فليضربه بغير سوطه ليتخلص منه ، ويكون في حلّ من عتابه ، وفي منأى عن رذاذه .

٣ — لعل مسلمة كان أداة عزل فقط ، والآمر شخص من دمشق . ترُى من يكون ؟ معاوية ؟ ربما أحسّ الخليفة بخطورة إزاحة عقبة من شمال إفريقية ، نعني إزاحة الصخرة التي كانت تسدّ فوهة الكهف ، كما أحسّ بخطورة إبقائه خوفاً من استقلاله ، وخاصة بعد أن بنى العاصمة . ولعله رآه قد طال مقامه ، ويجب تغيير الوجوه وتجديدها . فطلب من عامله مسلمة أن يتبنى أمر عزله ، وهو بدوره أكبر الأمرَ فطلب من أبي مهاجر عزله « بإحسان » .

وإذا لم يكن لمعاوية ضلع في الأمر ، فلماذا توانى عن الإسراع في العزل ؟ أكان الأمر مخفياً عليه ؟ ويضايقه أن يُعزل بطل الفتوح في إفريقية ؟ ولماذا لم يعبّر عن تضايقه بشيء إذاً ؟ لماذا لم يُعده إلى مكانه إذا لم يكن موافقاً ؟ بل لماذا لم يستطع ابنه يزيد أيضاً ؟ وإلى ماذا هدف الطبري بقوله : « وعزل

عقبةَ وكشفه عن أشياء ؟ »[1] ، ما هي هذه الأشياء ؟ ألها علاقة في أمن الخلافة ؟

لو كان عقبة ذا آمال توسعية حقاً لما أُعيد إلى القيروان والفتوح سنة ٦٢ ولو كان معاوية راضياً حقاً لأعاده بنفسه ، ولما انتظر ابنه أن يقوم بهذا الأمر . ولو كان مسلمة مجرد آلة لما مانع من أن يعود ، ولو كان يزيد لا يعرف شيئاً لما انتظر وفاة مسلمة سنة ٦٢ ليعيده إلى مكانه . إذاً كان هناك صلة وثيقة بين دمشق والفسطاط ، عملت عملها حتى أزاحت هذه القوة من أمامها . ومن العجيب حقاً أن يكتفي عقبة بضرب أبي المهاجر فقط لأنه أهانه بالسّجن ، وأذلّه بالأغلال . ألأن معاوية مات ؟ ولأن مسلمة مات أيضاً ؟

كأننا لم نجب عن الأسئلة ، بل كأننا أجبنا عن الأسئلة بأسئلة أخرى . وما زالت الأمور غير واضحة لدينا ، وما برح المؤرخون المحدثون يتخبطون في متاهات المؤرخين القدماء .

لا شك أن عزل عقبة سنة ٥٥ خطأ فادح بالنسبة إلى الفتوح في المغرب . لأن عقبة بعد أن درس الموقف ، وبنى القيروان ، أراد أن يجني ثمرة تأسيسه الذي أمضى فيه رَدَحاً طويلاً من الزمان بين برقة ، وزويلة ، وودّان ، وغدامس ، وطرابلس ، وسفاقس ، والقيروان . . ولكنه عزل .

ولو بقي مكانه ، لكان أمامه – والأعمار بيد الله – سنوات سخية في الفتح والجهاد . ومن التقصير بمكان عزل عقبة بعد سبع سنوات من العمل ، وهو من أصحاب الخبرة النادرة ، والقوة القاهرة . والرجل المناسب يجب أن يبقى في عرينه ، يؤدي رسالته . وهذا تقصير من الخليفة بدمشق – أولاً وأخيراً – ويؤخذ عليه بلا شك .

---

١ تاريخ الأمم والملوك : ١/٩٤ .

ولما عاد إلى الحكم ثانية – كما سنرى – رأى أن الوضع قد تغيّر عليه ، وتطورت الأمور ، وتوزعت الوجوه . وتطاول من لا يستحق بنظره ، وأحجم من كان في عهده متقدماً ، وتقوّى العدو ، وتشبّث في مكانه . ولهذا حصلت الكارثة ، واستشهد عقبة قبل أن يتمم أمانيه ، وينشر كلمة الحق في أقصى المغرب ، كما ثبتها في أقصى المشرق من شمال إفريقية .

وعلى هذا فإن عقبة لم يتألم من عزله لمصلحته هو ، بل جاء ألمُه من عرقلة تحقيق خطط الجهاد في سبيل الله .

إطلاق سراحه :

لما بلغ معاوية ما فعله أبو المهاجر بعقبة بعث يطلبه[1] فأطلق أبو المهاجر سراحه ، وأرسل رسلاً معه تُخرجه من قابس – وهي بين طرابلس وسفاقس – وتُدخله الحدود الليبية خوفاً منه ، لأن العرب والبربر كانوا يتفانون في خدمته ، والدفاع عنه .

ولما وصل عقبة « قصر الماء » قرب قابس، صلّى ركعتين، ثم دعا ربه أن يمكّنه من أبي المهاجر، ولا يُميتَه قبل أن ينال ثأره منه . ولما بلغه دعاء عقبة تملّكه الهلع مدة طويلة[2] ، لأنه يعلم أنه مستجاب الدعوة[3] .

ولما قدم عقبة مصر ، ركب إليه مسلمة احتراماً ، واستقبله . وأقسم

---

١ يرى ابن الأثير أن يزيد هو صاحب العزل واطلاق السراح – نقلا عن الواقدي – وهذا خطأ تاريخي طبعاً . الكامل : ٤٦٦/٣ .

٢ رياض النفوس : ٢١/١ . فتوح إفريقية : ٥٦ .

٣ أسد الغابة : ٤٢١/٣ . الاستيعاب : ١٠٧٧/٣ .

له معتذراً عمّا بدر منه، مخبراً إياه أنه أوصى أبا المهاجر به خيراً ، ولكنه لم يستجب له[1] .

لعله كان يخافه ، ويخاف أن يصل إلى معاوية مغضباً ، (نقول هذا إذا كنا نحسن الظن في مسلمة ومعاوية على السواء) . ولهذا حاول إرضاءه . وقد كبُر على وجهاء مصر أن يُعزل عقبة عن المغرب بعد كل هذه السنين ، لذا فاتحوا مسلمة في أمر إبقائه فقالوا له :

— لو أقررتَ عقبة . . فإن له جزالة وفضلاً ! . . وهو الذي بنى القيروان ومسجدها .

فأجاب ، وفي جوابه ما يدلّ على اضطراره :

— إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نَيل ، فنحن نحبّ أن نكافئه[2] .

معنى هذا أن استقباله لعقبة كان مُراعاةً ، ولا مطرحَ له أصلاً . ولكنه دليل على أن مسلمة كان يهاب عقبة، ويرهب جانبه . . ثم إنّه من ناحية أخرى يهتمّ بمصلحته الشخصية .

عقبة في الشام :

لم نعرف بماذا أجاب عقبةُ مسلمةَ على تلك الاعتذارات ، ولا ماذا فعل في ليبيا ومصر . ولكن الواضح أنه كان مُصرّاً على لقاء الرأسِ في دمشق ، وعند جُهينةَ الخبر اليقين . لذا نراه يدخل دمشق ، ويدنو من قصر معاوية مطالعَ سنة ٥٦ . وبدلاً من أن يأتي عاملاً حاملاً هدايا الرضى وأحمال

---

١ فتوح إفريقية : ٥٦ .

٢ البيان المغرب : ١/١٧ . فتوح إفريقية : ٥٦ .

الخراج ، قدم مُفعماً بأحمال التقريع والعتاب ، كاشفاً أطرافَه يُريهم ما ناءت به من أغلال وإذلال . وقال له :

ــ فتحتُ البلاد ، وبنيت المنازل ، ومسجد الجماعة ، ودانت لي . ثم أرسلتَ عبدَ الأنصار . . فأساءَ عزلي ! !

نلاحظ من هذا الكلام أنه تخطّى اسم مسلمة ، وأنحى باللائمة على معاوية نفسه . ولكن معاوية الذي عرف بالدهاء ، وبالشعرة التي لا تنقطع اعتذر إليه ، وبيّن له حاله واضطراره ، وقال :

ــ قد عرفتَ مكانَ مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه وبذلِ مُهجته[1] .

هل هذا يعني أن عقبة لم يشترك بالسياسة لأنه لم يكن عثمانيَّ الهوى ؟ أم أنّ ترقية المُوالين لا بد إلا أن تكون على أكتاف المنحازين عن كل هوى؟ وعاتب عقبةُ معاوية عتاباً بريئاً ، فاعتذر إليه معاوية اعتذاراً سياسياً أي : من سار معنا رفعناه ، ويمكن أن نُحلَّ المُوالين لنا المحلَّ الذي يطلبون . . وهذا عيب بني أمية . فقد ذهب كفاحُه كله هباءً أمام شخص عثمانيّ الهوى . وهكذا عرف عقبة أهم أسباب إزاحته عن عمله .

ولما أحسّ معاوية أن عقبة كثير الهياج وعده أن يعيده إلى عمله[2] ، ولكنه لم يفعل . وظل سبع سنوات يمنّي النفس ، ويمضغ المواعيد ، ويترصّد اللقاءات ليذكّر . . . إن نفعت الذكرى .

تقول بعض الروايات إن عقبة وصل ، وكان معاويةُ قد توفي . وهذا

---

١ فتوح إفريقية : ٥٧ .

٢ الكامل : ٣/١٨٤ . وفي فتوح إفريقية تتمة للحاشية السابقة قوله : « وقد رددتك إلى عملك » .

مستبعد طبعاً[1] ، لأن عقبةَ عُزل سنة ٥٥ ، وأمضى في السجن بعض الشهور ، ولا مانع من أن يقضي شهراً أو شهرين أو ثلاثاً في الطريق . . ولن يذهب إلى الحجاز ، ولن يَحيدَ عن طريقه إلى دمشق لاغتياظه ، ولمعرفة السبب الذي سبّب هدم ما بناه بأكثر من ربع قرن . . أي لا ينتهي عام ٥٦ ، إلاّ عقبة يطرق أبواب قصر بني أمية .

ويتولى يزيد الخلافة سنة ٦٠ ، ويلقى عقبة المؤاجلة نفسها ، إلى أن يموت مسلمةُ في مصر سنة ٦٢ ، عندئذ يطلق يزيد صوتاً ينمّ عن شيء كان في الأعماق ، وما كان يستطيع البوح به : « أطلقوها قبل أن يخربها »[2] ، يعني أبا المهاجر .

وهذا يعني أن يزيد كان يتحرّى ، ولكن المهم أن عقبة ظفر أخيراً ، وعاد إلى إفريقية سنة ٦٢[3] ، أي بعد سبع سنوات من إقصائه عن عمله وعدا مسرعاً ، يحمل كتاب التعيين والعزل بيديه اللتين كادتا أن تنسيا الضرب بالسيف ، وركب جواده الذي تاق إلى الصول والجول ، وعدا به إلى المغرب ، باحة الثأر ، وساحة الجهاد .

ماذا فعل أبو المهاجر دينار ؟

نحن لا نعرف شيئاً عن حياة هذا الرجل ، غير أنه مولى الأنصار ، وأن اسمه أبو المهاجر دينار . ثم قفز اسمه فجأة في الحدث الكبير الذي قام به ، وهو سَجن الصحابي المجاهد عقبة بن نافع .

---

١ الطبري يؤكد أنه عزل في عهد معاوية . تاريخ الأمم والملوك : ٢/٩٤ .

٢ رياض النفوس : ١/٢٢ .

٣ سير أعلام النبلاء : ١/٣٤٩ .

غير أن واجب التاريخ يقضي أن نضع الحق في نصابه ، ونوضّح ما قام به أبو المهاجر . والحقيقة أنه طيلة هذه السنوات السبع ــ سنوات غياب عقبة وإمارته ــ كان مثال القائد الغيور المحنّك ، والرجل الدؤوب على الكفاح ، الذكي اليقظ في مخططاته . . حقق نجاحاً ولم يتراجع عن أية بقعة أقدم عليها . وأهم ما عُرف عنه ، وهو في المغرب :

١ ــ أنه أساء التصرف في سجن عقبة . ولعل سجنه كان بدافع خارجي . وما هو إلاّ أداة تنفيذ . ولعله أيضاً أُجبر على سجنه لمّا رأى مكانته الكبيرة ، وحب المسلمين من عرب وبربر له ، وهو الذي عاشرهم هذه المدة المديدة .

٢ ــ أنه كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة في إفريقية ، ومضى غير بعيد عنه ، واختط لنفسه مقاماً يبعد ميلين فقط[١] !! فكان عمله هذا سبباً في انحدار قيمة القيروان مدة ، إلى أن قدم عقبة ثانية .

٣ ــ أنه حاصر مدينة قرطاجنة حصاراً شديداً ، اضطر الحاميةَ البيزنطية في نهاية الأمر إلى عرض الصلح عليه ، فاشترط الانسحاب بشرط احتلال جزيرة ابن شريك[٢] . وقد أحسن في ذلك ، لأنه استطاع أن يقتطع جزيرة كانت محطة عسكرية لسفن البيزنطيين ، ولا تقل أهمية عن « جَربة » قرب طرابلس .

٤ ــ كان عمرو بن العاص أوّل مجاهد في مصر ، وعقبة بن نافع أوّل من جاهد في ليبيا وإفريقية . أما أبو المهاجر دينار فيعدّ العسكريَّ الأوّل الذي

---

١ فتوح إفريقية : ٥٧ .

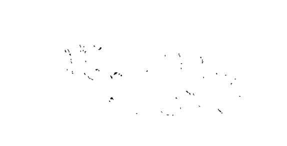
٢ فتحها له حنش بن عبد الله من أهل صنعاء .

عبر المغرب الأوسط (الجزائر) ، وانتصر في معركة كبيرة جرت في تلمسان مع البربر ، وكانوا بقيادة رئيسهم « كسيلة البرنسي » . واستطاع دينار أن يهزمهم ، ويكسر شوكتهم ، ويأسر كسيلة ، ويقتاده معه . . ثم يُراضيه ويصادقه ، حتى أظهر له الإسلام .

٥ – اتبع أبو المهاجر سياسة عقبة في استمالة قلوب البربر ، وتقريبهم منه ، وتشجيعهم على الدخول في الإسلام . وقد ظفر في مساعيه بهذا المضمار على رغم قصر المدة التي قضاها في المغرب ، وذلك بسبب ذكائه واجتهاده لإبراز مكانته ، ليكون في مصاف عقبة .

الفصل الرابع

فتح المغرب
الأوسط والأدنى والأقصى



عودة عقبة

يقال إن يزيد أحسّ بالغلطة المزدوجة ؛ الأولى بعزل عقبة والثانية بتعيين أبي المهاجر لأنه بنظره لم يحرز تقدماً . ولكن الحق أن أبا المهاجر لم يكن مقصراً في فتوحه بل كان ممهداً لعقبة في فتح المغرب . والجملة التي قالها يزيد وهي : « أدركوها قبل أن يخرّبها » ، ويعني أبا المهاجر ، كانت لغرض سياسي ، يريد به إرضاء سخط عقبة . ولهذا أغمض عن كل ما فعله عقبة بأبي المهاجر حينما عُين أميراً مكانه .

ولما مرّ بمصر عائداً إلى إفريقية لقي عبد الله بن عمرو وهو على مصرَ ، فقال له عبد الله : — يا عقبة لعلك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحالهم . وما أقدمك ؟ فإني أعلمك لا تحب الإمارة ! !

فأجابه :

— إن أمير المؤمنين يزيد عقد لي على جيش إلى إفريقية[1] .

وتابع عقبة طريقه حتى وصل إلى القيروان مُجدّاً، بعزم أكيد . وبدأ في ولايته الثانية من حيث عُزل . وأوّل عمل قام به هو قبضه على أبي المهاجر ؛ والعين بالعين ، والسن بالسن ، والبادي أظلم . وما فعله أبو المهاجر بعقبة بالأمس لقيه أمامه اليوم . ولعله لم يحسب حساباً آنئذ ليوم الحق ، أو لم يأبه لمقام هذا القائد الفذّ . وقف أمامه سنة ٦٢ هـ ، كوقفة عقبة تجاهه سنة ٥٥ هـ ،

---

١ فتوح إفريقية : ٦٠ . سير أعلام النبلاء ١/٣٤٩ .

والتاريخ يُعيد نفسه . فعزله ، وقبض عليه ، وأوثقه الحديد ، وزاد في إهانته لأن عقبة تألم للإذلال . . . والكريم يؤلمه اللمز .

بعد أن شفى غليله خرب ما بناه أبو المهاجر ، ثم عاد إلى القيروان ، يرتق ما تصدّع منها ، ويعيد بناء ما تهدم . وبعدئذ أخذ بتنظيم الجيش كما هو معتاد عليه ، وعزم على الغزو عزمة تُوصله إلى أقصى المغرب ، بعون الله ، ومعه أبو المهاجر مكبلاً بالحديد .

فتح المغرب

الأوسط والأدنى

قدم عقبة مُغِذّاً، يريد أن يسرع بالغزو ليعوّض ما فاته من الزمان . وأعلن الجهاد حتى (طنجة) . ولكن أبا المهاجر راجعه في هذا الأمر ، وهو موثق :

– ليس في طنجة عدو لك يا عقبة ، لأن الناس قد أسلموا . وهذا رئيس البلاد – يريد كسيلة – فابعث معه والياً .

ولكن عقبة أبى إلاّ أن يذهب بنفسه[1] لأنه يريد أن يطمئن إلى نشر الإسلام بنفسه بعد القيروان ، كما نشره بنفسه قبلها . وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلويّ[2] . ثم دخل على أولاده يودعهم ويعظهم فقال :

« يا بنيّ إني بعت نفسي من الله ، ولا أدري ما يُقضى عليّ في سفري . يا بنيّ إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجلّ . وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ، ويدلكم على مكارم الأخلاق،

---

١ الكامل : ٤/١٠٥ .

٢ رياض النفوس : ١/٢٦ . وفي فتوح إفريقية ٥٩ : ترك زهيراً وعمر بن علي القرشي .

ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم ألا تداينوا ولو بعتم العباءة ، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى . ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا » .

ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا . اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك »[1] .

نلاحظ أن البطل صبّ في كلامه هذا وصيته لأولاده ، وكأنه أُلهم أنه ذاهب في سبيل الله ذهاباً لا رجعة بعده . وعليه – خوفاً على أولاده – أن يسكب في أذهانهم خلاصة ما كان يريد أن يربيهم عليه .

ثم سار بعسكر عظيم ، يتخطى الحدود ، ويهدم القلاع ، ويُدَهْدِهُ الصعاب بسرعة تأخذ العجب . فقد فتح حصن « لميس » ، ومدينة « باغاية »[2] . المطلة على جبل أوراس . فدخل « تلمسان » ثانية وبعد أبي المهاجر ثم « الزاب » ثم « أرَبة »[3] وهي دار ملكهم ، وكان حولها ٣٦٠ قرية عامرة فهرب الناس من أمامه وتجمعوا في الوادي . غير أنه كره منازلتهم وقتالهم ليلاً ، فتواقفَ القوم الليل كله ؛ لا راحة ولا فترة ولا نوم . فسماه الناس إلى اليوم « وادي سَهَر » لأنهم سهروا فيه حتى الصباح . ولما صلّى عقبة الصبح أمر المسلمين بقتالهم فقاتلوهم قتالاً شديداً ما رأى المسلمون مثله قط ، حتى يئسوا من أنفسهم . ثم وهبهم الله النصر والظفر ، وولى الروم بعده هاربين واستولت

---

١ رياض النفوس : ١/٢٢ .

٢ باغاية : مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة .

٣ أربة : اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب ، وهي أكبر مدينة في الزاب ، حولها ٣٦٠ قرية.

الهزيمة على بقيتهم . ومات من البربر عدد عظيم ، وغنم المسلمون أغناماً لا تحصى . وفي هذه الموقعة ذهب عز الروم من بلاد الزاب ، وذلوا وتحصنوا مع من نجا من سيوف المسلمين . ولكن عقبة كره المقام عليهم وحصار مدينتهم[1] ، فتركهم يريد المغرب حتى نزل « تاهَرت »[2] . فاستغاث الروم بالبربر فأغاثوهم . ونلاحظ هنا كثرة تلاحم البربر مع الروم واتفاقهم على حرب المسلمين ، ويرجع سبب ذلك إلى :

١ – تجمعهم الأصلي في أعماق المغرب الأقصى والأدنى .

٢ – تراجع من لم يُسلم منهم إلى الخلف متمسكاً بحربه ضد المسلمين .

٣ – تساهل البيزنطيين من الناحية الدينية مع البربر في عهد قسطنطين الرابع الذي حكم من ٦٦٨ – ٦٨٥ م ، = ٤٨ – ٦٦هـ حيث أحس البربر بشيء من كرامتهم يعود ، لذا شاركوهم في حرب العرب .

ولما رأى عقبة تجمع الفريقين ، قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه . وقال :

« يأيها الناس إن أشرافكم وخياركم ، الذين رضي الله تعالى عنهم ، وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله (ص) بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة . وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ؛ باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة . وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلاَّ طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه . فأبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل

---

١ الكامل : ٤/١٠٥ .

٢ تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب . وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد .

إن شاء الله تعالى . وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة ، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه . والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

والتقى المسلمون معهم ، واشتد الأمر عليهم لكثرة عدد العدو . ولكنهم ردوهم وهزموهم وأخذوهم بسيوفهم ، وغنموا منهم الأموال والسلاح .

ثم سار حتى نزل « طنجة »، فلقيه بِطريق الروم ، واسمه « يوليان » ، فأهداه هدية حسنة ، ولاطفه ونزل على حكمه . ولكن عقبة بعد أن وصل طنجة لم يكتف بما وصل إليه بعد أن نشطته نشوة النصر . فسأل يوليان عن الجزيرة الخضراء « الأندلس » ، فعظّم الأمر عليه ، وأرهبه من عبور البحر فعزف عن ذلك وقال له يوليان :

ـ أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين المدد ؟

ولعل بطريق الروم كان يقصد من وراء ذلك صرف نظره عن المستعمرات التي يحتلها البيزنطيون في الغرب . وقد نجح في ذلك ولو أن عقبة تخطى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق فيما بعد) ، لكان دور طارق وموسى غير ما قاما به ، ولكانت خارطة المسلمين غير ما هي عليه الآن .

ثم سأله عن كفار البربر وعن مكانهم ، فقال له :

ـ هم كثيرون ، لا يعلم عددهم إلاّ الله ، ولهم بأس شديد ، وهم بالسوس الأدنى .

ثم سأله عن دينهم ، فقال له :

ـ هم كفار لم يدخلوا في النصرانية ، وليس لهم دين ، ولا يعرفون

أن الله حق ، وإنّما هم كالبهائم [1] .

ثم دله على عوراتهم وراءه بمدينة « وَليلى » [2] وبلاد « المَصامدة » [3] و « السوس » [4] ، ونصحه باتباع أفضل الطرق التي تسهل عليه الوصول إلى بلادهم والنصر عليهم .

وبعد أن استراح الجند في منطقة « غمارة » ، وهي دارة حكم يوليان ، اتجه عقبة نحو السوس الأدنى ، وهي جنوب غربي طنجة واحتل مدينة «وليلى » بإزاء جبل « زرهون » [5] ، وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين « سُبو » [6] و « ورغة » [7] ، وهي المسماة اليوم بقصر فرعون ، فافتتحها عقبة وغنم منها وسبى . ثم عطف يريد البحر المحيط الغربي . فانتهى إليه عند بلاد « آسفي » في بلدة « ماليان » ، وأقحم فرسه في البحر حتى بلغ الماء بطن فرسه ، ووقف ساعة ينظر إلى أقصى الأفق ثم نادى بأعلى صوته ، وهو يشير بسوطه :

– السلام عليكم ورحمة الله . . . السلام عليكم ورحمة الله .

فسأله بعض أصحابه متعجبين :

---

١ الاستقصا: ١/٨٤ .

٢ وليلى : مدينة بالمغرب قرب طنجة .

٣ المصامدة : نسبة إلى « مصمودة » وهي قبيلة بالمغرب فيه موضع يعرف بهم ، خرج منها محمد بن تومرت .

٤ السوس : بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية . أما سوس المغرب فهي كورة مدينتها طنجة ، وهي المعنية هنا .

٥ زرهون : جبل قرب فاس ، فيه أمة لا يحصون .

٦ نهر بالمغرب قرب طنجة من أرض البربر .

٧ الاستقصا : ١/٨٢ .

– على من تسلم يا وليّ الله ؟

فأجابهم :

– على قوم يونس ، وهم من وراء هذا البحر . ولولاه لوقفت بكم عليهم . ثم قال لأصحابه ، وما زال هو وجواده وسط الماء : ارفعوا أيديكم إلى السماء .

ففعلوا ، ثم قال :

« اللهم إني لم أخرج بطراً ، ولا أشراً ، وإنك لتعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تُعبد ولا يُشرك به شيء . اللهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام »[1] .

وقال ابن خلدون في حرب عقبة الأخيرة مع البربر : « وصل عقبة إلى جبال درن[2] وقاتل المصامدة بها ، فكانت بينه وبينهم حروب . وحاصروه بجبل درن ، فنهضت إليهم جموع زناتة – وكانوا خالصة للمسلمين – فأخرجت المصامدة عن عقبة وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ، ودوّخ بلادهم ، ثم أجاز إلى بلاد السوس ، لقتال مَن بها من صنهاجة – أهل اللثام – وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ، فأثخن فيهم . وانتهى إلى « تارودانت » ، وهزم جموع البربر ، وقاتل مسوفة من وراء السوس ، ودوّخهم وقفل راجعاً »[3] .

---

١ الكامل : ٤/١٠٥ . الاستقصا : ١/٨٢ . البيان المغرب : ١/٢٧ .

٢ درن : جبل من جبال البربر بالمغرب ، فيه عدة قبائل وبلدان وقرى .

٣ الاستقصا : ١/٨٢ .

كسيلة رئيس البربر

ذكرنا أن أبا المهاجر استطاع أن يكسب صف كسيلة بن لمزم ، أحد أكابر البربر ورؤسائهم ، وأنه تمكن من إقناعه بالدخول في الإسلام . ولما قدم عقبة وسجن أبا المهاجر ، أبقاه معه ، وأمر بحمله حيث يذهب الجيش مغلولاً بالأصفاد .

ولما لاحظ أبو المهاجر أن عقبة يهين كسيلة ، طلب إليه أن يحفظه ويرعاه ليكسب صفوف البربر . ولكن عقبة لم يتقبل النصيحة واعتبرها مغرّضة ، فزاد من استخفافه بكسيلة . من ذلك أنه أتى مرة بذَود غنم للمعسكر ، فذبح الذود ، فأمرَ عقبةُ كسيلة أن يسلخ مع السالخين . فقال له كسيلة مستكبراً الأمر ، محتقراً له :

— أصلح الله الأمير ! هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة [1] !

فنهره عقبة ووبّخه ، وأمره بالسلخ . ففعل وهو يهمهم ويبربر . وكان كلما دحس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ، وجعل العرب يمرون به فيسألونه :

— ما هذا الذي تصنع يا بربري ؟

فيقول :

---

١ رياض النفوس : ١/٢٦ . الكامل : ٤/١٠٥ .

ـ هو أجير ! . . . هذا جيد للشّعر !

ومرّ شيخ بقربهم ، وسمع كلامه ، وقرأ ملامحه ، فقال لهم :

ـ إن هذا البربري يتوعدكم .

وبلغ ذلك أبا المهاجر ـ وما زال معتقلاً بين يديه ـ ، فقبّح فعلته ، وأمره أن يرتجع عن إهانته ، فلم يرتدع عقبة . فقال له دينار :

ـ ما هذا الذي صنعت ؟ كان رسول الله (ص) يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي . وعُيينة بن حصن ، وأنت تعمد إلى رجل جبار هو خيار قومه في دار عزه ، حديث العهد بالشرك ، فتفسد قلبه ! توثّق من الرجل فإني أخاف فتكه »[1] .

كان عقبة يشك في إيمان كسيلة أصلاً ، ويخشى أن يؤلب البربر عليه في غفلة منه ثأراً لصديقه أبي المهاجر . وكان يعلم ـ لهذا ـ أن كسيلة يضمر له الشر فعمد إلى إهانته .

لعل عقبة أخطأ في معاملة كسيلة ، بل أخطأ فعلاً . وليس من الصحيح أن يسير المرء على قول القائل : صديقُ عدوّي عدوي ، فهذا تقصير يؤاخذ عليه، على ندرة أخطائه . ثم هو يعلم أن تقاليد البربر تشبه تقاليد العرب ؛ ومن العيب عندهم إهانة الرئيس ، ومن العيب أيضاً اشتغال شيخ القبيلة ، وماذا يضير عقبة لو أنه لاطفه وقربه ؟ ولعله كان يستطيع بذلك أن يظفر بقلبه كما ظفر به سلفه .

وكان أن أضمر كسيلة الشر ؛ فالثأر ولا العار ، ولو بعد أدهار ، فانفصل عنه وترصد له . . .

---

١ رياض النفوس : ١/٢٦ . الاستقصا : ١/٨٤ .

طريق العودة

كان كسيلة يتبع عقبة منذ خرج من القيروان ، ويسعى لأن يترصّد لساعة الثأر والانقضاض . ولهذا كان يردم كل بئر كان عقبة يقف عليها ثم يتخطّاها . ظناً منه أن عقبة سيعود من الطريق نفسه الذي قدم منه ، وسيفاجأ يومئذ بنضوب المياه ، فيصبح هو وجيشه لقمة سائغة في يده .

ولكن القائد المحنك ، بعد أن حقّق كل هذا النصر اتجه إلى القيروان عائداً من طريق غير طريق ذهابه ، وكاد يصل . ويرجع المؤرخون تغيير الطريق إلى أسباب ، منها :

١ — أن عقبة أحب أن يمرّ في إيابه ببعض مناطق الداخل ، بعد أن فتح طريق الساحل وجزءاً من طريق الداخل .

٢ — أن السير في الصحراء على العربي دائماً أسهل من السير بين المدن .

٣ — أن طريق العودة الذي اختطه كان مختصراً بالنسبة إلى طريق الفتح .

٤ — لعله توقع بعض الكمائن من الروم أو البربر .

ولست أرى ما رآه بعض المؤرخين من أنه كان يعلم بما يقوم به كسيلة ، لأنه لو كان يعلم حقاً لما ترك نفسه بلا حامية وسط الصحراء ، ولما أرسل جنوده أفواجاً صغيرة ، في حين أنه كان يتوقع أن تنهشها كمائن العدو .

كان الروم على بيّنة مما جرى بين الاثنين ، وكانوا على صلة بكسيلة ؛ يمدّونه بالأخبار ، ويعرضون عليه التوقّعات ، طمعاً منهم بالتخلص من

عقبة على يدي كسيلة ؛ طالبِ الثأر . أما كسيلة فكان يتهرب من اللقاء به . فسأله أصحابه متعجبين :

— لِمَ تَهرب من بين يديه ونحن في خمسين ألفاً ، وهو في خمسة آلاف ؟

فقال :

— إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان . ومدد الرجل قد افترق عنه ، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه[1] .

ولما انتهى عقبة إلى ثغر إفريقية ، وهو « طُبْنة »[2] ، أذن لمن بقي معه بالانصراف إلى القيروان ، ومال هو في خيل يسيرة يريد تَهوذة[3] ، لينظر قدر ما يكفيها من الخيل ، فيقطع ذلك إليها ، وكانت جنوده متياسرة عن طبنة . ولكن أهل طُبْنة خافوا ، وظنوا أنه طليعة الجيش ، فأغلقوا الأبواب دونه ، وأرسلوا إلى كسيلة يخبرونه بوصوله إلى حصنهم ، ويُعلمونه بقلة من معه[4] .

الاستشهاد :

وعندما وصل النبأ إلى كسيلة خرج على أثره وتعقبه . فأحس عقبة عندئذ بحركات البربر والروم حوله ، وفاجؤوه بظهورهم أمامه ليلاً . وشعر عقبة بحراجة الموقف ، وبالخطأ الفادح الذي ارتكبه بتفتيت جيشه إلى فلول متناثرة . واستعد لحربهم ، ولم يكن معه غير ثلاثمئة من أفضل رجاله ، وفيهم عدد

---

١ رياض النفوس : ١/٢٦ .

٢ طبنة : بلدة في طرف إفريقية ، مما يلي المغرب على طرف الزاب . فتحها موسى بن نصير .

٣ تهوذة : اسم لقبيلة من البربر لهم أرض عرفت بها بناحية إفريقية ، وهي اليوم في الجزائر .

٤ فتوح إفريقية : ٥٨ . الكامل : ٤/١٠٦ .

من صحابة الرسول (ص) فتضايق أبو المهاجر من أغلاله التي حزّت ساعديه وغلى الدم في عروقه ثورة ورغبة في الاستشهاد، وتمثّل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حَزَناً أن تمرغَ الخيلُ بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديدُ وأغلقت مصارع من دوني تصمُّ المُناديا

فبلغ عقبة ذلك فأمر بفك قيوده . ولكن أبا المهاجر رفض وقال :

ـ ألقى اللهَ وفي يديّ حَديدي .

فقال له عقبة :

ـ الآن أوانُ الاستشهاد لا أوان الاستعباد .

وفكّ قيده وقال له :

ـ الحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة[1] .

فلم يفعل وقال :

ـ وأنا أيضاً أريد الشهادة .

وتصالح الجبلان ، واتفق القائدان ، وكسر الجنودُ الجفان ، واستعدوا لخوض المعركة وهم يعلمون أن الشهادة أمامهم وأن الجنة مأواهم .

وتقدم البربر ، وقاتلوا المسلمين وتكالبوا عليهم حتى قتلوهم عن بكرة أبيهم سنة ٦٣ هـ[2] . وتركهم الكفرة وسط الصحراء صرعى ، وهربوا .

---

١ الرواية تقول : وقتل المسلمون جميعاً . والظاهر أن بعضهم أسر ، أو جرح ولم يمت وإن لم يكن كذلك ، فمن أين وصلنا هذا الحوار ؟ أم هو من صنع الرواة والمؤرخين ؟ المرجح أن بعضهم لم يقتل .

٢ فتوح إفريقية : ٦٠ . الاستيعاب : ١٠٧٧/٣ . أسد الغابة : ٤٢١/٣ .

هربوا دون أن يعلموا أنهم قتلوا أبا المهاجر معهم الذي كان يُظن أن كسيلة كان يريد أن ينقذه ويثأر له معه .

ولما وصل الأمر إلى زهير البلوي ، الذي عينه عقبة على القيروان ، أحس بجلل الموقف وعظمه ، فأخذ يحثّ المسلمين على الصمود أمام جيوش البربر ، وقال لهم :

ـ يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، فاسلكوا سبيلهم ، أو يفتحَ الله عليكم .

ولكن حنشاً الصنعاني[1] أبَى الصمود لما علم أنه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر :

ـ والله لا قبل لنا على ملاقاة هذا البربري بعد مقتل قائدنا عقبة . وإنني راجع إلى مصر ، فمن أراد الانسحاب فليتبعني .

فتبعه خلق كثير ، وبقي زهير في عدد قليل من رجال وأهل بيته . وبعد تفكير عميق منه رأى الانسحاب من القيروان والاتجاه إلى برقة . وبينما كانت فلول المسلمين تخرج من القيروان يتقدمها زهير كان كسيلة قاصداً إليها عابراً ضواحيها . ودخل القيروان وكان بها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين . فطلبوا الأمان من كسيلة فآمنهم . وهكذا استولى على إفريقية كلها سنة ٦٤ هـ ، وأقام فيها أميراً على البربر وعلى من بقي من العرب والمسلمين خمس سنين[2] ، إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان ، عندئذ

---

١ هو حنش بن عبد الله الصنعاني أبو رشيد . من أبناء « صفا » بالشام . تابعي ثقة ، وكان من رجال علي . اشترك في فتح المغرب ، ثم غزا الأندلس مع موسى . نزل في نهاية حياته في مصر ، وتوفي فيها سنة ١٠٠ هـ .

٢ الاستقصا : ١/٨٤ .

فكر هذا الخليفة برد كسيلة وطرده من البلاد[1] .

وبمقتل عقبة عادت إفريقية كما كانت أيام فتوح عقبة وعمرو ولم يعد ما بأيدي المسلمين إلاّ برقة التي كان يرابط فيها زهير البلوي . وقد استعاد البربر والروم مناطق المغرب التي احتلوها . . . وعاد الأمر وكأن لم يكن .

يأخذ بعض المؤرخين ونقاد التاريخ بعض المآخذ على حملته الأخيرة هذه ، أهمها :

١ — الغزو السريع الخاطف ، ولو كان سيره بطيئاً لاستطاع أن يؤسس قواعد للجهاد ثابتة .

٢ — عدم وضعه حاميات على طول الطريق الذي ساره . ورأينا أنه لو فعل ذلك لما بقي في جيشه أحد عند طنجة لأن الطريق طويلة وأعداد الجيوش قليلة . ولم يجرؤ على السير مثله أحد من القواد إلاّ طارق وموسى من قواد الفتح في المغرب العربي .

٣ — يعتبرون غزوته الكبرى هذه نكسة للمسلمين ، وما أشنعها نكسة ! نكسة جعلت المسلمين يرتدّون ويقتلون ، والبربر والروم يثورون ويحتلون . . وسبب ذلك راجع إلى عدم التخطيط . وهذا غير صحيح لأن الذي خطط لمعارك صغيرة لن يتهاون في رسم الخطط لغزوة يعرف أنها أكبر حملة سيقوم بها المسلمون منذ دخلوا برقة . ومع أنها نكسة فإن النتائج ليست سيئة كما كان يظن ، لأنها استطاعت جمع المعلومات وفتح الطريق المغلق . وما دام عقبة نجح في الوصول إلى المحيط فمن الطبيعي أن يستعد خلفه للوصول إليه ثانية . وسيتلافى حتماً أخطاء عقبة . ونحن نعلم أن التعلم من الخطأ وتلافيه ،

---

١ الكامل : ٤/١٠٨ .

أفضل من التعلم من الصحيح والسير عليه . ثم إنهم سيستفيدون فعلاً من المسلمين الذين ظلوا في أقاصي المغرب من بربر وعرب .

ويعجبني رأي اللواء الركن محمود شيث في كتابه « قادة فتح المغرب العربي » في هذا الموضوع إذ قال : « وأفترض هنا أن دافع هذا النقد هو عدم التخصص في النواحي العسكرية . وبتعبير آخر إن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا عسكريين من ذوي الاختصاص » . ويضيف اللواء الركن : « إذا كان قد وضع حامية في القيروان وهي مدينة إسلامية ، فهل يغفل عن وضعها في المراكز المهمة الأخرى ؟ » .

وفي رأينا أن تقصيره الوحيد هو في توسيع دائرة فتوحه . ولو أنه قصر نفسه على نقطة معينة وأسسها كما أسس برقة في ليبيا والقيروان في تونس لكان أفضل . ولكننا لا نستطيع أن نحكم أو نفترض أشياء حدثت في ظروف خاصة منذ مئات السنين ، وهو قائد عسكري يعرف ما يقوم به ، ولو أنه لم يقتل لكان قام – لعله – بالتثبيت والتأسيس . . . ولكن القدر هو الأقوى .

كما أنه اضطر إلى ترك بعض المدن من غير فتح ، وهذا أمر طبيعي . إذ ليس من المعقول أن يفتح كل هذه الأصقاع في سنة وبضعة أشهر . ولعله كان يقصد من هذا الغزو السريع معرفة مِساحة المِنطقة وإمكانيات الروم والبربر . وفي نفسه أنه سيعود ثانية ، ولهذا رأيناه يركز على نقاط ويُغفل عن غيرها .

قبره :

كان عقبة ومن معه في اللقاء الأخير زُهاء ثلاثمئة من الصحابة والتابعين ، استشهدوا جميعاً في مصرع واحد . قال ابن خلدون : « وأجداث الصحابة

– عقبة وصحبه – بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جُعل على قبورهم أسنمة ، ثم جُصصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف بمسجد عقبة ، وهو في عداد المزارات ومظانّ البركات . بل هو أشرف مزار من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين » .

وقد أسر عدد من الصحابة – لعلهم – كانوا في مكان آخر ، منهم : محمد بن أوس الأنصاري ، ويزيد بن خلف العبسي ، ففداهم صاحب قفسة ، وبعث بهم إلى القيروان .

وقد وقع عقبة – رحمه الله – شهيداً بالقرب من « بِسْكِرَة »[1] التي تقع اليوم في الجزء الشمالي الشرقي من الجزائر ، وأصبح قبره مزاراً . وقد بني عليه اليوم مسجد يعتبر أقدم أثر فني إسلامي في إفريقية[2] .

وقد صدق رسول الله (ص) في حديثه إذ قال : « إن إفريقية يحشر منها سبعون ألف شهيد ، وجوههم كالقمر ليلة البدر » .

---

١ بسكرة : (وتفتح باؤها وكافها) بلدة في المغرب من نواحي الزاب ، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان .

٢ صانعو التاريخ : ٧٨ .



الفصل الخامس

الفتح بعد عقبة



١ - زهير البلوي* وقتل كسيلة

انقلبت إفريقية ناراً بعد استشهاد عقبة ، وعظم البلاء بالمسلمين . وهرب الرجال من هجوم البربر . وأرسل الباقون إلى كسيلة يطلبون منه الأمان ؛ فبعد أن كانوا أصحاب القوة غدوا طالبي السماح ، فأمّنهم ودخل قيروانهم . . وجلس مجلس عقبة يحكم ويأمر .

وظل الأمر في تقلب واضطراب بين مصر والشام وإفريقية ، حتى تسلم الخلافة عبد الملك بن مروان أحد أبطال الفتوح في المغرب . وتشاور مع حاشيته في أمر ولاية المغرب فاقترحوا عليه أسماء ، غير أنه قال لهم :

- لا يصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلاّ من هو مثله في دين الله عز وجل .

فاتفق رأيهم على زهير بن قيس البلوي وقالوا :

- هو صاحب عقبة ، وأعرف الناس بسيرته ، وأولاهم بطلب ثأره .

كان زهير ببرقة مرابطاً منذ قفل من إفريقية . فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية لحرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة ، وحضّه على الطلب بدم عقبة . ولكن زهيراً كتب إليه يستمده بالرجال والأموال . فوجه إليه عبد الملك وجوه

* هو زهير بن قيس البلوي ويكنى أبا شداد . صحابي بالمولد . مجاهد اشترك في فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وفي فتح إفريقية مع عقبة . انظر ترجمته مفصلة مع أسماء المصادر في كتاب قادة فتح المغرب العربي : ١/١٥٠ .

أهل الشام مع أموال كثيرة . فلما وصل ذلك إليه أعدّ العُدة في عسكر عظيم جمع فيه أهل الشام وبرقة ، وأعلن الجهاد سنة ٦٩ هـ[١] ، أي بعد ست سنوات من استشهاد صديقه عقبة . واتجه نحو القيروان .

ولما علم كسيلة بحملة زهير الكبرى جمع جيشاً حشد فيه البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال لهم :

— رأيت أن أرحل إلى « مَمْسى »[٢] فأنزلها ، فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نقدر بهم . ونخاف إن قاتلنا زهير أن يثِبَ هؤلاء من ورائنا . فإذا نزلنا « ممسَى » أمنّاهم وقاتلنا زهيراً : فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس ، وقطعنا أثرهم من إفريقية . وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا .

فأجابوه إلى ذلك ورحلوا إلى « ممسى » .

وبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان ، بل أقام في ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ، ثم رحل في طلب كسيلة[٣]، حيث اشتبك العسكران في معركة عُرفت بساقية ممسى . والتحم الطرفان حتى أيِس الناس من الحياة . ثم جاء نصر الله فانهزم كسيلة وأصحابه . ولما كان كسيلة ضالّة زهير فقد تبعه حتى تمكن منه ، وقتله هو وأصحابه .

ثم عاد زهير إلى القيروان فرأى ملك إفريقية عظيماً ووجد أن المجد لاحقه إن هو بقي فيها ، فخشي على نفسه الفتنة ، وكان من العباد الصالحين فقال :

---

١ البيان المغرب : ١/٣٢ . الاستقصا : ١/٩٢ .

٢ ممسى : قرية بالمغرب .

٣ الكامل : ٤/١٠٩ .

– إنما أحببت الجهاد ، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك .

فنظّم القيروان وأعادها آمن ما تكون . وترك فيها جيشاً يحميها ثم قفل راجعاً يريد المشرق[1] .

ولقد ارتكب زهير خطأ كبيراً عندما سار بجيوشه إلى القيروان ، إذ لم يترك حامية تحمي برقة والمسلمين . فلما بلغ خبر مسيرته الرومَ بالقسطنطينية قدموا إليها على جناح السرعة بمراكب كثيرة خرجت من جزيرة صقلية ، فاحتلت برقة كلها ، وأغاروا عليها وقتلوا المسلمين ونهبوهم . ووافق ذلك عودة زهير من غزوته في خفّ من أصحابه فرآهم زهير ومن معه ، يسوقون المسلمين أسرى فاستغاثوا بأميرهم[2] . فهاله الأمر ، وأحس حينذاك بالخطيئة التي ارتكبها فأراد الانصراف إلى مصر فأبى ابن حيان الحضرمي وقال :

– لا تفعل فإنها هزيمة .

وكان أوّلَ من برز وضرب خباءه ونزل مبارزاً للعدو . ولما رأى زهير عزمه وعزم المسلمين – على قلّتهم – عزم على الاستشهاد معهم ، وهجموا على العدو الرومي . واشتد القتال ، وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيراً ومن معه عن بكرة أبيهم بمدينة « درنة » سنة ٦٩ هـ[3] . وما زالت قبورهم معروفة إلى اليوم ، وتعرف بقبور الصحابة ، يزورها المسلمون ، ويتبركون بهؤلاء الرجال ، الذين أفنوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى في شمال إفريقية .

---

١ الاستقصا : ١/٩٢ .

٢ نهاية الأرب : ١٧ ، المؤنس : ٢٠ ، فتوح البلدان : ٢٧٠ ، أما صاحب كتاب رياض النفوس : ٢٩ فيقول إنه بعد أن انتصر زهير على كسيلة عاد إلى دمشق يطلب من عبد الملك تعيين أمير مكان عقبة . وسنراه بناء على هذه الرواية في مقدمة جيوش موسى بن نصير .

٣ الاستقصا : ١/٩٢ .

٢ - حسّان* وقتل الكاهنة

هدأت إفريقية سنة ٦٩ هـ . بمقتل كسيلة ، ولكن برقة الآن عادت تشكو من القلق والاضطراب ، ومن نزول الروم على شواطئها بعد استشهاد زهير .

أما البربر فبعد مقتل رئيسهم تفرق جمعهم ، وانفرط سلطانهم ، وتوزع أمرهم على عدد من رؤساء القبائل . إلى أن نهضت من بينهم امرأة كاهنة تدعى « دامية بنت ماتية بن تيفان » ملكة جبل أوراس بعد وفاة زوجها [١]. فجمعت كلمة البربر ووحدت صفوفهم ، وأعدّت العدة للقاء المسلمين . غير أنها لم تكن بذكاء كسيلة ، فقد ظنت – كما سنرى – أن العرب إنما قدموا طمعاً في ثروة البلاد . فأعملت التخريب في المدن ، وتهديم القلاع ، وحرق الغابات والزروع . فضجّ منها الأهالي ، وثاروا عليها ، وأرسلوا في طلب المسلمين [٢] .

---

* هو حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني ، من نسل أمراء غساسنة الشام . كان تابعياً حدث عن عمر بن الخطاب . وكان له فضل محمود في فتوح إفريقية والمغرب الأوسط وقتل الكاهنة .

١ ويقولون : اسمها داهية بنت مائيا الزناتية ، أو بنت ينفاق ، أو بنت تابتة . وابن خلدون يرى اسمها « دحية » من قبيلة « جراوة » من زناتة . ويقال إن قبيلة « جراوة » تهودت قبل الإسلام (المغرب العربي : ٢٤٣) .

٢ المغرب العربي : ٣١ .

هكذا كان وضع إفريقية والمغرب قبل أن يفد عليها حسان .

أيقن عبد الملك أن المغرب لا يمكن فتحه فتحاً نهائياً إلاّ بجيش كثيف . فأعدّ لذلك جيشاً لجباً عدده أربعون ألف جندي وفارس سنة ٧٤ هـ[١] .

وكان والي مصر في زمن عبد الملك حسان بن النعمان ،. وكان يقال له : الشيخ الأمين . وكان من خيرة القواد الأذكياء في شمال إفريقية ومن أكفئهم في هذه المهمة[٢] . فأمره عبد الملك أن يخرج إلى البربر . فانصاع حسان لأمر الخليفة ، وسار إلى القيروان ، فرأى الروم قد تجمعوا في قرطاجنة ، ولم يكن قد دخلها العرب مطلقاً فحاصرها وفتحها ، وقتل مَن بها إلاّ من هرب بحراً إلى صقلية أو الأندلس .

وما ان خرج عنها حتى ثارت ثانية من قبل بعض روادها من القبائل والضواحي . فعاد إليها وخرب بعض أسوارها وكل قنواتها ، حتى يصعب على الجنود التحصن بها . ثم بلغه أن البربر والفرنجة قد عسكروا في جموع عظيمة ببلاد « سَطْفورة »[٣] و « بَنْزَرت »[٤] ، فلحقهم وشتّتَ شملهم ، فانحازت جموعهم إلى « باجَة »[٥] و « بُونة »[٦] . ثم عاد إلى القيروان يريح ويستريح ، وليستعد لاستقبال الكاهنة . ومن هناك سأل عنها وعن أهلها (قبيلة جراوة) وعن قوتها ومكامنها .

---

١ اختلف الرواة في سنة المسيرة العسكرية وتراوحت الآراء بين ٦٩ و ٧٨ .

٢ قال فيه عبد الملك : ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان .

٣ سطفورة : (وبالصاد) بلدة من نواحي المغرب .

٤ بنزرت : مدينة بإفريقية ، بينها وبين تونس يومان ، وهي من نواحي سطفورة .

٥ باجة : بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح ، بينها وبين تنس يومان .

٦ بونة : مدينة بإفريقية ، وهي مدينة حصينة مقتدرة ، وهي على البحر .

وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن أبيهم ، وكانوا صغاراً فربتهم في حجرها . ثم استبدت بهم ، واعتزت على قومها بهم ؛ وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم . فانتهت إليها رياستهم ، ووقفوا عند إشارتها . وقد ملكت هذه المرأة حكم البربر خمساً وثلاثين سنة وعاشت سبعاً وعشرين ومئة . وكان قتل عقبة وأصحابه برأيها وإغرائها ومشورتها ، بدافع اتصالها بكسيلة والروم . وقد ازدادت قوتها وعدد الموالين لها بعد مقتل كسيلة[1] .

ولاحقها حسان والتقى بها في معركة في وادي « مسكيانة » ، على نهر يدعى « البلاء » . غير أن الكاهنة تغلبت عليه ، وهزمته بعد أن أسرت من رجاله ثمانين رجلاً[2] . وتراجع حسان إلى برقة ؛ نقطة ارتكاز المسلمين الأولى ، وقاعدة عقبة الراسخة ، ينتظر إسعاف عبد الملك وإنجاده ، وانتظر فيها أربع سنوات ، ركز خلالها جهوده في تنظيم برقة وإعداد جيوشه وأتى قصوراً في حيّز برقة فنزلها فسميت باسمه وهي « قصور حسان »[3] .

وفي سنة ٨٠ هـ ، وفدت عليه إمدادات ضخمة ، وحسب رأي بعض المؤرخين أن هذه الإمدادات كانت أضخم ما دخل المغرب من الجيوش . ولما وصل صدى قدوم هذا الجيش إلى الكاهنة أحسّت بضعفها أمامه ، ورأت

---

١ الاستقصا : ٢/٩٣ .

٢ المؤنس : ٣٢ .

٣ فتوح البلدان : ٢٧٠ . عندما هرب حسان من الكاهنة اضطر إلى التراجع إلى منطقة سرت بين برقة وطرابلس فبنى قصوراً وقد اندرست الآن ، ولم يبق منها إلا اسمها ورابية تناثرت فيها الحجارة التي استخدمها حسان في بناء قصوره (انظر التفصيل في معجم البلدان الليبية : ٢٧٨) .

أنه من الصواب أن تنسحب . فانسحبت إلى أعماق جبال أوراس ، واعتصمت بها .

غير أن البربر تضايقوا من تدميرها المغرب ، فاستأمنوا إلى حسان . فأعدّ العدة[1] ، وسار بجيشه يحارب كل ما يلقاه في طريقه بحثاً عنها ، إلى أن لقيها سنة ٨٢ (وقيل ٨٤) قرب طَبَرقة[2] ، فهزمها هزيمة نكراء[3] . ثم لحقها وقتلها ، واحتزّ رأسها عند البئر المعروفة باسمها (بئر الكاهنة) في جبال أوراس . ثم لحق جموعها فأوقع بهم ، وقتل منهم الكثير ثأراً للمجاهدين التي كانت سبباً في إبادتهم . ثم اقتحم الجبل ، واستسلم في زهاء مئة ألف من البربر فهزمهم ، واستأمن إليه باقيهم على الإسلام والطاعة . واشترط عليهم حسان أن يكون معهم اثنا عشر ألفاً لا يفارقونه في موطن جهاده . فأجابوه وحسن إسلامهم ، وعقد لأكبر أولادها على قومه من جراوة وحتى جبال أوراس[4] .

وبعد أن انتهى أمر البربر والكاهنة ، اتجه نحو البيزنطيين الذين استردوا قرطاجنة . ولما علم البيزنطيون وجهة حسان ، وعلموا أن قواتهم لا تقوى

---

١ كان من بين أسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة الكاهنة « خالد بن يزيد العبسي » . وكانت قد تبنته وربته مع أولادها . وقد خدم خالد المسلمين كثيراً عن طريق تبادل الرسائل السرية بينه وبين حسان . وقد شجعه على القدوم ، وكشف له خفايا الكاهنة . ويعتبر خالد فدائياً مخلصاً لأنه كان يعلم أن قدوم حسان ومعرفة أسرار الكاهنة يعني كشف أمره وبالتالي قتله . ولكن الكاهنة حين علمت بقدوم حسان رجته أن يأخذ أولادها إليه ليأخذ الأمان لهما منه ، وقالت له : إنما حفظتك لمثل هذا اليوم . وذهب بهم إليه وأخذ عهداً بإبقائهم أحياء .

٢ طبرقة : مدينة بالمغرب من ناحية البر البربري على شاطىء البحر قرب باجة .

٣ المؤنس : ٣٢ .

٤ الاستقصا : ١/٩٤ .

على لقائه هربوا بحراً ، وهذه هي عادتهم دائماً ؛ إذ يعدون سفن الهرب قبل إعداد العدة للبقاء أو اللقاء . ففتح قرطاجنة بكل سهولة . وفهم أنهم سيعودون يوماً من حيث أتوا ، فأراد أن يقطع دابرهم بعمل جذري ، فصمم على بناء مدينة إسلامية على غرار ما فعله عقبة ، تكون متاخمة لقرطاجنة ومنافسة لها . فاختار مدينة تَرشيش القديمة[1] ، وبنى مكانها مدينة أسماها « تونس » ، وأعدها عيناً ساهرة للمسلمين ، كما كانت قرطاجنة عيناً للروم . وإذا كانت مدينة عقبة (القيروان) بنيت في الداخل فحمت المسلمين من هجوم القبائل ، فإن حسان بنى تونس على الساحل لتحمي المسلمين من هجمات الأساطيل . وتونس هذه هي التي فاقت شهرة القيروان مع الأيام . . . وحتى زماننا هذا . وبنى فيها داراً لصناعة السفن ، عندما جاءه أمر عبد الملك بذلك[2] — لتكون قاعدة الفتح البحري في جزر صقلية وسردانية وإيطالية فيما بعد . كما بنى فيها المساجدَ والثكنات ، ودار الإمارة والإدارة .

نستطيع أن نعد حملة حسان هذه خاتمة للفتن التي كانت تجري في إفريقية كلها ، ونعتبر حسان آخر من وضع النظم الإدارية والعسكرية فيها . فقد نشر الأمن بين القبائل ، وأتم ما قام به عقبة من تعريب البلاد ونشر الدين ، وإرسال الفقهاء ، وتنظيم الخراج والجزية .

ولما هدأت إفريقية والمغرب اتجه البربر مخلصين هذه المرة إلى الدين الإسلامي ، وإلى استقبال رجاله ونهل علومهم وتعلم مواعظهم . وأقبل الشباب منهم على الجندية فاعتمد عليهم حسان كثيراً لمعرفتهم مسالك البلاد ،

---

١ ترشيش — Tharsis بلاد كان الفينيقيون يقصدون إليها قديماً في طلب المعادن الثمينة، موقعها مدينة تونس .

٢ الاستقصا : ٩٤/١ .

بل إن عدداً من قواده كانوا من البربر . . . وهكذا تحقق حلم عقبة .

وعاد حسان إلى دمشق ليقدم الهدايا والغنائم إلى عبد الملك ، فمرّ بالفسطاط ، وكان عليها عبد العزيز بن مروان ، وكان حسان يعلم أنه يحسده ويغتاظ منه ، وأيقن أنه سيسلبه هداياه وأغنامه . لهذا أخفى كثيراً من الجواهر والذهب في قِرَب الماء المحمّلة . ومع هذا فقد امتدت يدا عبد العزيز إلى الظاهر من الهدايا وكانت كثيرة . ولولا طريقة حسان في إخفاء الجواهر لعاد إلى دمشق خاوي الوفاض . ودخل دمشق ، فسر عبد الملك بما أحرزه حسان من انتصار ، وبما أحضره معه من هدايا . ولما سأله عن أحوال المغرب أعلمه أنه وضع عليها صالحاً أو أبا صالح (؟) .

موسى بن نصير*

وانتهاء فتح المغرب

لما تولى عبد العزيز بن مروان إمارة مصر ، وكان موسى بن نصير وزيره الخاص لديه ولدى أبيه مروان بن الحكم . . أراد أن يكافئه على صداقته ومُوالاته ، وكان حسان لامع الاسم في إفريقية ، وعلى غير وفاق مع عبد العزيز . لذا عزله عبد العزيز ، وولى مكانه موسى وبسط يده على المغرب كله[1] قبل سنة ٨٥ ، لأن والي مصر توفي في هذه السنة . ويرجح أن يكون تولاها سنة ٨٤ ، لأن حساناً قدم دمشق[2] قبل وفاة عبد الملك التي كانت سنة ٨٦ .

أعد موسى جيوشه ، ودخل برقة ، فوافته كتائب المسلمين متطوعة للجهاد . ثم دخل طرابلس دون أن يلقى أية مقاومة كذلك . ومنذ أن دخل أخذ بمحاربة البربر وتهدئة القبائل التي شقت عصا الطاعة .

---

* هو موسى بن عبد الرحمن ، عربي من بني لخم . كان أبوه نصرانياً من بين سبايا عين تمر الذين سباهم خالد بن الوليد . ولد موسى سنة ١٩ هـ في خلافة عمر في إحدى قرى الشام . كان مقرباً في قصر بني أمية . وقد ولاه معاوية على البحر مكانه ، فغزا له قبرس . وفي سنة ٦٥ تولى عبد العزيز بن مروان حكم مصر ، فعين له أبوه موسى وزيراً ومستشاراً .

١ الولاة القضاة : ٥٢ .

٢ الاستقصا : ٩٤/١ .

ودخل موسى المغرب الأوسط[1] ، ووزع جيوشه إلى مجموعات يقود بعضَها أبناؤه ، وبعضها قواد تابعون له — بربر وعرب[2] — . وغزا عدة بقاع ، منها « سجومة » حيث لقي أبناء عقبة بن نافع ، وهم : عُياض ،وعثمان وأبو عبيدة . وشجعهم على أخذ ثأرهم بأنفسهم[3] . ثم دخل السوس الأدنى[4] ، ودخل عاصمتها « طنجة » ، وانتصر على أميرها . ثم نزل السوس الأقصى ، وأرسل الكتائب لمحاربة بربر مصمودة في « أطلس العليا » .

وتابع موسى مسيرته نحو الجنوب ، حتى بلغ البقاع التي غزاها عقبة سنة ٦٢ ، أي منذ أكثر من عشرين سنة . حتى أمِن استقرار المغرب كله[5] ، ثم عاد إلى القيروان .

كان موسى عطوفاً على البربر ، وكان يقدّم لفقرائهم العون ، ويرسل الفقهاء لوعظهم وتعليمهم[6] . وظل يتعقب فلول المنشقين ، ويعطف على المُوالين حتى نظف المغرب كله من كل أدران الوثنية والشرك والعداء . ثم عاد إلى القيروان ، بعد أن ترك أولاده وقواده موزّعين في المناطق ،

---

١ المغرب الأوسط : في عرف القدماء يمتد من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية . واليوم هو قطر الجزائر .

٢ لم يكن موسى أول من سلم قيادة جيوشه للبربر فإن عقبة وزهيراً سبقاه . أما حسان فكان « هلال بن ثروان اللواتي » من خيرة قواده المعتمدين . وهذا يدل على دخول فئات كبيرة من البربر في الإسلام بإخلاص وفي وقت مبكر .

٣ لأن البرانس هم الذين قتلوا عقبة برئاسة كسيلة وبالاشتراك مع الروم .

٤ السوس الأدنى : كورة كبيرة في المغرب عاصمتها طنجة . وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين ، وبعده المحيط الأطلسي .

٥ الكامل : ٢٠٦/٤ .

٦ نفح الطيب : ٢٢٤/١ .

يشرفون باسمه على سير أمور البلاد[1]. ويقال إن البربر ارتدّوا اثنتي عشرة مرة من طنجة إلى طرابلس ، وكانوا في كل مرة يحارَبون . ولم يستقر إسلامهم إلاّ عندما قدم موسى بن نصير وعبر بهم الأندلس .

ولم يتحقق النصر المؤزر ، ولم يعمّ الإسلام البلاد كلها ، إلاّ عندما زحف طارق بن زياد في جموع المسلمين إلى اسبانية ، وتبعه قائده موسى بن نصير . وعندما فتح إسبانية هدأت الفتن في إفريقية والمغرب ، واستقامت الأمور كما يحب عقبة بن نافع ويتمنى . وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك[2] .

وهكذا مضت ستون سنة في شمال إفريقية بين مد وجزر . كنا نرى فيها الجيوش المسلمة تخوض المعارك وتنتصر ، وتتابع الفتح . وقد رأينا عقبة يخوض سيف المحيط الأطلسي . ويحمد الله على هذا النصر ، اعتقاداً منه – ومن غيره – أنه ولجَ الفيل سمّ الخياط ، ثم إذا بنا نفاجأ بعودة المد البربري من الداخل ومن الغرب ومن الجنوب ، والهجوم الرومي من قسطنطينية ومن قواعدها العسكرية في الجزر القريبة . حتى نتوقع تراجع الجيوش المسلمة إلى ما بعد برقة والفسطاط . . ثم إذا بهم يعاودون الكرة بعزم لا يلين ، ويزداد انتصارهم أكثر بألف مرة .

ومن ناحية أخرى كنا نرى القبائل أسلمت ووادعت ، حتى يتهيّأ لنا أن البلاد آمنت إيماناً لا ردّة له ، ثم إذا بها تكفر بما حملته من عقيدة الإسلام ، وتعود إلى وثنيتها الأولى أو إلى نصرانيتها . . وكأن الأمر لم يكن .

وظلت البلاد على هذه الحالة حتى قيّض الله للمسلمين ، خلفاً لعقبة ،

---

١ عين على طنجة طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بكامل أسلحتهم .

٢ جوامع السيرة : ٣٤٤ .

قائداً جمع خبرات القواد السابقين ، وأضافها إلى خبراته الخاصة التي استمدّها من حروبه في الشرق والغرب ، والبر والبحر . ولئن اعتبرناه مُوصل الإسلام إلى أوج استقراره ، لقد علمنا أن واضع حجر الأساس فيما بين برقة وبحر الظلمات هو عقبة بن نافع ، بطل الأبطال في شمال إفريقية ، ومحقق المعجزات في الجهاد ونشر الإسلام .

أما الذين حكموا بعد موسى بن نصير فعدد كبير ، لم يكن لأحدهم كبير أهمية . وقد برز منهم عدد من الفهريين ومن أبناء عقبة وأحفاده . ولعله من غريب الصدف أن يكون حفيده آخر من ذُكر اسمه من أمراء إفريقية زمن الأمويين وأوّل من حكم زمن العباسيين ، وهو حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري . . وجده الذي حظي بأن كان اسمه أوّل اسم في إفريقية .

ونكتفي هنا بسرد الأسماء التي تولت الحكم بعد موسى ، على أن نتوقف لدى أبناء عقبة لصلتهم بجدهم ، ولأنهم كانوا الحلقة الأخيرة من حكم الولاة التابعين ، حيث سيرى التاريخ العربي ولادة دولة مستقلة هي دولة الأدارسة . والأسماء هي :

١ — محمد بن يزيد .

٢ — إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر .

٣ — يزيد بن أبي مسلم .

٤ — بشر بن صفوان .

٥ — عبيدة بن عبد الرحمن الفهري .

٦ — عبيد الله بن الحبحاب .

٧ — كلثوم بن عُياض .

٨ — حنظلة بن صفوان .

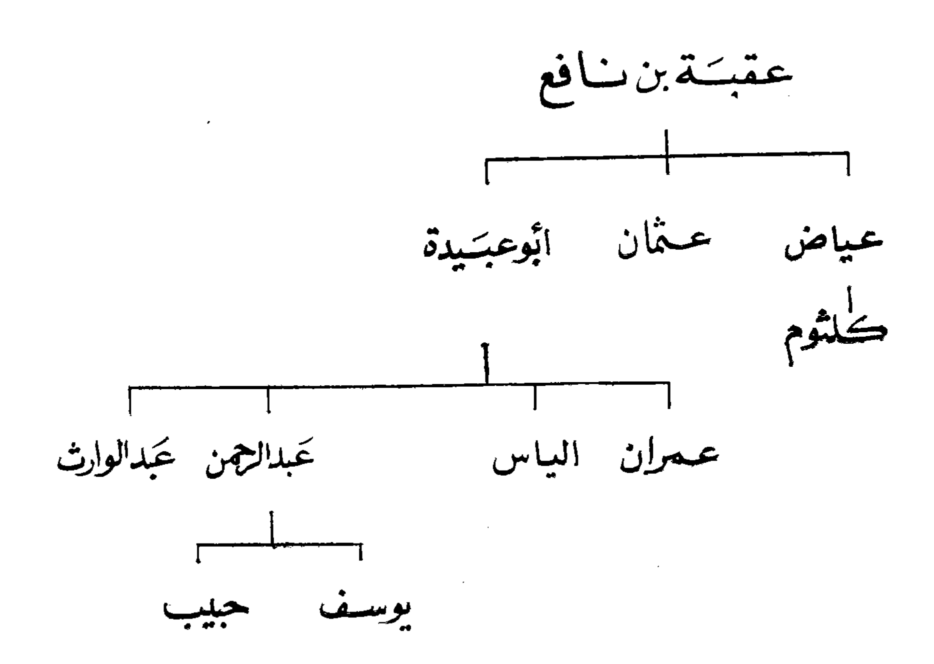
٩ — صالح بن طريف البرغواطي .

١٠ — عبد الرحمن بن حبيب الفهري .

١١ — الياس بن حبيب الفهري .

١٢ — حبيب بن عبد الرحمن الفهري .

٤ - تحكيم آل عقبة في المغرب والأندلس



قدم عقبة وحيداً إلى برقة ، وكان بعدُ فتى . غير أنه لما طال به المقام وطاب تزوج . ولا نعلم موطن زوجه ، أكانت من أهل الحجاز أم من الشام أم من برقة ؟ وكل ما وصلنا عن أسرته أن أولاده برزوا بعد وفاته .

والغالب أنه تزوج في وقت متأخر ، لأننا لم نلحظ اشتهار أحد منهم ،

أو اشتراكه في معارك أبيه ، لصغر سنهم جميعاً – إلاّ أبا عبيدة[1] – أو أن الذكور فقط كانوا صغار السن . ومما يثبت هذا الرأي أنه وضع الوصية بينهم ، ووعظهم سنة ٦٢ ، وودّعهم ، دون أن يصطحب أحداً منهم ، أو يستخلفه على القيروان .

ولم تبرز أسماؤهم ، أو يلمع نجمهم في أفق الجهاد إلاّ حينما قدم موسى ابن نُصير بعد عشرين سنة إلى المغرب الأوسط . حين يخبرنا التاريخ أنه لقيَ أبناء عقبة الثلاثة : عُياض[2] وعثمان وأبو عبيدة . ولما أرسل ابنَه قائد فتح « سجومة » رأينا عُياضاً على مقدمة الجيش . ولما استتبّ الأمر في المنطقة سمح لأبناء عقبة بأخذ ثأر أبيهم من بربر كسيلة ، فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ولم يتوقفوا إلاّ عندما ناداهم موسى قائلاً : « كفّوا » . فاستجابوا لأمره من دون أن يشفى غليلهم بمقتل أبيهم .

ولم يكن عقبة وحده من بني فهر ممّن أحب البقاء في برقة ، وفضّل المغربَ على المشرق . بل إننا نجد أبناءَه صمموا على البقاء حيث ووري أبوهم التراب ، وآثروا الصمود بعد يوم الاستشهاد في الزاب « تهوذة » .

فبقي أهله بعده معززين مكرّمين من قبل كل الأمراء الذين مرّوا بالمغرب ، مقدّرين أسرة الشهيد ، ومكانة هذا الإنسان في المغرب . وحافظ الشعب

---

١ أبو عبيدة مرة ، كان له فضل ودين . روى عن ابن عمر وغيره . وروى عن أبيه عقبة . دخل مع أبيه إفريقية ، وشهد معه بعض مغازيها (رياض النفوس : ٩٥) .

٢ هو عياض بن عقبة أبو يحيى . كان من جملة التابعين ، وفضلاء المؤمنين . روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره . سكن إفريقية وأوطنها ، وكان مع والده في حياته وبعد وفاته . ثم انتقل في آخر عمره إلى مصر فسكنها وأوطنها ، ودفن ابنه يحيى فيها . توفي في مصر سنة ١٠٠هـ . (رياض النفوس : ٨٤) .

من برقة إلى طنجة على أبنائه وأولاهم التقدير الكافي ، تكريماً لأبيهم الذي علّمهم أكثر من حرف ، وقادَهم إلى الطريق السويّ السليم .

وقد عرف العالم الإسلامي آنئذ ما قام به عقبة من نشر الدين وإعلاءٍ لكلمته ، وجهادٍ في سبيله . وقدّر الأمراءُ والخلفاءُ ما قدّمه هذا الإنسان المجاهد من أعمال بطولية ، ساعدت على ترسيخ دعائم الإمبراطورية العربية . وأيقنوا أنه وحده استطاع أن يقوم بما عجز عنه كل القواد من حيث نشر الدين ، وتوسيع رقعة البلاد . وعلموا أنه هو الذي فتح الطريق إلى بحر الظلمات ، وأعدّ جسر العبور إلى الأندلس ، بما بناه من قواعد إسلامية ، وما فتحه من بلاد . ولهذا لم يتوانَ أحد عن تقديم واجب الولاء والطاعة والإكبار إلى أبنائه الصغار ، الذين آثروا العيش في أرض أنشأهم عليها أبوهم ، وفضّلوها على أرض أجدادهم وذويهم .

بل إنهم كانوا محط الأنظار والتقدير والاستشارة من قبل الولاة ؛ يأخذون برأيهم ، ويهتدون بهديهم . . على أنهم أبناء بطل كبير . غير أنهم سرعان ما استهوتهم السياسة ، ودوّختهم الإمارة ، فوقعوا في حبائلها ، وقادتهم إلى التمسك بها . فطمحوا إلى الملك ، وتنافسوا عليه ، وساعد الشعب هؤلاء آناً وأولئك آناً آخر . وانشقوا على أنفسهم ، وحارب بعضهم بعضاً حربَ طوائف . وساعدوا على تسليط البربر ، وعلى خروجهم عن الإسلام . . فهدموا ما قام به جدهم عقبة .

ومن أبرز النقاط التاريخية التي سُجلت لهم أو عليهم هي :

١ — لما سار موسى بن نصير إلى الأندلس ليلحق بطارق بن زياد ، استخلف على القيروان ولده « عبد الله » ، وأخذ معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة . ولما أمره الوليد بن عبد الملك بالعودة إلى دمشق بعد فتحها ، استخلف

ابنه عبد الله على القيروان ، وعبد العزيز على الأندلس ، فثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز أيام سليمان بن عبد الملك ، وقتلوه . . . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، علماً أن عبد العزيز وحبيباً كانا مجاهدين[1] .

٢ – ولما تولى « كلثوم بن عياض بن عقبة » أمر القيروان ، أساء السيرة في أهلها . فكتبوا إلى ابن عمه « حبيب » ، وهو يومئذ بتلمسان ، يشكون جور كلثوم ، ويرجونه التوسط لديه . فكتب حبيب رسالة إلى كلثوم ينهاه ويتوعده ، فاعتذر كلثوم عمّا بدر .

٣ – استخلف كلثوم عبدَ الرحمن بن حبيب على القيروان ، وسار هو يؤمّ المغرب في جموعه . وانتهى إلى تلمسان ، فلقي حبيبَ بن أبي عبيدة ، فاقتتلا ، ثم اصطلحا . وزحفا جميعاً إلى المغرب الأقصى مجاهدين . غير أنهما قُتلا في معركة انهزم فيها المسلمون أمام جحافل البربر .

٤ – لما قُتل عبد الملك بن قطن الفهري ، وصُلب في المعركة السابقة عزم عبدُ الرحمن بن حبيب على الطلب بدمه . فاجتمع إليه مئة ألف من عرب الأندلس وبربرها ، ولحق بقاتل ابن عمه عبد الملك وقتله ، بعد أن هزم جموعه[2] .

٥ – ظل عبد الرحمن بن حبيب في الأندلس بعد مقتل أبيه وابن عمه يحاول التغلب عليها . ولكن لما قدم أبو الخطّار[3] والياً عليها أيِس منها ، وخاف على نفسه ، فخرج مستتراً . وركب البحر إلى تونس ، فنزل بها

[1] الاستقصا : ١/١١٨ .
[2] الاستقصا : ١/١٢٠ .
[3] هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وجهه حنظلة والياً على الأندلس سنة ١٢٥ .

سنة ١٢٧ (أو ١٢٦) ، فدعا الناس إلى نفسه فأجابوه . ثم امتدّ سلطانه على المغرب كله .

فأراد حنظلة بن صفوان الكلبي [1] الخروج إليه والزحف لقتاله . ولكنه كره قتال المسلمين لأنه كان ذا ورع ودين . فاكتفى بإرسال جموع من وجوه إفريقية ، فدعوه إلى مراجعة الطاعة . فلما قدموا عليه أوثقهم بالحديد ، وأقبل بهم إلى القيروان ، وقال :

– إن رمى أحد من أوليائهم بحجر قتلته .

فلما رأى حنظلة ذلك ، دعا القاضي والعدول ، وفتح بيت المال فأخذ منه ألف دينار ، وترك الباقي وقال :

– لا أتلبّس منه إلاّ بقدر ما يكفيني ويبلغني .

ثم شخص عن إفريقية سنة ١٢٩ . وحاول الناس مشايعته ومرافقته ، فخرج منادٍ ينادي من قبل عبد الرحمن :

– لا يخرجن أحد مع حنظلة ، ولا يشيعه أحد [2] !

٦ – ولما ولي عبد الرحمن ثار عليه جماعة من العرب والبربر في السواحل (طرابلس وباجة) ، فتغلب على رؤساء الفتن سنة ١٣١ ، وتابع طريقه إلى تونس ، ليفلّ من حدّة ثورةٍ قام بها عروة بن الوليد الصفري ، وقتله .

وقام عليه ابن عطاف الأزدي فهزمه ، وثارت البربر في الجبال ، وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها . وبعد أن هدّأ أوضاع إفريقية والقيروان

---

١ عينه هشام بن عبد الملك والياً على المغرب سنة ١٢٤ .

٢ البيان المغرب : ١/٧٦ .

خرج سنة ١٣٥ بعد أن خلّف ابنَه حبيباً (الثاني) ، واتجه إلى تلمسان فغزاها . وأسكت ثوراتِ القبائل المُعادية حتى دوّخ المغرب كله . فداخلَ أهل المغرب الرعب والخوف منه . وغزا كذلك صقلية وسردانية بحراً ، دون أن يُهزم له عسكر ، أو تردّ راية .

وهكذا استطاع أن يستولي على المغرب بحراً وبراً ، ويجمع لنفسه الطاعة .

٧ — وفي الأندلس ، فإن البلاد كانت فوضى إلى أن تولّى إمارتَها يوسف بن عبد الرحمن ، وكان قد خرج مُغاضباً أباه . فتجمعت القبائل حوله وعيّنوه أميراً عليهم . واستطاع يوسف أن ينظم الأندلس ، ويُحسن إدارتها ، إلى أن قدم عبد الرحمن الداخل ، وانتزعها منه له ولأولاده .

٨ — ولما تسلم العباسيون خلافة المسلمين ، هرب أكثرُ الأمويين رجالاً ونساءً إلى إفريقية والمغرب . فانتهز عبد الرحمن وأخوه إلياس قدومهم ، وتزوجا بأميرتين أمويتين . غير أن هذا الزواج سبب إحداثَ الفُرقة بين الأخوين . من ذلك أن زوجة إلياس كانت تُحرض زوجها على تسلم ولاية العهد من أخيه عبد الرحمن عوضاً عن ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن . فلم تزل تُوغر صدره حتى جَمعت الأخوين إلياس وعبد الوارث على أخيهما عبد الرحمن [1] ، مما سنرى تفصيله بعدُ .

٩ — ولما استقرت الخلافة لأبي جعفر المنصور ، كتب هذا إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة ، فأجابه ودعا له . ووجه إلى بغداد هدايا طريفة فيها بزاة وكلاب ، وأرسل رسالة معتذراً بقوله :

— إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها .

---

١ البيان المغرب : ١/٦٦ .

فغضب أبو جعفر المنصور ، وكتب إليه يتوعّده . ولما وصل كتاب أبي جعفر إلى عبد الرحمن غضب غضباً شديداً ، وخلع طاعة العباسيين ، ونادى : الصلاةُ جامعة .

فاجتمع الناس ، وخرج عبد الرحمن في مطرف خزّ — وليس بالسواد شعار العباسيين — ، فصعد المنبر ، فحمد وأثنى عليه . ثم أخذ في سب أبي جعفر ، وقال :

— إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به ، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ! . . وإني الآن قد خلعتهُ كما خلعتُ نعلي هذا !

وقذفه من رجله . ثم دعا إلى خلع السواد ، وأمر بتمزيق ثيابه العباسية ، وقال :

— إن هذا لباس أهل النار[1] .

فاستغل أخواه (إلياس وعبد الوارث) قضية معاداته للعباسيين ، وأخذا بالتحريض على قتله سراً . ولما عَيَّن عبدُ الرحمن أخاه إلياس على تونس زاره هذا متصنعاً وداعه ، فوجده مريضاً بفراشه ، فطعنه وحزّ رأسه سنة ١٢٧ ، بعد أن حكم المغرب عشر سنين وسبعة أشهر[2] . وجدّ إلياس في طلب ابنه حبيب بن عبد الرحمن ولكنّ حبيباً اختفى ، وهرب إلى عمه عمران بن أبي عبيدة مستجيراً به ، وكان والياً على تونس لوالده[3] .

---

١ البيان المغرب : ١/٧٦ . الاستقصا : ١/١٢٠ .
٢ الاستقصا : ١/١٢٠ .
٣ البيان المغرب : ١/٧٧ .

فتمّ الأمرُ لإلياس ، واستولى على القيروان . أما عمران وحبيب فقد جهزا جيشاً لحرب إلياس . والتقى الجمعان ، ودارت رحى الحرب . ثم توقفوا فجأة ، واصطلحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وسطفورة والجزيرة ، ويكون لحبيب قفصة وقسطيلية وسائر بلاد الجريد ، ولإلياس القيروان وسائر إفريقية والمغرب .

وارتحل إلياس مع أخيه عمران إلى تونس . ولما وصلا وثب الأوّل على الثاني وقتله[1] ، وقتل جماعة من الأشراف معه ، وعاد هو إلى القيروان . فبعث بطاعته إلى الخليفة المنصور ، وصفا له أمر المغرب .

١٠ — ثقل على إلياس مكان حبيب ابن أخيه ، فأراد أن يتخلص منه . فاحتال عليه حتّى أركبه البحر إلى الأندلس ، وأركب معه أخاه عبد الوارث ، ومن أراد من الأهل . فركبوا البحر ، ولكن ريحاً قاصفاً ردّهم إلى طبرقة . وكتبوا بخبرهم إلى إلياس ، فلجّ في طردهم .

ولما تسامعَ الناس بوصول حبيب إليهم ، اجتمع موالي أبيه وشيعته إليه ، وتسارعوا إلى نجدته ، وأسروا عامل إلياس على طبرقة . وشاع أمره ، واستعدّ للقاء عمه إلياس .

وخرج الياس لقتالهم ، ولكن حبيباً خادعه ، بأنْ أوهم عمّه أنه في جيشه ، ومستعد للقائه . ثم خفّ في جمع من رجاله إلى القيروان ، وملكها عليه ، وتقوّى فيها[2] . فعاد إلياس أدراجه إلى القيروان لمحاربة ابن أخيه الذي غدر به . ولما تراءى الجمعان برز حبيب ، فنادى عمّه للبراز ، وقال له :

---

١ في البيان المغرب : ١/٧٩ أنه سفره إلى الأندلس .

٢ البيان المغرب : ١/٧٩ . الاستقصا : ١/١٢١ .

– هلمّ للبراز ، فأيُّنا غلب ملك .

فصاح الجيشان بتصويب رأيه . فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما . ثم قتل حبيبٌ إلياسَ ، وعاد إلى القيروان فملكها دون منافس آخر سنة ١٣٨ ، فكانت ولاية إلياس نحو سنة ونصف .

ولما قتل حبيب عمه إلياس ، وتمكّن من القيروان ، طلب عمه عبد الوارث لاشتراكه بدم أبيه ، ففرّ عبد الوارث إلى « ورفجومة » إحدى بطون نفزاو بن لوي من البرابرة البتر . فنزل على كبيرهم « عاصم بن جميل » ، وكان كاهناً يدّعي النبوة ، فأجاره . ثم نهض حبيب إليهم ، فأوقعوا به ، وهزموه إلى قابس .

ولما استفحل أمرُ عاصم ، ورأى أن القيروان فوضى بلا رئيس ، هاجمها وقتل أهلها ، واستباحهم ، وخرب مساجدها ، ثم سار إلى حبيب بقابس . فحاربه فانهزم حبيب ، واستجار بجبل أوراس ، فأجاره أهله . ولما علم عاصم بموقعه زحف إليه بجيشه ، ولكن بربر جبل أوراس هزموه وقتلوه .

وتحوّل حبيب إلى القيروان لينقذ أهلها الذين لقوا المذلة من البربر الذين استخلفهم عاصم ، غير أن حبيباً هُزم ، فتبعوه حتى قتلوه سنة ١٤٠ . وانقرض بمقتله آلُ عقبة بن نافع الفهري من المغرب والأندلس[١] . ولعله من غرائب الصدف أن يكون عقبة أوّل أمير ، وأن يكون ابن حفيده آخر أمير .

* * *

---

١ الاستقصا : ١/١٢٢ . البيان المغرب : ١/٧٩ .

رأينا من خلال هذه الوقائع أن أحفاد عقبة وأولاده كانوا يختصمون فيما بينهم ، ويغدرون ببعضهم بعضاً من ناحية ، ويحاربون عناصر الكفر ، ويحاولون إدارة البلاد من ناحية . . وأقلّ ما يوصف به حكمهم الاضطراب والقلق .

وسبب هذا الاضطراب ، انشغال خلافة بني أمية بدمشق بضعفها ، وبمحاربة الفتن ، وردّ أصحاب الرايات السود ، وبالتالي بروز الخلافة العباسية في خراسان والعراق ، وسعيها إلى تثبيت حكمها في العراق وما حولها . ولم يكن بإمكان خلفائها إرسال الجيوش لتهدئة أوضاع الولايات النائية . وبالتالي فإن عبد الرحمن الداخل كان همه الأوّل والأخير البحث عن موالين يثبّتون حكمه .

هذه الظروف السيئة ، هي التي عيّنت أسرة الشهيد عقبة ، وخوّلتهم لأن يتحكموا بمصائر المغرب والأندلس بهذه الصورة . وظل الأمر على اضطرابه حتى آل الأمر إلى الأدارسة .

مكانة عقبة

مكانته العسكرية :

تخطى عقبة حدود ليبيا سنة ٢١ أو سنة ٢٢ ، ولم يكن عمره عامئذ غير اثنتين وعشرين أو ثلاثة وعشرين . وعلى هذا يعتبر من القواد الفتيان الناشئين في الإسلام . ومع ذلك فإنه لم يدخلها غرّاً لا يتدبّر الأمور ، صغير السن غير حازم . بل كان ، على صغر سنه . قويّ الشخصية جريئاً . وأقلّ ما يقال فيه إن عمراً توسّم في روحه العسكرية إمكانية فتح برقة وزويلة ، ليكون درعاً واقية لمصر ضدّ هجمات الروم . وأجاد عقبة في حمايته فعلاً ، ولكنه لم يكتف بالحماية ، بل اتبع خطّة الهجوم أيضاً .

وعلى هذا فقد دخل ليبيا عسكرياً ، وحارب فيها جندياً وقائداً . وظل في المغرب العربي من أقصاه إلى أقصاه حاملاً سيفه بيد وقرآنه بيد ، ويحارب من سنة ٢٢ إلى سنة ٦٣ ، عدا سبع سنوات قضاها مسجوناً ومعزولا .

وقد وهب عمره للجهاد ؛ فلم يهمه أن يعينه الخليفة أو الأمير قائداً أو جندياً . ولكنه في كل الأحوال لم يتنازل عن مقدمة الجيش أثناء الهجوم ، ليكون مثالاً يُحتذى . وعند العودة من غزواته أو انسحابه منها يكون في المؤخرة ليحمي جيشه من شرّ هجوم مفاجىء ، وهذا ما فعله في آخر معركة له ، حيث حمى جيشه ، وفداه بروحه . . وهذا هو شعار المجاهدين الطامحين إلى نيل شرف الاستشهاد .

أما معاركه ، فنوعٌ قام به وهو تابع لمصر ، وبعضٌ أعدّه بنفسه وهو والٍ مستقل ، وآخر كان فيه مساعداً بعض القواد الفاتحين .

وكان عقبة دائماً مثال القائد اليقظ الذكي ، الذي يعرف كيف ينظم الجيوش ، ويعدّ الخطط العسكرية مُسبقاً . ومن أبرز خططه الناجحة هجومه المفاجىء على بعض المدن بعد إيهام حاميتها أن مدينتهم حصينة لا تُرام ، إذا به يفاجئهم على حين غرّة منهم ، كما حصل لخاور . ومن ذلك أيضاً تغييره طرق مسيرة جيوشه ، كطريق العودة عندما وصل السوس الأقصى . ولو أنه عاد من الطريق نفسه لكانت ضربة كبرى لجيوشه ، ولولا أن أهل تهوذة كشفوا لكسيلة قدوم عقبة لاستحال عليه معرفة مكانه لاتساع رقعة البلاد ، وسيره في مجاهل الصحراء وثنايا الجبال ، ودنوّه من حدود إفريقية . ثم إنه ما كان يعرف الملل ولا الكلل ، فنراه يتخطى الوهاد ، والصحارى ، والمناطق الشاسعة . ويعيد الكرة على المدينة الواحدة أكثر من مرة أحياناً ، ولا يعزف عنها ما لم يطمئن إلى فتحها . وتلك هي صفات القائد العسكري الذي صمم على الانتصار ، مهما كلفه ذلك من وقت وجهد .

ومن خططه العسكرية التي عُرف بها وانفرد ، تركُه حرب السواحل لغيره ، وعبوره الصحراء الصعبة جنوباً وشرقاً وغرباً . لأن هدفه الأوّل الذي وضعه نصب عينيه هو توجيه هذه القبائل إلى حظيرة الإسلام ، أما أولئك الأروام فأغراب . حتى إذا انتهى من مهمته الأصلية، فاجأ الروم المُساحلين من الجنوب ومن الغرب ، في حين أنهم كانوا دائماً يتوقعون هجوم المسلمين من جهة الشرق . وهذا لا يعني أنه لم يسر على خط الساحل من أوله إلى آخره ، أبداً ، إنما يعني أنه كان يغير من خططه ليصل إلى نجاح معاركه .

وعلى هذا فإن معاركه اتخذت طابع الحرب البرية في الصحراء ، والحرب البرية على السواحل . كما أنه غزا الروم بحراً بأهل مصر سنة ٣٩[1] ، وغزاها كذلك سنة ٤٩ أيام معاوية بن حديج .

وقد حاولنا إحصاء عدد معاركه ، فرأيناها كثيرة جداً ، ناهيك عن المعارك التي أغفلها التاريخ . وهو على أية حال أكبر قائد إسلامي خاض المعارك البرية في المغرب ، وكان في أغلبها ظافراً .

ومما يُثبت نجاح خططه العسكرية ، اعتماد القواد الذين يمرّون ببرقة عليه ، ويرتكزون على قاعدته في مسيراتهم ، ويتخذون رأيه في مخططاتهم . بل إنهم كثيراً ما يعرضون عليه أن يشاركهم غزواتهم ، تفادياً من التعثر والوقوع في أخطاء عسكرية . وقد استفادوا جميعاً من خططه العسكرية ، حتى بعد مقتله .

وكان – يعدُّ – رجلاً عسكرياً بكل معنى الكلمة ، فلم يُعْلِهِ كرسي الحكم ، ولم تسيطر عليه الجواهر والأغنام ، ولم تهزّه التطورات السياسية أبداً . فلم يكن عثمانياً ، ولا أموياً ، ولا من الموالين لآل البيت . ولهذا لم ترفعه السياسة ، ولم يُخفضه انحدار أحزابها . وكان يفضّل الوقوف على الحياد ، ما دام في ساحات الجهاد . والقائد غير المنحاز سياسياً في عُرف القيادات العسكرية يؤدي واجبه الوطني والجهادي خيراً من المشترى بمرتبة ، أو المُكترى بولاية . وهذا هو السبب – في نظرنا – الذي أبقاه معززاً مكرّماً قرابة أربعين عاماً .

والقائد العسكري يجب أن يكون خطيباً مفوّهاً ، يقود رجاله بكلماته

---

١ البيان المغرب : ١٣/١ .

الملتهبة . وكان عقبة من هذه الناحية ناجحاً جداً ؛ يتبعه جنده إلى الموت إذا خطب فيهم كلمة ، وتراهم ينصاعون ملبّين أوامره لصدقه في المعاملة معهم ، ومهابته متكلماً وصامتاً . ويزداد تأثر جنوده من وقاره ، ومن أسلوبه العسكري الصارم من ناحية ، ومحبته وعطفه عليهم من ناحية أخرى . ثم يعرفون أنه إذا خطب فيهم صدق ، وإذا وعدهم صدق .

مكانته الإدارية :

كانت ليبيا عندما دخلها عقبة ولاية تابعة لمصر في حكمها وفي إدارتها . وقد تحقق استقلالها الذاتي بعد الإسلام أيام معاوية بن أبي سفيان بمساعي عقبة بن نافع . ثم غدت إفريقية تابعة لليبيا بمساعيه أيضاً . ومع أنه بنى القيروان واتخذها عاصمة ، فإن برقة ظلت تأخذ طابع القاعدة العسكرية والإدارية والدينية بالنسبة للجيوش المسلمة الذاهبة أو الآيبة .

ويعتبر عقبة أفضل رجل إداري دخل المغرب ، لأنه صمم منذ دخوله على تفهم أوضاع البلاد ، والتعرف إلى أحوال العباد . ومع كثرة الأمراء والقواد الذين توافدوا على ليبيا والمغرب ، فإنه ظل الرجل الفذّ الذي احتل مركز الصدارة في حسن الإدارة من بين رجالات الفتح ، لأنه دمج الروح العسكرية بالروح الإدارية الغيورة على التأسيس قبل الفتح ، أو بالأحرى الفتح من أجل التأسيس .

فقد عاش بين الشعب ودرس رغباتهم ، وقدّر أحوالهم الاجتماعية والنفسية . ولم يكن قائداً عسكرياً يحيا في قلعته العاجية ، ولا يراه جنده أو الشعب المحيط به إلاّ من بين سيوف حاميته ؛ بل كان ينزل إلى الشعب ، ويعاشر السكان ؛ يأخذ منهم ، ويعطيهم ، ويوجههم ، ويعظهم . لذا أحبوه ومالوا إليه ، وتفانوا في خدمته .

وقد انفرد عن غيره من القواد والأمراء بنشر المحبة بين الشعب المحكوم الآمن المسالم ، والحرب الشعواء للمناوىء المُعادي . لهذا نراه صادقَهم عن ثقة ، ونشر الدين بينهم عن ثقة . . وحاربهم حرباً لا هَوادة فيها عن ثقة أيضاً .

ومن أبرز ما تفهّمه ، صلاتُ البغضاء القائمة بين الروم والبربر سياسياً ودينياً ، فاستغلها أحسن استغلال ، وعرف نفسيات هذه القبائل المضطربة التي تُعلن الإيمان آناً ، وترتدّ آناً آخر . . فعالجه بعدّة أشكال ، حتى وفّق إلى ذلك ببناء القيروان . فجعلها عاصمة الدواخل ، وعيناً عليهم ، وملاذاً لهم .

وتعتبر فكرة بناء القيروان من أنجح خططه الإدارية التي عملت على استقرار الأوضاع السياسية ، وتحضُّر بعض القبائل البربرية ، ودمجها بالعرب المسلمين . وكانت القيروان نقطة انطلاق تأسيس الدواوين التي وضع أسسها الثابتة « حسان » بناءً على تجارب سلفه عقبة .

وكان غيوراً على الشعب ، حريصاً على رفع مكانتهم ، وإبعاد الضنك والجور اللذين كانا يحيقان بهم من حكم الروم . ساعياً إلى أخذ الصدقات من الأغنياء ، وتوزيعها على الفقراء ، وجمع العشر ونصف العشر من المسلمين ، وأخذ الجزية من أهل الذمة إلاّ مَن أسلم ، فيعامله المعاملة المسلمة العادلة .

كل هذه الصفات ، إذا أضفناها إلى وقاره وإيمانه وزهده ، حبّبت البربر بالاندماج بإخوانهم العرب ، ليكونوا صفاً واحداً في كل الأزمات ، ومجتمعاً واحداً ذا أسس ثابتة ، عمادها الدين وشعارها الجهاد .

ويتّهم بعض المؤرخين الغربيين العربَ بتخريب بعض المدن الإفريقية . والواقع إن العرب لم يخربوا إلاّ أسوار المدن ، وهو من فعل القواد الذين

كانوا يتخوفون من تألُّب السكان عليهم ، وإعادة إغلاق المدينة في حال الانتقال إلى حصار مدينة أخرى . بل إنهم ما كانوا يهدمون من أسوارها إلاّ بعض الأجزاء ، من ذلك ما فعله حسان بأسوار قرطاجنة . أما في المدن نفسها ، فقد زادوا من ازدهارها ، وساعدوا على بنائها .

ثم إنهم لم يكن عندهم إمكانية وضع حاميات كافية لتوزيعها على المدن والحصون التي يحتلونها ، ولهذا كانوا يضطرون إلى تهديم بعض الأسوار كما أسلفنا ، ليتابعوا مسيراتهم الحربية .

ومن عادتهم أن يتركوا مدن سكان البلاد ، ويؤسسوا عواصم خاصة بهم ، ويتركوا أبوابها مفتوحة لكل قاطن ومستوطن ، كما حصل في الفسطاط والقيروان وتونس .

مكانته الدينية :

قلنا إن أقباط مصر ، وبعض بربر شمال إفريقية اضطروا إلى الدخول في المسيحية طمعاً في الخلاص من العذاب الذي كانوا يلقونه من الحكام الروم والبيزنطيين ، ومما وجدوه من صفات السماحة والإخاء ، التي يجب أن يتصف بها الرجل المسيحي الصادق في دينه ، تمشياً مع تعاليم سيدنا عيسى (المخلص) عليه السلام . غير أنهم سيموا العذاب أيضاً لاختلاف المذاهب المسيحية . وعرفوا في النهاية أن تعاليم السيد المسيح يتبعونها فيما بينهم ، في حين أنهم ظلوا على احتقارهم لسكان البلاد المفتوحة .

ولما دخل العرب حاملين رسالة السماء ، الداعية إلى الأخوة الصادقة ، والإنسانية السامية ، أرجفوا منها في بادىء الأمر ، لأنهم تصوروا أن حاملي هذه الرسالة هم أنفسهم ، حاملو الرسالة السماوية السابقة .

ولم يجبرهم العرب على الدخول في الإسلام في بادىء الأمر ، بل خيّروهم بين أن يُسلموا فيغدوا مثلهم ، ويدفعوا الخراج الذي يدفعون ، أو يبقوا أهل ذمة معزّزين ، فيدفعوا حينئذ الجزية المفروضة . . والفقير منهم يُعفى بل يُعطى ، والفقير من المسلمين ؛ عرب وغير عرب تُوزّع عليه الزكاة التي تجبى من الأغنياء ؛ عرب وغير عرب . أما الكفار والمشركون فلا مكان لهم في هذا الوجود .

لهذا وجدنا البربر والأقباط يدخلون في دين الله بادىء ذي بدء وحداناً ، حتى إذا أمنوا شرّ المنقلب ، وعرفوا عزّتهم ومكانتهم في هذا الدين أقبلوا عليه أفواجاً وزرافات . بل إنهم سابقوهم إلى احتلال مراكزهم في الجيش والحكم والدين . فأحسوا بمقامهم بعد زواله أيام الرومان . ولعلهم وصلتهم أنباء الشعوب المفتوحة شرقاً كبلاد فارس ، التي أسلم أهلها ، وشاركوا العرب في الفتوح والقيادات . ووصلتهم أنباء الرسائل التي كانت تفد على عمرو بن العاص من عمر بن الخطاب ، يحضّه وإخوانه فيها على التمسك بشعائر الدين ، ويأمره بحسن معاملة السكان ، وعدم غمطهم حقّهم [1] .

---

١ من ذلك تلك الرسالة التي بعثها إليه ، والتي يقول فيها : « واعلم يا عمرو ، أن الله يراك ويرى عملك . فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماماً) يريد أن يقتدى به . وإن معك أهل ذمة وعهد . وقد أوصى رسول الله (ص) بهم ، وأوصى بالقبط فقال : (استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً) ، ورحمهم أن أم اسماعيل منهم . وقد قال (ص) : (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) . احذر يا عمرو أن يكون رسول الله (ص) لك خصماً ، فإن من خاصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وأنست من نفسي ضعفاً ، وانتشرت رعيتي ، ورق عظمي . فاسأل الله أن يقبضني إليه غير مفرط . والله إني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه يوم القيامة » .

ولعل الظروف التي دخل الإسلام فيها شمال إفريقية ساعدت كثيراً على انتشاره فقد سرى الإسلام في تلك البلاد أيام صفاء الفكرة ، وسموّ نفوس حامليها ، ونبل رجالاتها في حمل مبادىء الإسلام . وكانوا كلهم خيرة صحابة الرسول (ص) وأفاضل التابعين . . . وكانوا يعدّون بالمئات أو الآلاف . حملوا جميعاً الإسلام بصدورهم ، ونفوسهم ، ومعاملاتهم .

ولهذا لمس البربر المساواة الصادقة ، والحق الكامل ، والمعاملة الطاهرة من هؤلاء الحمَلة ، وعلى رأسهم عقبة وأصحابه الصحابة والتابعون . ولما عرف البربر أن الإسلام يطالبهم بما يطالب العرب ، ويأخذ منهم ما يأخذه من العرب ، ويعطيهم كإعطائه أولئك ، أقدموا ، وسبقوهم إلى ساحاتِ الوغى . . وكان منهم خيرة قواد الفتوح فيما بعد . . أي بعد سنواتٍ من دخول عقبة صحارى ليبيا .

وقد قدّر عقبة أن الجيوش وحدها لا تكفي لفتح هذه القفار والوهاد والجبال والسواحل ، وأنه لا قِبلَ له ولا لغيره أن يظفر بالهدف السامي الذي جاء من أجله بالسيف . . بل إنه لم يفكر به أصلاً منذ دخل برقة وزويلة ، لذا رأيناه يقول لعمرو : إن ما بين برقة وزويلة سلم . . في عداد المسلمين .

قدّر هذا القائد أن القرآن وحده هو الذي يستطيع أن ينشر الأمن ويُحقّ الحق . . لذا غدا واعظاً بين سكان القبائل . ولم يكن في هذه المهمة وحده ، بل إنه كان يرسل الوفود لنشر الدين إلى كل بقعة ، في برقة وفي الصحراء . وظل في مساعيه حتى ظفر .

ولما استشهد عقبة سنة ٦٣ كان الإسلام منتشراً انتشاراً واسعاً . صحيح أنه لم يتخذ الجذور العميقة ، ولكن نشره هذا كان أساساً يتبعه غيره . . ولما جاء موسى بن نصير في عهد الوليد بن عبد الملك رأينا شمال إفريقية

كله تقريباً مسلماً حنيفاً ، متبنيّاً نشر أوامره ونواهيه شمالاً في إسبانية ، وجنوباً في أواسط إفريقية .

وانتشار الإسلام يعني بطبيعة الحال انتشار اللغة العربية ؛ لغة القرآن الكريم ، ولسان الرسول العربي (ص) . ولهذا نجد اللغة العربية تتمتع بنصيب كبير من الانتشار بين الشعوب المفتوحة شرقاً وغرباً ، يتناقلها الأغراب عن الأعراب . ويتباهى بمعرفتها المسلمون في كل الأقطار ، ويتسابقون إلى الكتابة بها بشتى الأغراض والأوطار . وما هي إلاّ سنوات حتى تعلمها أهل البلاد وأتقنوها ، وهذا ما عجزت عنه الإمبراطوريتان الرومانية والبيزنطية ، في كل مستعمراتهما في آسية وإفريقية .

رحم الله عقبة وصحبه ، فقد كانوا نباريس الهداية إلى نشر الإسلام ، ومشاعل السبل إلى تعريب الشمال الإفريقي كله منذ ثلاثة عشر قرناً .

قوافل الصحابة

الدعاية الحسنة التي أوجدها عقبة وإخوانه، في جهادهم في ليبيا والمغرب، وحب المسلمين للجهاد، وتفانيهم في إيصال الكلمة الحق إلى كل بقعة من العالم، حدت بقوافل الصحابة إلى أن يتسابقوا للقدوم إلى هذه البلاد بشكل استرعى انتباه المؤرخين، فراحوا يسجلون أسماءهم وأسماء تابعيهم، بل يؤلفون الكتب في ترجمات أحوالهم.

ولعل تأخر سني الجهاد في شمال إفريقية، وهدوء الشرق هدوءاً نسبياً، والأصداء الحسنة التي وصلت إلى أسماع أهل الحجاز والشام، ألهبت في نفوسهم حب الجهاد والفداء، فقدموا قوافلَ متتابعة، وتوزعوا بين مجاهد ومبشر، وانتشروا في أرجاء الأرض يعلّمون الناس ما تعلموه من الرسول (ص). فقد قال ابن عبد الحكم عن سليمان بن يسار: غزونا إفريقية مع ابن حُديج، ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار. وكان عقبةُ يصطحب معه دائماً ثمانية عشر صحابياً. ومن كثرة الصحابة الذين دخلوا زويلة، واستشهدوا فيها يوم فتحها، ودفنوا فيها أن السكان يسمون قبور الشهداء «قبور الصحابة»، وهي غير قبور الصحابة الموجودة في درنة المطلّة على البحر. وقبور الشهداء مع عقبة ما زالت في الجزائر في «سيدي عقبة»[1].

---

[1] يقول ابن خلدون: .. هو أشرف مزار من الأجداث في بقاع الأرض، لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين.

ومن الجدير بالانتباه ، أن عدداً كبيراً من قبورهم ما زال ماثلاً إلى الآن في شتى بقاع الشمال الإفريقي . وسبب بقاء هذه القبور ، أن الشمال الإفريقي كانت في منأى من هجوم المغول الشرس الذي هدّم كل بناء أمامه ، وأحرق كل أخضر ويابس ، كما لم يصل إليها المدّ الصليبي الغربي الذي أفسد أغلب مقدسات المسلمين في البلاد التي دخلوها .

وقد رأينا سرد ثبت بأسماء بعض الصحابة وآل البيت الذين دخلوا المغرب مع عقبة بن نافع وبُعيده . مجاهدين أو مرشدين[1] . . مرتبة أسماؤهم حسب الألفباء .

١ – أبو ذر الغفاري .
٢ – أبو زمعة البلوي .
٣ – أبو ضبيس البلوي .
٤ – أبو المبتذل .
٥ – أبو يقظان .
٦ – أبيض بن حمال السبائي الموار بي .
٧ – بسر بن أرطأة .
٨ – بلال بن الحارث المزني .
٩ – جبلة بن عمرو الساعدي .
١٠ – جرهد بن خويلد بن بجرة السلمي .
١١ – جندب بن جنادة .
١٢ – حبان بن أبي جبلة .
١٣ – الحرث بن حبيب بن خزيمة .

---

١ أما التابعون فأعدادهم أكثر .

١٤ — الحسنان .

١٥ — حمزة بن عمرو الأسلمي .

١٦ — خالد بن ثابت العجلاني الفهمي .

١٧ — خويلد بن خالد ، أبو ذؤيب الهذلي الشاعر .

١٨ — ربيعة بن عباد الديلمي .

١٩ — رفاعة بن يثربي ، أبو رمثة البلوي .

٢٠ — رويفع بن ثابت الأنصاري .

٢١ — الزبير بن العوام .

٢٢ — زهير بن قيس البلوي .

٢٣ — زياد بن الحارث الصدائي .

٢٤ — سفيان بن وهب الخولاني أبو اليمن .

٢٥ — سلكا بن مالك .

٢٦ — سلمة بن الأكوع .

٢٧ — شريك بن سمي الغطيفي .

٢٨ — عاصم بن عمر .

٢٩ — عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق .

٣٠ — عبد الرحمن بن العياش بن عبد المطلب .

٣١ — عبد الله بن أنيس الجهني القضاعي .

٣٢ — عبد الله بن جعفر بن أبي‌طالب .

٣٣ — عبد الله بن الزبير .

٣٤ — عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

٣٥ — عبد الله بن عباس .

٣٦ — عبد الله بن عمر .

٣٧ – عبد الله بن عمرو بن العاص .
٣٨ – عبد الله بن نافع بن حصن .
٣٩ – عبيد الله بن عمر بن الخطاب .
٤٠ – عثمان بن عوف المزني .
٤١ – عقبة بن نافع بن عبد القيس .
٤٢ – عمرو بن العاص .
٤٣ – فضالة بن عبيد الله الأنصاري .
٤٤ – قيس بن يسار بن مسلم الكناني .
٤٥ – محمد بن أوس الأنصاري .
٤٦ – مروان بن الحكم .
٤٧ – مسعود بن الأسود البلوي .
٤٨ – المسور بن مخرمة .
٤٩ – المسيب بن حزن المخزومي .
٥٠ – المطلب بن السائب بن أبي وداعة السهمي .
٥١ – معاوية بن حُديج أبو نعيم .
٥٢ – معبد بن العباس بن عبد المطلب .
٥٣ – المقداد بن الأسود الكندي .
٥٤ – المنيذر الأسلمي .
٥٥ – يزيد بن خلف العبسي .



فهرسة المصادر والمراجع

١ ــ آثار البلاد وأخبار العباد ــ زكريا بن محمد القزويني بيروت : ١٣٨٠ ــ ١٩٦٠

٢ ــ أخبار عمر ــ علي الطنطاوي . دمشق : ١٣٧٩ ــ ١٩٥٩ .

٣ ــ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ــ أحمد بن خالد الناصري الدار البيضاء : ١٣٧٤ ــ ١٩٥٤ .

٤ ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ــ يوسف بن عبد الله بن عبد البر . مصر

٥ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة ــ علي بن محمدالجزري ابن الأثير . طهران

٦ ــ الأعلام ــ خير الدين الزركلي . بيروت .

٧ ــ أنساب الأشراف ــ أحمد بن يحيى البلاذري . مصر : ١٣٧٩ ــ ١٩٥٩ .

٨ ــ البداية والنهاية ــ أبو الفداء اسماعيل بن عمر ، ابن كثير مصر .

٩ ــ البيان المغرب في أخبار المغرب ــ ابن عذاري المراكشي . بيروت : ١٣٧٠ ــ ١٩٥٠ .

١٠ ــ تاريخ ابن خلدون ــ ابن خلدون مصر : ١٢٨٤ ــ ١٨٦٧ .

١١ ــ تاريخ الإسلام ــ حسن ابراهيم حسن . مصر : ١٣٩٤ ــ ١٩٧٤ .

١٢ ــ تاريخ الأمم والملوك ــ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري مصر : ١٣٥٨ ــ ١٩٣٩ .

١٣ ــ تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة ــ عبد الرحمن الرافعي . مصر : ١٣٨٣ ــ ١٩٦٣ .

١٤ ــ تاريخ الدولة العربية ــ ثابت اسماعيل الراوي . بغداد : ١٣٩٠ ــ ١٩٧٠ .

١٥ ــ تاريخ الدولة العربية ــ السيد عبد العزيز سالم . بيروت : ١٣٩١ ــ ١٩٧١ .

١٦ ــ تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ــ عبد الله بن محمد الأزدي ، ابن الفرضي . مصر : ١٣٧٤ ــ ١٩٥٤ .

١٧ ــ تاريخ الفتح العربي في ليبيا ــ الطاهر أحمد الزاوي . مصر : ١٣٨٣ ــ ١٩٦٣ .

١٨ ــ تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ــ جون رايت . ترجمة : الميار واليازوري طرابلس ليبيا : ١٣٩٢ ــ ١٩٧٢ .

١٩ ــ تاريخ المغرب الكبير ــ محمد علي دبوز . مصر : ١٣٨٤ــ١٩٦٤

٢٠ ــ تاريخ اليعقوبي ــ أحمد بن أبي يعقوب . بيروت : ١٣٨٠ ــ ١٩٦٠ .

٢١ ــ تهذيب ابن عساكر ــ ابن عساكر . دمشق : ١٣٢٩ ــ ١٩١١ .

٢٢ ــ جمهرة أنساب العرب ــ ابن حزم . مصر : ١٣٨٢ ــ ١٩٦٢ .

٢٣ ــ جوامع السيرة ــ ابن حزم . مصر ــ تراث الإسلام (٢)

٢٤ ــ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ــ شكري فيصل . بيروت : ١٣٧٢ــ١٩٥٢

٢٥ ــ الحلة السيراء ــ محمد بن الأبار القضاعي . القاهرة : ١٣٨٣ ــ ١٩٦٣ .

٢٦ ــ الخراج ــ أبو يوسف . مصر : ١٣٤٦ ــ ١٩٢٧ .

٢٧ ــ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ــ أبو بكر عبد الله المالكي . مصر : ١٣٧١ ــ ١٩٥١ .

٢٨ ـ سير أعلام النبلاء — محمد بن أحمد الذهبي . مصر — ذخائر العرب (١٩) .

٢٩ ـ السيرة النبوية — عبد الملك بن هشام . مصر : ١٣٧٥ — ١٩٥٥ .

٣٠ ـ شذرات الذهب — عبد الحميد بن العماد الحنبلي . مصر : ١٣٥٠ — ١٩٣١ .

٣١ ـ شرح كتاب السير الكبير — محمد بن الحسن الشيباني . مصر : ١٣٧٧ — ١٩٥٧ .

٣٢ ـ شرح النووي على مسلم — الإمام النووي . مصر : ١٢٨٣ — ١٨٦٦

٣٣ ـ صانعو التاريخ العربي — فيليب حتّي . بيروت : ١٣٨٩—١٩٦٩.

٣٤ ـ صبح الأعشى — القلقشندي . القاهرة — المطبعة الأميرية

٣٥ ـ الطبقات الكبرى — ابن سعد . بيروت : ١٣٧٧ — ١٩٥٧ .

٣٦ ـ عمرو بن العاص — عباس محمود العقاد . مصر دار الهلال .

٣٧ ـ عمرو بن العاص ، دارسة مستحدثة — محمد فرج . مصر : ١٣٨٠ — ١٩٦٠.

٣٨ ـ الفاروق عمر — محمد حسين هيكل . مصر : ١٣٩٢ — ١٩٧٢ .

٣٩ ـ فتوح إفريقية والأندلس — عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . بيروت : ١٣٨٤ — ١٩٦٤

٤٠ ـ فتوح البلدان — أحمد بن يحيى البلاذري . القاهرة : ١٣٧٩ — ١٩٥٩ .

٤١ ـ فتوحات الإسلام في إفريقية والمغرب والأندلس — نجار ومصباح . مصر : ١٣٨٧ — ١٩٦٧ .

٤٢ ـ قادة فتح الشام ومصر — محمود شيث خطاب . بيروت : ١٣٨٥ — ١٩٦٥ .

٤٣ ـ قادة فتح المغرب العربي ـ محمود شيث خطاب . بيروت : ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦ .

٤٤ ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ـ القلقشندي . مصر : ١٣٨٣ـ ١٩٦٣.

٤٥ ـ القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة ـ الحبيب الجنحاني . تونس : ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ .

٤٦ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير . بيروت : ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥

٤٧ ـ مصر في العصور الوسطى ـ علي ابراهيم حسن . مصر : ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ .

٤٨ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ عبد الواحد المراكشي . القاهرة : ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ .

٤٩ ـ المجموعة الفارسية ـ للمؤلف . دمشق : ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩ .

٥٠ ـ مجموعة الوثائق السياسية ـ محمد حمد الله . بيروت : ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩ .

٥١ ـ معجم البلدان الليبية ـ الطاهر أحمد الزاوي . طرابلس ليبيا : ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ .

٥٢ ـ المغرب في حلي المغرب ـ علي بن سعيد أبو الحسن . القاهرة : ١٣٧٣ ـ ١٩٥٣ .

٥٣ ـ المغرب العربي ـ ادوارد راي . ترجمة : جودة طرابلس ليبيا : ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ .

٥٤ ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ المقريزي . القاهرة ـ بولاق .

٥٥ ـ المؤنس في تاريخ إفريقية ـ ابن أبي دينار . تونس .

٥٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي . مصر : ١٣٤٨ ـ ١٩٢٩ .

العنوان	المؤلف والنشر
٥٧ – نخبة الدهر في عجائب البر والبحر	– محمد بن أبي طالب الأنصاري بطر سبرج .
٥٨ – نفح الطيب	– أحمد بن محمد المقري التلمساني القاهرة : ١٣٦٧ – ١٩٤٧ .
٥٩ – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب	– القلقشندي . مصر : ١٣٧٩–١٩٥٩ .
٦٠ – الولاة وكتاب القضاة	– محمد بن يوسف الكندي . ليدن : ١٣٣١ – ١٩١٢ .

محتوى الكتاب

الفصل الثاني ٩١ ــ ١٧٠

عقبة بن نافع وفتح ليبيا

الفصل الثالث ١٧١ – ٢٣٣

عقبة بن نافع وفتح المغرب

الفصل الرابع ٢٣٥ ـ ٢٥٣

فتح المغرب الأوسط والأدنى والأقصى

الفصل الخامس ٢٥٥ ـ ٢٩٣

الفتح بعد عقبة